

يوسف السباعي

ليل له آخر

الجزء الثالث

www.malazna.com

RAYAHEEN



www.malazna.com-RAYAHEEN

مقدمة

هذه هي الرواية الرابعة التي أكتبها انفعالا بأحداث كبيرة مرت بنا في تاريخنا الحديث .

الرواية أولى « رد قلبي » انعكست فيها الثورة بكل ما تعبر عنه في هذه الفترة من تاريخنا .

والثانية « نادية » بنت من خلالها معركة التلميم .

والثالثة « جنت الديموع » رويت فيها أحداث الوحدة .

وهذه القصة حاشي أبطالها نكسة الانفصال .

ولقد تسائل البعض عن سبب التزام هذا الخط التاريخي أهو نوع

من الالتزام السياسي ؟ . وسبب لي هذا التساؤل نوعا من الضيق ، فلما لا أحب الالتزام المفروض أو بمعنى أدق الإلزام .

ولكني لحسنت أن الفترة التاريخية التي تمر بها قد شحنت بالأحداث التي تجعل الكتابة عنها انفعالا قبل أن تكون التزاما .

ووجدت القدر يلبي إلا أن يشعني دائما في قلب الأحداث وإن أعيشها بكل جوارحي . .

فلقد عشت في دمشق وقت الانفصال ومارست الحياة هناك فترة طويلة قبلها . واعيشست بمشاعر الناس وانفعالاتهم .

ولقد أعقب تجربة الانفصال في حياتي تجربة إنسانية أخرى مرتت بها كانت هي تجربة أبني « إسماعيل » ورفقته في قفص من الجبوس

ما يقرب من عام .

ولست أظن الكاتب يملك الانعزال عن تجاربه وتجارب مجتمعه ،

ويستلظن والامر كذلك إلا ان هذه القصة التي اقدم لها حصيلة تجربة
مجتمعة وتجربة إنسان . ولا اظن فيها التزاما بفروغيا بل هي تعبير مباشر
من انفعال صادق .

ولعل استنكارى لتهمة الالتزام لا يبرره إلا إيماني المطلق بحرية
الكاتب وبن العمل الفني الاصيل لا يمكن أن يصدر إلا عن تفكير منحرر
من كل قيد إلا قيد الضمير .

يوسف السباعي

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الاهتمام

لمى عرش البحر الأحمر

والسفينة تشق طريقها إلى اليمن ، اقبل على " اسمر الوجه رقيق
السيات يسألني في حياء إن كان يستطيع أن يعرف خاتمة هذه القصة
عند شق مله الرحيل إلى الميدان دون أن يتم قراءتها إذ لم تكن قد
استكملت النشر بمسلسلة .

ووقفت وإياه على سطح المركب أحرص عليه ما لم ينشر بعد من
القصة .

ومتما امسك بها الآن كائلة أحسن برغبة في أن أهدبها إليه .
فإلى الصديق التقيب « سير » أهدى قصة « ليل له آخر » .
أهدبها إليه قارئا منحنى من التقدير أصنقه ونفيلسه .
وأهدبها واحدا من مثائلي الذين خاضوا اشرف المعارك وأتلبها .

يوسف السباعي

عن حقيقتنا .. حقيقة ما بيننا .. ما كنا فيه .. وما صرنا إليه ..
وما يمكن أن نصير إليه .

هل تصدق إذا ما قلت لك إنى لم أكن فى حياتى أشد ثقة ولا أكثر
إيماناً ولا أتوى أملاً بما لنا عليه الآن .

بعد كل ما مر بنا .. من الهزات .. والصدمات .. والظلمات ..
بعد كل هذه الأحداث التى خلفناها .. والتى انتهت بى إلى ردتى
العاجزة المشلولة .. تطوف بى الوجوه مظلة بابتسابت مريضة
مشفوعة إلى الأفئدة تحمل من معانى الجزع أكثر مما تحمل من معانى
الابتسامة .. ابتسامات جامدة كأنها الإقنعة الضاحكة .. يهتف بى
أصابعها فى مرج عصبي بأتى بخير .. وكأنى بهم يؤكّدون أنى لست
بخير .

بعد كل هذا .. هل تصدق .. أنى وحدى الذى أحس بالطمانينة
على نفسى .. وأن الابتسامة التى تعلو شفتى .. هى وحدها الصادقة
وسط كل هذا السيل الزائف من الابتسامات المحيطة بى .. والتى
تجبر عن إحساس من الأمل .. بأتى بخير .. أو على الأقل ساكون
بخير .

هل تصدق .. إذا ما قلت لك إنى أحس كأنى لم نفرق .. وكان
رحيكت بكل ما أحاط به من مظاهر المرارة والألم واليأس .. لا يمكن أن
يكون سوى رحيل إلى عودة .. وأنه لا يزيد على أجارة قصيرة إلى
الفاخرة .. لا يلبث أن يقطبها شوقك إلى .. ويردك إلى قبل أن
تشفى .

هل تصدق أن بنفسي الرائدة العاجزة .. كل هذه الآمال العريضة
.. المشرقة .

أنا نفسي لا أكاد أصدق .
عندما أذكر ردتى الأولى ، منذ سنوات طويلة مضت ، واليأس
الذى غمرنى ، وقطع خيوط الأمل من أكتافى والتى بى من فجر حياتى
إلى بهيم معتم السواد .

... وأنت طيبة

لم أكتب .. ولماذا أكتب ؟

أما لم .. فشىء محير !!

فالحديث كما يبدو موجه إليك .. ولو اعتبرنا الشكل وكلك الخطيب
.. لما كان هناك من حاجة إلى التساؤل .. ومع ذلك أشك كثيراً فى أن
أكون قد تصدقت بحديثى بقدر ما تصدقت نفسى .. فأنا التى .. لاكتطه
.. وألوكه فى ذهنى .. كما يلوك الطبل قطعة الطوى فى غيه ..
استلعمه .. أنعم بترجيده .. واستمتع برجع صداه .

فأنا إنى أكتب لنفسى .. لنعم بالحديث إليك .. حديث طويل ..
لنبدأ بمتع .. أطوى به أبهى الثغيلة البطيئة وأبدد به بعض ذلك الضيق
المعتم الذى جره علينا فجر أسود تأبى أن تشرق به شمس ..

أكتب لأعشى حياتى ثغية .. أجترها .. بكل ما فيها من مرارة
وحلاوة ، وشقاء وهناء ، ولحادثات وفكريات .
فكريات !!

تعبير جائر .. فالذكريات شىء كان .. وما بيننا لا يمكن أن يوضع
فى مجال ما كان .. إنه كان .. ولكنه ما يزال كأننا .. وسيبقى ما بقى
لنا إحساس بهذا الكون .

لن ادع كلمة فكريات تتردد على لسانى أبداً ..

لا .. ولا وداع .. ولا فرقة ولا بعد ..

ولا أية كلمة من هذه الكلمات المرة البائسة التى لا يمكن أن تعبر

كان ذلك منذ ستوات طويلة .. طويلة .. عقب العبد الثاني عشر
أولدى .. وكنت قد قضيت يوما سعيدا مليئا بالرح والبهجة .

كان الربيع قد أقبل .. والجو قد أخذ يميل إلى الدفء ، واستيقظت
على يوم مشرق الشمس .. رطب النسيمة .. ولتعت عيني لأجد نفسي
بين ذراعي أبي ، وقد أنحنى عليّ يمسني في رفق ويهتف بي :

— كل سنة وأنت طيبة .

وضمته إليّ وأجبتة وأنا نصف مغمضة :

— هكذا حاف ! لا تنفع .

— لماذا تريدني .. مري .

ولم يكن من السهل عليّ أن آمر .. لا لأني أخشى إلا لأجاب ، بل
لأني لا أعرف أن أوابري لمبة قبل أن أفصح عنها .. فلا أظنني أحسست
أيضا في أية مرحلة من مراحل عمري أنني كنت في حاجة إليّ أن أطلب
شيئا .

لقد كنت دائما أكثر من بخلة .. كنت هواية أبي المتفلة ، وشغل
لي التفاضل .

ولم يمسني الإغرام في التقليل ، لا لرجلحة في عظمي كما كنت
أفهم .. بل لأن أبي وأبي كانا من فرط السرقة والحب بحيث كنت
أخشى أن أسبب لهما أي خيب أو الفشل ما أحس أنه قد يخسرس
بشاعرهما أقل خدش .. كنت أخاف عليهما أكثر مما أخاف منهما ..
وكأنت خشيته من إغصامهما أقدر على تقويس وردى إلى الصواب
وإزاي بطامتهما من خشيته من عذاب منهما .. كنت أعلم حلم البتين
أنه لير واقع مها نعلت .

وعندما يفتح الله مثل هذين الأبوين إلى جانب شغلها المفرطة بابنة
وحيدة ، سعة في الرزق ، ووفرة في المال .. تحصل بشاعرها
الردودة سهلة الترجمة من أقوال إلى أفعال .

عندما يفتحها الله الصلف ، والمال المتفد لظاهر العطب ، تصبح
أبنتها ، التي هي أنا ، محرومة من الإحساس بأنها في حاجة إلى شيء ،
أو أنها تريد شيئا .

كان أبي ثريا ، بلغة جيله ، وإتاعيا ، بلغة جيلنا .. كان يملك
ما يربو على الآلاف دونم في مناطق مختلفة من الشمال ، والجنوب .. من
الجزيرة حتى السويداء ، ولم يكن إحدى عنها أكثر من أنها مسج لاختلافه
عنا بضعة أشهر على مدار العام .

لما أكثر ما كنت أحس به من يملكته — غير الدار التي نطقتها —
لهو بستان الفوطه في دمشق ، مراعي الأخضر المزدهر ، ومرتع طنولتي ،
ماغصاته الحاتية ، وقطوعه الدائبة ، وبياحه الباردة الجارية .

ومن وحى البستان نقل إلى ذهني ، مطلق الذي ما زال أبي
يضمني إليه في انتظار أمري به .

كنت أعرف أنه قد أتى لي بكل ما يمكن أن أطلبه من لعبات وحلوى
وكتب واسطوانات .. وكنت أعرف أن « أمي » قد تولت الجانب الآخر
من مطالبي وهو الثياب .

المطلب الوحيد الذي كنت أعرف أنه لا يقدمه إلا إذا طلبته .. قد
كان هو نفسه .. إذ كان من فرط مشاغله ومن فرط لهنى عليه ، يعتبر
من أندر المطالب التي يمكن الحصول عليها .
ودفعته متى يرفق حتى أتنظر إلى حينه وقتلت له في نوع من
الإصرار :

— أريدك أنت .

وابشتم في سعادة وأجاب :

— أنا تحت أورك ، بمجرد أن أنتهي من عملي سامود إليك .. و ..
وقلت مخاطبة وأنا أثير إليه بسيلتي منخرة :

— لن نذهب إلى هناك ، ستقضي اليوم معنا في الفوطه ، سندمو
لتي ، وسلي ، لننقذ هناك .

وبد يده يرفع الشعر من فوق عيني ، وبدا كأنها أسقطت في يده
وقال متضاحكا :

— سامود إليكم بمجرد أن تنتهي .
ومدت أقدامه :

— بل سنبقى معنا ، طول اليوم .. إنك لم تجلس معنا منذ شهر .
— إني مرتبط بعدة مواعيد ، ولابد أن أقابل وزير المالية في هذا
الصباح ، ولابد أن أحضر مجلس إدارة شركة الأسمنت بعد الظهر .
واقاطعته في شيق حديثي :
— كل هذا ستفعله اليوم ! كنت أعتقد تعرف أن اليوم عيد ميلادي .
ونظر إليّ لاثما :
— بعد كل هذا لا امره ! لقد أعددتك لك كل شيء .
— إلا نفسك .

— وحتى نفسي سأعدها لك ، سأغني كل مواعيدي ، لن أذهب
إلا لموعد الوزير ، وسألتصرف مع « عيد الحفيد هاني » ، ثم أعود
إليك قبل الغداء في الفوطية .. أيرضيك هذا ؟ !
ونفذت ذراعي كضربه إليّ في فرحة ، وأنا أتسائل :
— وسنبقى معنا طول اليوم ؟ !
— طبعاً .

وأقبلت « أمي » وقد اشرق وجهها بالبنسابة مريضة وقالت مزحة
وهي تفسني إليها :
— ألم يكتفيا غزلاً .. كل سنة وأنت طيبة .
— ولنت طيبة يا ماما .
— هيا للفطار .

ونفسي « أبي » .. ليكمل ارتداء ثيابه وتسيته بنظرة إعجاب ،
وقفزت من الفراش للاحق بأبي ثالثة :
— ستبقى اليوم في الفوطية .
وردت « أمي » بلهجة خاطعة :

— سنذهب بعد الغداء .

— ولماذا لا نتفدى هناك ؟

— الأسفل مباس سيتأخر ، والاستراحة هناك تحتاج إلى تنظيف :

و

وكانت أعرف إجابة « أمي » سلفاً ، وأعرف مدى ضيقها بعملية
الطعام في الفوطية ، لعدم استعداد الاستراحة هناك للواتم ، وضيقها
بنقل الأظصة والموايين ، ونقل حركتها ، وعدم قبولها لمشروعاتي
المفاجئة ، التي يمكن أن يسلم بها « أبي » بنشئ السهولة .

وبعد ذلك ، ورغم معرفتي بإجابتها ، كنت قد مزمت على الغداء في
الفوطية ، فقد كنت أتوق إلى قضاء اليوم بأكمله هناك .. وكانت أعرف
أن يوم جيلادي ، هو خير فرصة يمكن استغلالها للتفاه على مقاومة
« أمي » الطبيعية لعملية الغداء في الفوطية .. فتملكت بشراها بتوسلة :
— لقد دعوت سلمي ، وستأتي خالتي وأولادها ، و

— ومن أجل هذا سنتفدى هنا .. بيت الفوطية لا يحتل كل هؤلاء .
— ولكني قلت لهم إننا سنتفدى هناك .
— سنقول لهم إننا سنذهب بعد الغداء .
— ولكن ..

والنفت إليّ « أمي » وقد توفقت قرب المائدة :

— سفير .. لا تكوني عنيدة ، دعيني أتولى كل شيء ، نحن لم ندع
الناس للشرشرة والبهلولة ، لابد أن يكون الغداء لثقا ، والغداء في
الفوطية لن يكون أبداً لثقا .
— لماذا ؟ ! إننا نستطيع أن نقل كل شيء .

وكان لابد أن أستمع بأبي ، فصمت به وقد أقبل يربط الكرائنة
ويتسائل :

— يا الحكاية ؟

— ماما لا تريد أن نتفدى في الفوطية .

— لماذا ؟ !

والجابت « مايا » في التصلب :

— لآني لا أحب الشرشحة .

ورد « أبي » ضاحكا :

— ولكننا نحب الشرشحة .

ونظر « أبي » بتسائلا :

— اليس كذلك يا سهير ؟

والجبت ضاحكة :

— أنا شخصيا .. أموت في الشرشحة .

ورد أبي :

— نلتهمنا .. اثنين ضد واحد .. الغلبة .

وقالت « أمي » في عناد :

— مستغدى هنا .

ورد « أبي » ببساطة :

— سأعود في الظهيرة إلى الغوطة .

وكتت أمرف أن « أبي » أجل دائما إلى الرضوخ لرغبات « أمي » ..

حتى يريحها ويربح نفسه ، ولكني كتت أعلم أيضا أنه إذا جد الجد سلكت

له بسهولة ما يريد . وكتت أحسن من لهجته وهو يقول إنه عائد إلى

الغوطة أن الجد قد جد .. فلم أحاول أن أرهق نفسي في إنسلم المناقشة

لأني كتت واثقة أننا ستتناول الغداء في الغوطة .

وجلسنا حول المائدة .. واثبتت « حنيفة » تحمل طبعي البيض

وروضته بألمى وهي تقول :

— كل سنة وأنت طيبة .

وكتت أشعر أن « حنيفة » أكثر من مجرد خالصة ، وما أظننا نعالقنا

قط على مستوى سيدة وخاتمة .. كانت نصف أم ، ونصف صديقة ..

وشدنتي طيبتها وحناؤها ، وطول عشتها لي برباط وثيق من المودة

والإلفة .

وبددت نراعي فأحطت به عتقها ورددت على قبلتها قائلة :

— كل سنة وأنت طيبة يا حنيفة .. كان مفروعا أن تسامري
إلى أخيك عبد الدائم .. لقد عملتلك عن السر .

— يوما أو يومين أو حتى أسبوع لا يهم .. إنه لن يطير من قريتة

.. إنه مزرع في الأرض كاشجار الصفصاف ، وخلافة

زوجته قد وضعت وغابت بالسلامة .. إنها مسألة واجب يا ست

سهير ، ولن يضيره أن أتأخر عليه قليلا .

— سأعطيك هدية لابنه .. إليك أن تتسبها .

— ربنا يخليك لنا يا ست سهير .

وعانت « حنيفة » إلى المطبخ والتفتت لأمي قائلة :

— أريد شيئا أرسله للصبي المولود .

— سأعطيك صحنًا صغيرًا في سلسلة ذهبية .

وانتهينا من الإلتظار بسرعة .. فقد بدا كل منا كأن في ذهنه عددا

خسفا من المشروعات يريد تنفيذه على عجل ..

وقبل أن يغادر « أبي » البيت التفت إلى « أمي » قائلا :

— سأخذ العربة الشيفروليه وأترك لك المرسيدس مع الأسطى

على .

وأجابته « أمي » محذرة :

— لا تتأخر .. حفيظة ستأتي مع زوجها ، ولا دامي لأن تيتيم

جوعا في انتظار مجيئك قرب الغروب .

— لا تقلقي .. سأكون عندكم في الظهر .. ألا تريدون شيئا ؟

وصحت به بتحتي التلطفية وهو يفتح الباب ويهبط الدرج :

— مع السلامة .. لا تتأخر .

وبدأت « أمي » حركاتها العصبية السريعة في اتخاذ الإجراءات

اللازمة لنقل الوليمة من البيت إلى الغوطة .. وكان الأسطى « عباس »

الطباخ قد وصل ، فأمرته بأن يأخذ جميع احتياجاته ويذهب مع الأسطى

« علي » لشراء ما يلزم ثم يسبها إلى الغوطة ويعود إلينا العربة .

ولم أجد ما يدعوني للقاء في البيت فنلت لها :

— مذهبه يمهها وسائر في طريقى بسلى .

وأجابته محتجة :

— ستعطينيها .. أبقي معى حتى نذهب سويا مع خالك حنيطة .
وكان هذا سببا أدعى لإصرارى على الذهاب فقد كنت أفضل أن
أرح مع « سلى » فى القوطة على أن أبقي لتبادل التحيلات مع خالتى
ولزوجها وابنها « حسان » .

كان زوج خالتى صاحب تجارة واسعة يمتلك إحدى شركات
النسيج الكبرى ، ويعتبر من أفقر رجال الأمال فى « سورية » وأتواهم
نفوذاً .. وكان المفروض أن خالتى « حنيطة » هى المستثمر الأول له ..
فهى سيدة ذكية .. شديدة النشاط ، دائمة الحركة ، لها نشاط إيجابى
فى كل مجال تطل به .. فكذلك تكون عضواً فى جميع الجمعيات النسائية
والأدبية والخيرية .

وباختصار كانت من النوع الذى يكره أن يبقى فى الظلمة ، ولئى
تدفع برأسها بكل ما تملك من طاقة لكن تبقى على السطح ، تحت
الأضواء .. وكان لها من ملكات اللطف والذكاء والأمانة .. ما ينحها
الطاعة الدائمة ، لكن تصبح دائماً شيئاً ما .

كانت على تكيف اختيارها — أمى — سيدة البيت الطيبة التى تجد فى
بيتها أقصى مناطق نفوذها ، والتى تمارس سلطتها المطلق داخل البيت
على كل من به من مخلوقات .. من أول « أبى » حتى « حنيطة » .. بل
حتى أخوها « ميد الداييم » المزروع فى قريته والذى لا تراء إلا كل سنة
أشهر عندما يأتى لزيارة أخته « حنيطة » .

وكانت الاختان — أمى وخالتى — بفلس ملامح الوجه .. بحيث
يستطيع أى إنسان أن يحرك العلة بينهما دون أن يعرف بهما .. وإن
كانت طبقة الشحم التى كست « أمى » والذى أدركت « خالتى » يكتلها
أنها لا تتلامح مع مجالات نشاطها .. قد أبدت أمى أكبر بكثير من حقيقتها ،
وجعلت فارق العالين بين الاختين يكاد يصل إلى عشرة أعوام .

ولقد كنت أحب « أمى » أكثر من « خالتى » ما فى ذلك شك ..
ولكن لو ترك لى الخيار لآكون إحداهما .. لاخترت الخالة .

كلفت أكثر أن أسجن كأتى فى مثل هذه الدائرة الضيقة : المساء
بالبيت ، وكنت أكثر بالثقال هذا الشيء الذى يمكن أن يؤدى إلى هذه
الدائرة الضيقة المخلقة كوضع حتى لحياتى .. وأعنى بهذا الشيء ..
الزواج الذى كانت « أمى » تعتبره يفتى أملها بالنسبة إلى .. وكانت
كل أنكرتها لتعود منه لى حلقة مفرقة .

بل لقد ذهبت إلى حد وضع مشروع كابل له ، وأنا بعد فى هذه
السن المبكرة ، وحددت العريس بالذات وهو « حسان » ابن « خالتى »
.. بالاتفاق مع أمه ، بطريقة شبه جادة .

لقد فكرت كلناهما فى المسألة بطريقة منطقية سلبية ، كان أهم
أغراضها حفظ تراث العائلة المادى من الضياع لى يدى الأعراب .. بها
فى ذلك أرض أبى وأموال أبيه ، ثم الاحتفاظ بالتراث المعنوى للعائلة ،
والمجسد فى صورة نفى ولفاء ، يعتبران فى مجال الزواج لقطة من
المناعة التفرط بها .

وهكذا رسمت الاختان الخطوط العريضة لحياة الجيل التالى من
الأسرة .. وكان على بقية الأسرة أن تأخذ الأمر ككتفية مسلم بها .

وبالنسبة إلى .. لم أحاول بالطبع أن أناقش الأمر .. لانى كنت
اعتبره نوعاً من الزواج . فقد كنت أبعد مخلوقات الأرض تفكيراً فى مسألة
الزواج هذه ، سواء بحسان ، أو بغيره .. وكان جمع صور « لىلى
مراد » و « دياتا درين » و « إستر وليانز » ما زال يشغل حيزاً من تفكيرى
أكثر كثيراً مما يشغله الزواج .. وكان الإعجاب بالجنس الآخر لا يكاد
يجد مجالاً لى نفسى إلا من طريق أبى .. أو « روك هفسون » و « عماد
حيدى » وزملائهما من نجوم الشائسة البيضاء .

ومع ذلك نشأ شىء لابد أن يثقل بشخص مشاهيرى لحسان ..
لقد كانت فى مجموعها مشاهير طيبة المخلوق طيب ، ولكن لم يكن فيها قط
أى إحساس بإعجاب .

ولم أحاول مرة أن أحشره في زرة إبطي الوهيبي من مثلين ومطربين وكتاب وغيرهم من أبطال أحلام اليقظة الذين تحيطهم بهالة من التعلال لا تليث أن تخبو كلبا تطورت منابع الانتعالي في انفسنا ، فتبعت معالهم وتضيق سمات بطولاتهم الموهومة ويصيحون من ذاكرتنا في زوايا التنسين .

ولا حاولت حتى أن انتظر إليه بعين الفحص والاهتمام ، بل كنت أخذه كشيء كان مسلم به ، وكنت أجد به الكثير من سمات « أمي » ومعالها وأفلاتها .. نفس الطيبة ، ونفس التلطيع .. وحتى طبقة اللحم التي تلوه .. جعلته أقرب إلى « أمي » منه إلى « أمه » هو .

وقد يكون هذا أكثر ما أخرجني عن مجال الإعجاب به كرجل .. وما جعل حشره بين الخطوط العريضة المرسومة لمستقبلي يبدو للنفس كمزحة أقرب منه إلى أمر جاد .

ولم تكن الخليليس التي أطبقها عليه والتي أخرجته من نطاق مستقبلي تعني شيئا لدى « أمي » .. بل ربما كتبت تعني لديها عكس ما تعني لدى .

كانت « أمي » تجد فيه نوعا من الزوج الإبنية .. بكل ما فيه من طيبة ومسالمة ، ورقة وعطف ، ونجاح في دراسته الجامعية .. كما كانت « أمه » تجد في نوعا من الزوجية الإبن ، وكانت — فوق انتعاشها بسلامة مشروع الزواج من الفاعلية العقلية — تحس أنني أقرب الناس إليها في هذه الأسرة .

بقي أن أعدد وضعه هو نفسه في المشروع .

كيف كان يراه .. وما هي مشامره بالنسبة إلى .

أما عن إحساسه لي .. فلا لظنه كان يفضل كثيرا إحساسي له .. ولا أعتقد أنني كتبت أكثر في نفسه أي إحساس بالإعجاب .. إذ كنت أريد في نظره عن مجرد طفلة .

ولم يحاول بالتطبع وهو يراني ما زالت أتهك في جميع صور « ليلي مراد » و « فيينا درين » و « إستر وليايز » .. أن يدخل معي في

مناقشة من أي نوع ، ولا أن يقرأ لي تلك القصيدة التي نظمها ونشرت في مجلة الآداب والتي لم يترك أحدا إلا أراها له وقراها عليه .. حتى « حنيفة » أراها صورته المنشورة بجوار القصيدة ، ومع ذلك لم تستطع مرحته أن تحول دون أن يدفعني إلى « بمجلة الرسالة الجديدة التي نشرت قصة له قائلا :

— خدي .. اقرأني .

وأبست بالمجلة أقرأها بمسئلة :

— أقرأ ماذا ؟

— قصة « نوع النامية » .. منشورة جنباً إلى جنب مع بقال

طه حسين ، ونوغي الحكيم .

وعدت أنصف المجلة .. فوجدت تحت اسمه بسملة أسطر .. كلام ككل الكلام الذي يكتب في القصص ، فالتفت إليه ثقلة :

— أحكها لي .

— بل اقرأها .

— لا داعي لأن تتعني يا حسان .. أحكها وخلصني .

ومد يده ليتناول المجلة في يأس ثقلا :

— هاني .. هاني .. بدرى عليك .. عندما تكبرين ستستطيعين القراءة .

وقبل أن أتاوله المجلة لحمت صورة « لالتجريد برجسان » فوق نقد قليل يعرض لها في الفاعرة غفلت له راجية :

— هل أستطيع أن أخذ هذه الصورة ؟

وجذب مني المجلة في علف قائلا :

— هاني .. بلا لعب عيال .

هكذا كانت بشامره نحوي .. وهكذا كان موقعي في نفسه لا يقل

تعاة عن موقعه في نفسي .

ولم يكن يمثل هذا الشعور بمستطيع أن يذهب مشروع زواجنا الخطير .. إلا على أنه مزحة أهل ، وعبث أجهل نابا كما كتبت أنهم .

ولا جدال في أن عدم الإيجاب المتبادل قد كان أحد العناصر التي جعلت مشروع الزواج بالنسبة إلينا شيئاً لا يستحق حتى مجرد الاعتراض .

المخلوق الذي كنت أحس بأنه مرآة يمكن أن تنعكس عليها كل خبايا نفسي .. والذي كنت أخلد إليه براحة مسترخية .. هو « سلمي » زهلت في المفروسة .

كنت أتبادل معها الأفكار السفيلية التي تلطوف براسي وكنا نتبادل الفكك من الأهل والسفيرة من الآباء والأمهات .. وفي الساعات الطويلة التي كنا نطوي خلالها في حجرتي أو حجرتها .. كنا نريق الفكك بغير حساب ، فقد كان شيئاً ما .. أشبه بالفلسف والموجب .. يتصل بيننا فيولد تباراً من الفكك .. كنا نتبادل كل شيء حتى الثياب ، وكانت تنهني كما انهما .. بقدر ما نملك من فهم ، أو عدم فهم .

وكنا نعد المشروعات سوياً .. لننفذها سوياً ، وننتقل منها إلى الستام سوياً .. من لهما ومن أمي .

وفي يوم مولدي .. كانت لدينا عدة مشروعات مشتركة ، مشروعات مشتركة واكل .. وسينما .

وكان عليّ أن أنزل مبكرة مع السائق والطباخ ، لأمر عليها .. ثم ننتقل إلى السوق لننتقي مشروعاتنا ، ونذهب بعدها إلى الغوطة .

ومن أجل ذلك ، ومن أجل جميع الأسباب التي وضعتها سلفاً .. والتي لا تجعلني أهوى البقاء في البيت لتحية خالتي وزوجها .. واتخاذ وضع العروسة المثالية المقبلة لإنهما « حسان » .. من أجل هذا كله ، أرنديت ملابس في ثنية ، ووقفت بلباب أملن أمي .

— أنا نازلة .

وصلحت بي :

— قلت لك أنتظري حتى تحضر خالك .

— يا ماما أنا مستعجلة .. لابد أن أهر على سلمي ، وأنزل إلى السوق لإحضار الجونة والبلوزة .. و ..

— معنى هذا أن الأسطي عباس لن يطبخ في يومه ؟

— أبداً .. سننتهي من كل هذا في بضعة دقائق .. ثم نذهب إلى الغوطة .

— ولماذا لا نتظرين حتى ننزل كلنا معاً ؟

ولم يكن هناك بد من اتباع طريق التوصل المصعوب بالأحضار .. فاعتريت بثها وضمتها إليّ وأنا أهتف بها مستعجلة :

— أريد أن أنضع بجو الغوطة في هذا الصباح اللطيف .

ولانت الأم الطيبة وأجابني :

— اذهبي .. واياك أن تؤخرى الطباخ .. وأرسلني العرية بمجرد أن تصلني إلى الغوطة .

واندفعت إلى السلم أتواكب على درجته .. متجهة إلى بيت « سلمي » .. واخنية طروب تلطوف براسي وكلني بالفنيا الحلو تهتم بي : « كل سفة وأنت طيبة » .

مناقشة حول مائدة

وصلنا إلى الطويلة ، وعطبت أنا و « سلمى » من العربة واستقلنا « حصن » الحارس وروجته ، وأخذنا في مسامدة « الأسطى مماسي » لنقل معداته إلى داخل البيت الصغير ذي الشرفة الرخوة المظلة على رموس لشجار المشمش المكلمة بالزهر الأبيض المترامية على مدى البصر كأنها أمواج البحر يعلوها الزيد أو قم الحمل يكسوها الجليد .

وكان الوقت ما زال مبكرا ، ونسمة الصباح للزمنية أغلب من شعاع الشمس الدافئ الذي يطل من رقع السحاب بين آونة وأخرى ، وكان البيت لا يزيد عن حجرتين للزنا وهو كبير للجُلوس والطعام ينمى إلى للشرفة الكبير .

وتعللت إلى سعى أصوات بخضة المياه المجاورة للبر مدققتها للريثة والمياه تدفق من نواتها فيما يشبه الهدير . . ونلتس هنيه لا يتلوم إلى المياه المنطقه . إلى رشتها المتكشيرة ويردها الأبيض الفوار ، إلى عتوانها الثائر حتى تصبه حناها المحري العريض . فنبطلق بين فراعيه في استرخاء وصفاء .

وأبستك بدراع « سلمى » وهي تنكس على حافة الشرفة بحلقة في البساط الأبيض الرائع الموضي برهر المشمش وهنت بها :

— هيا بنا .

— إلى أين ؟

— إلى العريشة ، وإلى بيت الدجاج نضع البيض .

— ألم تحذرك أنك من جمع البيض ؟ !

— هذا يوم الجنوعات ، سأأكل كل ما أريد . . وستفكر لي لمى في نهائيه كل خطاياي .

— وأبوك ؟ !

— يفكرها دائما .

وانضمنا بهيظ درجات الدرج الحجري ، وتمتد بين صفوف الأشجار المسحة ، نتوالت بوق الجنوات ، وفوضى وسط أحواض الزرع الأخضر ، حتى وصلنا إلى العريشة .

وأبست المياه تتدلق بمنفعة في الحدير الذي اتيت عليه العريشة أسفل شجرة الجوز الفسحة العتيقة بأوراقها الحضر العراس المنكشقة ، ولم استطع مقاومة منظر المياه الجارية ، فغلقت حدائي ، وأحدث أخوص من المجري كالأطفال ، وأمنعت مسائي المللتي أسدو إلى يسوت النجاج .

كنت أخص نشاطا عجيبا وسعادة غامرة ، فليس احل من أي بعد آخره فمسه قلنا على أن يفعل ما يشاء ، وقتنا يشاء .

ونطقت أنا و « سلمى » كل ما يفكر لنا ببال أن نعلمه من عبث لصبية ، حتى استقر بنا المقام على الأرائك الممنعة تحت العريشة بعد أن أمضينا الحرايبور ورودها نكل ما تحب من أسطوانات ، واسترخينا نطق فيما بين أيدينا من كتب والنومات وبحلات ، ومقرقر السق ، ونطوح بقشره في الفجر .

ولم أكن اثنتي أرحو من حيائي أكثر من هذا . . كانت آلامي لا تتجاوز هذا المجال المبهتي المحدود ، بكل ما فيه من لعب وقراءة وموسيقى .

كنت مغلوبة ملا مشكلات ، حتى مشكلات العراصة لم أكن اعترضها مشكلات ذات بال ، فقد كانت قدرتي الدهنية أكبر دائما من أي مرحلة

دراسة انطلمها ، بالإضافة إلى أنني لم تأخذ الدراسة أبداً مأخذ الجد ، ولا كنا نخلد السقوط والتجاح ، كما هو الحال في معظم الأسر في باب الكوارث أو الأحداث السيئة .

مشكلاتي الصغيرة كانت تنحصر في مرآتي ، وما أراه فيها يوماً بعد يوم من مساوي في صورتي ، من قفن تكبر ، أو أنف يتشخم ، أو جبين يعرض ويتسع ، وأوهام كثيرة كانت لا تفارق تفهت في مرآتي لتتصغر على عيشتي ونوهشتي ما لي اتبع خلق الله ، على حين كان الجميع يؤكدون لي بأنوالمهم ونظراتهم ، ولذلتهم ، ما لي مخلوقة جميلة .

مشكلة المشكلات كانت شعري ، لورثتي إياه — سبحانه الله — أمر التكريم ، ضمن ما أورثني من مزاياه .

كانت خيوطه جمجمة ، تظهر على حقيقتها ، كلما رطب الجو ، فلا يفيد عنها شد ولا ربط ، مما جعلني أخشى مناطق الرطوبة وأرلها بيروت ، واعتبرها مناطق خطر على شعري الذي استطعت ، بما اكتسبته من حيرة في التشبيط — جاورت حيرة أمهر الحلاقين — أن احتفظ به دائماً مغروداً على أكل وجه .

لهذا اعتبرنا أنك هي مشكلاتي الحقيقية ، وإذا اعتبرنا أن معظمها أوهام في أوهام ، وأنني في جبلتي مخلوقة — بلا مرور — جميلة ، وحننا أني كما قلت ، بلا مشكلات ، ولئ كل ما أظليه كان ملك يدي ، وأن حتى للناس لم يدع للباس مغرا من أن يحسوني ، فاعتصمت من حياتي حتى مشكلات السعد والحقد والبغضاء .

وفي حلسني تلك تحت العريشة التي ظلها شجرة الجور ونحيبها بها أشجار الحوح والمشيتر ، وبخلفها فيها خرير المياه ببكة الدجاج بموسيقى الدوب الأورق بطرقمة فشر السلسل في شسلفي وشسني « سلسي » .. في حلسني هذه كنت أحس أني أسعد مخلوقة في هذه الدنيا .

وبداً صوب ميلادي يتواندون على الفوطه .

كانت الذمعة الأولى « حائلتي حبيطة » وروحها وانمها « حسل »

تصحبهم الوالدة العزيرة .. التي انطلق صوتها يناديني للاطمئنان على أمي ما رلت على قيد الحياة .. ولم يصبني بكروه .

ولم أحب عليها .. فقد كنت أكره دائماً أن تتبادل الحديث بالصباح على مسافات كبيرة ، ونهضت ذاهبة إليها .

وعاد صوتها يصيح بي في ميلادي جزع :

— سهر .. أين أنت ؟

لم يكن هناك بد من أن أصبح محببة عليها وأنا أصغر فتى في الحذاء :

— أما هنا تحت العريشة .

— الدنيا برد منك .. هل تبسسين اليلوغر ؟

ولم تكن الدنيا برداً .. ولكنها كانت دائماً تتوهم أن البرد يختص بهجومه .. وإن أهم واجباتها في الحياة .. وتبيني من هذا الهجوم .

وكانت تد وجلت إلى الباب حيث تقف العرية . وانهمتها مهدوء إلى الدنيا حر .. فقلت في شيء من الجرع :

— إياك أن تجري وتعرقي .. وتعرسي للطفة هوا .

ولم أحصا بشيء .. لسبب بسيط ، هو أنني لم أكن أبوي الجري .. فتد جريت بما عيه الكفاية .. وعرفت فعلاً .. وإذا كان هناك مجال لتعرسي للطفة هوا فلماذا أتت لأخذتها وانتهيت .

وعسيتي « حائلتي حبيطة » إلى صدرها في حرارة .. واشتبيت من صدرها عبقاً جبلاً .. كانت دائماً مغطاة وأتية .

رحبت بروحها .. أو حالي « مد الله » كما كنت أدموه .

وخسني إياه قدر ما سبح له انتناخ بطنه ، وريت ظهري في شيء من الإعجاب بزوجة ابنه .. وقال ما رها :

— كبرنا يا سهر .. وانتورنا وأطوينا .

ولم أحفل من تعليقاته .. من لوط ما تعودته .

كانت الخجل في مادي الأبر من مظاهر النمو في جسدي .. ومن

نظرات الأقران إليه نظرات ذات معنى .. وانسابك تعبر عن مدى فهمهم وتقديرهم لكل ما نفا به من تفردات .

وكانت « أمي » نفسها من أشد المعجبين بي .. إيجابيا دائما بشخصي .. وإيجابيا خاصة بإحدى مناطق نفوذها .. أو أقرب مناطق النفوذ إلى نفسها .

وكانت منطقة النفوذ الأولى بالطبع .. أبي .. ولكنه كل فيما يبدو منطقة مثقلة بمسئولية .. يابى إلا التمتع بالاستقلال الذاتي .. والتحرر من السيطرة .. مما يجعل نفوذ الأم عليه محدود المدى .

وكانت — والأمر كذلك — البديل الطبيعي لأبي .. في ممارسة سيطرة الأم واستغلال نفوذها العائلي .. وكانت بحكم اثنتي .. منطقة نفوذ دينية مهددة .. بل كانت تعتبر جزءا من نفسها .. وكانت تحل نفسها بالنسبة إلى مسئوليتها لا يمكن أن يحلها مخلوق عس آخر .

كانت مسئولة عن إطعامي .. ولمست اتحد بذلك مسئوليتها عن إعداد الطعام .. ولكن اتحد عن إطعامي كما تطعم الأوزة .. أو منحبر أبق .. عن ترغيفي .

وكانت تنوهم دائما أنني مخلوقة هاجرة .. لا قدرة لي على التكيف أو التصرف .. أو بمخنصر القول .. حيوانة صغيرة .. ولم يكن يخطر لها أي تنو وأن نوى منحبر .. إلى الحد الذي بهتل بعه أن أصبح لها مثليا وأنجب أبناء مثلي .

متديا كما تنجس على المائدة كانت تشير إلى طبق اللحم ثلاثة .

— كلى لحم .. أنت محتاجين إلى برونين .

— أكلت يا ماما .

— لم أرك ذاكين .

— والله العظيم أكلت قطعة .

— كلى قطعة أخرى .. إنك شعبة .

— حاضر .

وأنا حول قطعة اللحم نازردوها لكي أريحها .. ولكي أضيف معني البرونين إلى جسمي .. وتنتظر إلى طبق السلطة ثلاثة :

— كلى سلطة خضرة بها ليتالين سر .

— شبعنا يا ماما .

— فأت لك كلى .

ولم تكن مسئوليتها عن إطعامي تقل عن مسئوليتها عن إلباسي .. كانت لا تكاد تراني انتهيت من ليس شيئا حتى تهافت بي :

— تعالي أريني ماذا ارتديت .

ولا تكاد تثنى علي نظرة خاطفة حتى تصيح بي :

— يا هذا الذي غطت بقميصك .. اذهب .. اخضمي كل هذا والبس

القميصان الأزرق .

— يا ماما هذا يعجبني .

— قلت لك البس القميصان الأزرق .. ماذا يقول الناس عنك ؟

ولم أكن أعرف أبدا ماذا يمكن أن يقول الناس عني .. لأنني كنت دائما أؤمن لما تريدني أن ألبس من ثياب ، كما كنت دائما أؤمن لما تريدني أن أكل من طعام .

كانت تشعر أنني الجزء العائلي من حياتها .. لم أكن أبدا شيئا منفصلا عنها .. وس أجل ذلك كان يمكن مسؤولة أن تحرم نفسها — مانعها الجزء غير المهم منها — أي شيء لتبني لي إياه باعتباري الجزء المهم من نفسها .

ورغم ما في كل هذا من دلائل راحة على طرف حيا لي ، ورغم أنني كنت أشعر لها بحب مائل ، وأنني كنت لا أصور أبدا أن يمسها ضرر أو يسببها خدش أو مرض .. إلا أنني كنت أضيق بهذا الحصار الأبوي الحائق من الحب والاهتمام وكنيت أبنائي لو كانت أقل حبا وأضعف اهتماما .. وكنيت أفضل على حيا طريقة أبي المعاكلة في حبي .

ومع ذلك كان علي أن أؤمن لحصارها .. وأنطوي — مؤقفا —

بين الخطوط التي ترسمها لحياتي .. واتصرف كما يجب أن اتصرف ،
والأفضل مشروع رواجي الفطير ، بما يستحق من سحريه .. وإن
أقبل على « هسان » بالاعتناء اللائق .

وشددت على يده الممنوعة إلى ، ويتنس السهولة التي سميت
بها عطر أمه وهي تنسني إلى صغرها .. استطعت أن أتم راحة
عرقه وهو على بعد ذراعين مني - ذراعي وراحه - وإن ألح التسميرات
التي تثبت في صدغه المثلث الذي كساه الإحمرار .
وكان يحمل في يده بعض الكتب والمجلات .

وعاد يهر ذراعي في ترحيب قاتل :

— كل سنة وأنت طيبة يا سفير .. لقد تركت محاضرة بعد الظهر
من أجلك .. رغم أن الوقت أرف .. والإنجازات قد انصحت على
الأول .

واجبته بالسفيرة التي تعودت أن أهله بها :

— ابتعالت خطيرة ؟ ! !

— طبعاً .. ابتعالت لللباس .

— وبهذا مستعمل معد حصولك على اللباس الخطير ؟

واجب أبوه ونحن نصدق الدرج بتجيين إلى اليوم :

— لست أجد هناك أي خطورة في لبستك الآداب ، كنت أتنبأ أن

يدرس التجارة لعله يحمل على بعض أغبى .

ولم يطلق « هسان » على قول أبيه .. ورد على في حيلسة :

— سأذهب إلى القاهرة لأدرس للتجارة .

وهز أبوه رأسه في ياس قاتل :

— لا تأخذ .. من العث أن أجهلك نهم بأعمال الحقيقة .

وردت خلفي حفيظة :

— إن تسمع دراسته للآداب .. من أهليه بالعمل عندما يجد نفسه

مستولاً عنه .

ورد الأب :

— متى ؟ ! بعد أن لوت ؟ !

وردت أمي في طيبة :

— بعد الشر منك .

ورد « هسان » في رقة :

— البركة إليك يا بلها .

— كنت أود أن تعرف شيئاً عما نص فيه من مشكلات . لقد دخلنا في

مأساة قاتلة مع شركة الشرق .

وبعد أن أهدا بنا لم يكن على استعداد للإنصات إلى مشكلات
الحال « عبد الله » وبناسته مع شركة الشرق .. وكنا نعرف جميعاً
أنه كليل بكل مشكلاته بطريقة أو بأخرى ، وأنه لا يستمعني عليه أي
شيء ، وسوء في الحكومة لا ينكره أحد .. لا سيما وأن نصف الوزراء
اترباه أو أصدقاءه ، وعلى رأسهم ابن عمه وزير المالية الذي ذهب
أبى لثقلته .

واستطاعت « خلفي حفيظة » أن تثير دمة الحديث مبهارة قبل
أن يسترسل الحال في سرد مشكلاته مع شركة الشرق .

وبدا « حسن » يهرج من بين الكتب التي معه مجلة لم أشك من
علامات السمادة في وجهه أن بها شيئاً له .. قصة أو قصيدة .

ولم يكن أباه يقطع غير « سلمى » يمكن أن يمارس فيها حيلة
استعراض ما نشر له .. لا سيما وأن أمي قد تولت عنا إلى المطبخ .

وبدا « هسان » يده بالصفحة إلينا قاتل دون أن يهني غرخته :

— قصيدة نشرت في مجلة الرسالة وفي مقدمتها تعليق من رئيس
التحرير .. سأقرأه لك .

وجذبت المجلة من يده ثقلة :

— هات سأقرأه أنا .

وبدلت أقرأ بصوت يرتفع ، وهو يصلح لي قرائتي بين آوته وأخرى

.. وفعل ان انتهى سمعت صوت عربة ابي نطق بالباب ، فتلفت بالجلدة من يدي واتجهت إلى الدرج .

كل مجيء ابي يحمي دائما شيئا طيبا لي .. فلا اظنه دخل على " ويدة مرمرة ايدا " حتى اني لاذكر انه قد تجمعت عندي من الدس واللمس في طبولتي ما كان يمكن لي ان اخيم به بحلا لبيع الحرائس ولعب الاطفال .. وكثت ابي دائما تنهيه بالجنون .

وهبطت إلى الباب ، ولم اجد ابي وحيدا .. بل كان معه " عبد الصيد حاتي " وزير المالية وزوجته وابنته " عائدة " .

واصبحت بشي من الضجل ، ولكن سرعان ما نظيت عليه وحدثت بدي مريحة احيى الصيوف .

وقال ابي مفسرا بحيلهم :

— مفاجأة يا سهر ؟

واجبته على الفور :

— مفاجأة سعيدة .

— لقد طل اجتماعي سعيد الحبيب بك .. واراد ان يدعومي للخفاء .. ولكني اعتذرت له بارتباطي ملك . فتكرم وقبل دعوتي .

وانتم " عبد الحبيب بك " قول ابي :

— واستطعنا بما ان نفع كوار ومائدة بالحضور .

واتجهنا إلى اعلى بعد ان تسلمت من " عائدة " ثلاثة الهدية التي احضروها إلى مصحوبة باعتذار الام التقليدي .

.. ليست على قدر المقام يا سهر .. ولكن الدس ذئب .. عند كل عليك ان تنفريها بيوم مولدك .. بدل ان يهاجمنا به ابوك .. فلا نعرفه إلا بطريق الصدفة .

ونبتت بنفح كلمات غير مفهومة .. لم يصبها احد بالطبع لاني انا نفسي لم اصبها .

ودون ان يحس احد بذات انحناس اللعابة لاعرف نوع الهدية ، ثم عمر ذهبي نجاة إلى وقع هذه الدعوة المفاجئة على ابي .. فقد كانت

تخطر ابي دائما من دعوة صيوف بلا انذار ، إذ كانت تخجل ان تلغاهم بتير الاستعداد اللائق ، وكان ابي ينسى تطهيرها كل مرة ، ويدعو اصقاده للطعام بحسن نية ، يعتقد ان صديقه يمكن ان يشاركنا طعامنا بلا سابق اعداد .. ولكن ابي كانت تعتبر المسألة لخطر مما يأخذها ابي .. وانه لابد من الاستعداد للدعوة ما يليق بالضيف .

ولم اصب نفسي كثيرا من التفكير من مشكلة ابي .. لا سيما وانا اعرف انه لابد ان يكون لديها من الطعام ما يكفي لصف الحد المنتظر .. ومع ذلك لم تكن ابي تلج الصيوف حتى اصبحت بها بخامرها من حزع .. واستطعت ان اكتشف من نظرات اللوم التي توجهها إلى ابي بخدار ما ارتكب من فنب بهذه الدعوة المذللة .

ولم تطل نظرات ابي اللائمة لاسي ، فقد شاعت بين التحفكات المصائلة واصوات الترحيب والفكاهة والمرح .

وحافت ابي بسرعة إلى المطبخ لتواجه المشكلة الصعيرة التي وصعها فيها ابي .

انقسم الصيوف جماعتين .. جماعة ضمت ابي .. والخل " عبد الله " وابي عمه الوزير .. وجماعة صبتى وسلمى ونافية وحسل .. ولحقت حاتلي " حبيطة " بابي في المطبخ تصيها على امرها .

وبدا " حسل " من جديد يواصل قرائته لتصيفته الجديدة وتعلق رئيس التحرير عليها .. واستطاع ان يجد من " عائدة " ومن " سلمى " نوع من الاتصاكت .. ولكني لم استطيع ان اسع اكثر من بيتين .. ووجدت سلمى يقفز مبتللا بين احاديث ابي واصدقته .. وصحبت ابي الصادرة من المطبخ وصراخ " حسين " الحائرس أسفل الدار .

واستطعت ان التطف من احاديث ابي لانه يريد قرضا لشراء عدد من اتركورات ، وسبعت شي من صفحة تبيع ، وهي ايجار الارض . ومن اسياء ما كل ابي دائم التحدث عنها .. ثم بدأت دفعة الحديث تنجه إلى مشكلة الخال عند الله ، وعدت اتصت من فنبذ إلى " حسل " وابي

مشروعه للذهاب إلى القاهرة للإعداد للذكوراء ، ورسائله عن تاريخ
القصة ، وقال إنه سيلتقى بطه حسين والمتكاد وتوقيع الحكيم وتطلع
حديثه صباح أس محفنة .. ثم مجيء خالتي « حفيظة » وقد اضططعت
رائحة المطر فيها برائحة المطبخ .

وأعبرا انتهى الإعداد من الطعام ، وعشنا يلتهموس إلى المائدة ،
ولحت من وجه « سلس » شيئا من الحرج والفجل وهي نجد نفسها
وسط كل هذا الجمع ، وفكرت أن نعد مائدة مع « حادثة » على حده ..
ولكن « حاتني حفيظة » لم تترك لنا فرصة التفكير .. فقد أثبتت علينا
تشدنا إلى المائدة كأنها صاحبة البيت فائقة :

— هيا بنا .. الأكل جاهز .

واستقر بنا المقام حول المائدة . وبدأ الحديث من حياطة الرجال ..
يسيطر على المائدة ، واشتركت فيه خالتي حفيظة .
وعانت مشكلة الحال « عبد الله » مع شركة للشرق نطل برأسها
على مائدة الطعام .

وقالت خالتي « حفيظة » موجبة الدور إلى الورير :

— هذا غير محقول .. إتهم بريدون أن يخرؤا بيوتنا .
وأصاب روجها قتلًا :

— الأسمار التي يعرضون بها .. قطعنا تؤدي إلى الحسارة .
وأجاب الورير في شيء من التسليم العجز :

— المنانسة حرة يا عبد الله .

— طبعًا حرة في أن تخرب بيتنا .. إتهم يغشون والحكومة عاجزة
من ضبطهم .

وهو الوزير رأسه وتساؤل ضاحكا :

— لماذا لا تفش أنت ؟ !

ومسك أبي وثال مثرها :

— من أدراك أنه لا يفعل ؟ !

وتساقلت خالتي « حفيظة » بنفس السخرية :

— ولكتمهم فيما يبدو يغشون أكثر .

وصمت الوزير برهة وبدأ يمسها في تقطيع قطعة من اللحم لم يك
يلتهمها حتى ربح رأسه قتلًا في لهجة جادة :

— اسبع يا عبد الله .. الحكومة لا تستطيع أن تفعل لك شيئا ..
وتبادل التهم أيضا لا فائدة منه سوى خسارتكنا معا .

وتساقلت خالتي حفيظة :

— والهل ؟ !

— أن تقصا .

وبدا الرضا على ملايح خالتي وتهتد ثقلة :

— ثلث له هذا مائة مرة .

وعاد « عبد العبيد بك » يقول :

— لماذا لا تتكفل وتبيعان الشركتين ، وتسيطر على السوق
كله ، وتهبيل هذه المنانسة الضعفاء ؟ !

— على أي أساس يكون الاتفاق ؟

— أي أساس .. خير من هذه الحرب الضخواء ببيكنا التي
لا يبعد عنها سوى المستهلك .

— ولكتمهم قد يفرضون شروطا ؟ !

— نساها يا عبد الله .. كل شيء يمكن التناهم عليه .. ولكني
أؤكد لك أنكنا إذا اتفقنا ليكننا السيطرة على السوق كله .

وانثلت « حفيظة » نحيل يوما من الحلوى .. انطس الانهياك ييه
القدرة على متبعة المناقشة .. وكان كل ما رسب في ذهنه من
مشكلة الحال « عبد الله » أنه إذا استطاع الاتفاق مع شركة الشرق
سيطرأ على السوق كله .

ولم أعرف بقلبي أية سوق ولا أية سيطرة .

كان طعم الحلوى أغلبه في نسي .. من طعم الحديث .

وتركتنا المادة .. الكبر لتناول القهوة . وبواصلة الحديث في مشكلة الخال .

والصغار للعرشة لسباع الموسيقى ، والإحصات برعنا إلى قصيدة « حسن » والمقدمة التي كتبها رئيس التحرير .. ومشروع الدكتوراه في مصر ، ولقائه بالكتاب الكبار .. وأنه يسمح واحدا منهم في يوم من الأيام .

ولم يحاول لحظة أن يشرح في مناقشات أبيه ، ولا اهتم قيد أنملة بانتقائه مع شركة الشرق ، وسيطرته على السوق .

وانتهى الرجال من احتساء القهوة وبدأ الفوج الأول من الضيوف في الانصراف .

وكان علما أن نعود إلى البيت لاحتساء الشاي الذي اهد لزميلاتي في الدراسة .. ثم للذهاب إلى السينما لتتسم اليوم بالمشاء في نادي للشرق .

كان يوم ميلادي .. يوما حافلا .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أول دمة

.. انتهى يوم الحائل وعدت أجيرا إلى البيت .. ومع الذكريات التي تنكأكت في رأسي بتدعة تمرس لي كل ما فعلت في يوم الطويل .. منذ صباح العوطة حتى سهرة النادي ...

مع تلك الذكريات المتراخية أحسست بشيء يثقل رأسي ويخور به مستقرا في حائبي من جواسه طارقا جبين من الداخل بما يشبه دقات بطرقة رئيسية ملحة متواصلة .

وتلك لنفسي : « تعب اليوم هل لي في آخره » .. وبدأت انفض عني ملابس ، لأرتدى قميص النوم وأستقر في الفراش لأرض جسدي ولأوقف فقاك المطرقة في رأسي .

ولكني أحسست ببوكة التعب لتدافع وتكاد تعجزني حتى من إرداء القميص .. ووجعت أنفاسي لتتلاحق سائخة كلتي محبوبة .. ولم يصعب عليّ أن أدرك من صوت أنفاسي وطعم نسي وانحلال أوصالي أني مقلبة على مرض .

وكرهت أن أسنمعي بأني فردا لما يمكن أن يصيبها من جرع لا تستحقه حقيقة حالتي ، وحشية بما يمكن أن يصيبني من لوم وتقريع واستمادة لكل ما يصحطني به خلال اليوم من نصائح بأن أهدأ وأخشع وأهد ولا أحلف ملاسي ، ولا أعرق ولا أتعرض للهواء .. إلى آخر هذه الفتحة من النصائح التي كان إهمالي إياها - في اعتقادها - سببا أكيدا لكل ما حل بي .

ونسللت إلى حجرة المكتب أبحت من رجلاحة « الأسيرين » التي
 كنت أظن أني من حاجة إليه كملاخ يبدئي لي .
 ولم أجد الرجلاحة ؛ ودعيت إلى « حبيبة » أمسالها في حشرت
 حطمي ؛
 — ألم ترى رجلاحة الأسيرين ؟
 وتبل أن تجيب : « حنيلة » سمعت صوت أبي يدعو مستظلا من
 انزعاجها اللطيفي ؛
 — لماذا تريدونها ؟
 أجبت من شيق وأنا أجدها نوثك أن تكشفه لمرى ؛
 — أفسر بشيء من الصداق .
 وشل لي يسلني ردها .. رأيتها تنك بجاني وتدعدها لتتحمس
 حيني وتتهف في جزع .
 — أنت مسخرة !
 ثم بدت تسليتها لتتحمس شلتي كبجس فرمونري ادق من كتها
 على جيبسي ومفدت تهلف من جزع شجيد ؛
 — ببلاا تحسين ؟
 وسجبت نفسي من بين يديها مسخرة بكل هذا الجسم والتحمس
 والجزع ، وثقت لها ؛
 — قلت لك شيء من الصداق .
 — فقط ؟
 — وبعض اليهود .
 — أين ؟
 — في رجلي .
 — فقط ؟
 — وفي كل جسدي .
 ولم تلبث بعد هذا الاستجواب السريع أن أصدرت حكما ثالثة
 من صبق ؛

— برفت .
 وجرتني من يدي إلى هجرتي ثقلة ؛
 — ستأخ بك .
 ولم أكن أحس من قرارة نفسي أن ما من يستحق أن تملأ أبي حالة
 الطوارئ التي بدانتها بإعلان ثوبها مني .. وسعت بها محتجة
 على إعلان الطوارئ .
 — المسألة لا تستحق .
 وعادت تحديني إليها وهي تباشر عملية الجسم من حديد ؛
 — جيبك ككالفن .. حرارتك لا تقل من ٣٩
 ثم بدت تستعرض سلسلة التمهيرات التي سافقتها إلى خلال
 اليوم مبتدئة بجمليتها التطبيقية ؛
 — لك تسمى ككالي .. ولا تركبي رأسك بعد هذا ، هذه هي
 النتيجة .. طول النهار .. أقول لك أهدى .. أحشمي .. ألم
 أحرك من المباح وأنت مستلقية تحت العريشة بظك البلوزة الخفيفة
 .. ألم ..
 وثقت لقاطعها وأنا أحد الصداق تردداد طرفقة ؛
 — بلأ .. لا نقدة من كل هذا الآن .. أريد أن استريح .
 وبدت إلى يدها بقرص الأسيرين ثقلة ؛
 — أبطلني هذا .. وسأضع كمادات بلردة على جيبك .
 وكان أبي قد أقبل بعد أن وضع العربة في الجراج ؛ ووجد أبي
 جالسة بجواري على طرف الفراش غسائل في دهشة ؛
 — لماذا بك ؟
 — وأجبتة وأنا أرمس ابشابة على شلتي ؛
 — شيء من الصداق .. أصابني من من غرط ما استبتمت بيوم
 مولدي .
 — سلاطك من العين .. ومن كل سوء .

ومد يده يتحسس جبيني في رقبتي ، ولم يستطع أن يحسني من عنييه
علامات الضيق والقلق .. وريت خدي قتلا :

— الأسجريس سيهديء حرارتك .. استريحى .. وغدا تصبحين
أفضل .

وأنتجه أبى إلى حجرته .. ونحدثت أبى على الفراش بجوارى وكلها
يتحسس جبيني بين آونة وأخرى .

وأغمضت عيني .. وسلك السكون البيت .. ولم أجد اسمع
سوى حفيف الشجرة الكبيرة القالبه على باب البيت . نحرها عنك
التسليم ، وأصوات عربات شرق من أمام البيت بين آونة وأخرى حاملة
المحدر المؤدى إلى الميدان أو مساعدة إلى المساحة المشترية من غرق
الجيل على المدينة .

ولم أعرف متى عوفت .. كنت أغمض عيني وانتظب متى ملل . وأنا
أحس بأنفسى كأنها السنفة الذهب المتلاحقة ، وأطرائى نزداد تثاقلا ..
وطعم المرض يرداد في نسي ، وبين آونة وأخرى تسلكنى أبى وهو
تحس تمليلى :

— ماذا بك يا حبيبتي ؟

ويتدر ما أملك من قدرة على الرد اجبتها ، بمحاولة أن أطمئنها :

— أبدا .. ليس بى شيء .

— والصداع ؟ !

وأحت كاذبة وأنا أحس طرقات الصداع تدق رأسى كطرقة حداد
عصبى عجول :

— أحمس .

وماد الصمت يطبق .. وحفيف الأصنان يصل إلى من وراء النافذة
كأنه الوشوشة .

وأعتقد أبى سم .. لست أدرى متى .. ولا إلى متى ، ولا أكاد
أعرف حتى كيف استيقظت .. كل ما أكره هو كل أبى فوق جبيني ووجهها
يلانس وجهى وهو تتسائل فى شيء من أكرج :

— ماذا بك يا حبيبتي ؟ ! ماذا يخلبك ؟ !

وأحبب فى شيء من الإيحاء وأنا أضع يدها من جبيني :

— ليس بى شيء يا مليا .. كلنى حسا لى .

وحاولت أن انتظب لأنعما طهرى حتى أنأى يوجهى عنها واتفلس
من كل هذا الجسم المطلق والطلق المرمج .

وأحسست بشيء من الدهشة وأنا أجد التقلب مغمترا كل شئنا
يشبى إلى الفراش .. ليتل جسدى ويعيد حركتى .

وعدت أحاول التقلب مائلة كل ما أملك من جهد .. ولكنى أحمسست
سحر نام من لك تصفى السطى ، وبحدث بدى فى شيء من الدخول ..
أحاول أن أستعين بها على التقلب .. فإذا أبى اكتشف أن سائى الينى ..
لم تعد لى .

لقد تحسستها .. كما أتحسس شيئا غريبا عنى .

وأحسست بخوف شديد من سائى .. كأن أحدا قد دس مساقا
عريية فى غراشى .

وخفت أن أمد يدي لجسها .

وأزدرت ريقى فى خوف .. وأحسست كأن شففى قد جفعا .

بضت برهة .. وأنا مأخوذة . عاجزة عن التفكير .. عاجزة عن
التصرف .. عاجزة من الصياح .

كنت أشعر كأن أحدا أخذ سائى ، ووضع مكاتها مساق إنسان
آخر .

وكشفت أبى ما زالت يتحسس جبيني وتضع خدها على خدى ..
ومادت تسائى فى قلبي :

— ماذا بك يا سيهر ؟

وأزدرت ريقى برهة أخرى .. وفلت لها هليسة :

— سائى .

— ماذا بها ؟

ولم أعرف ماذا أقول .. إن سائى ليس بها شيء .. إنها غير

موجودة أصلا .. وهذا الشيء الموجود الذي يشبه السابق .. لا يثبت
إلى بصله .

وتهمت أمي وبحث يدها إلى الأناجورة فأصابتها .. وعادت تسأل
في قلق ، وهي تكلمني عن القطاء في شيء من الحذر :

— ماذا يمسكك ؟

— لا أعرف .

— كيف لا تعرفين .. مجزومة ؟

— لا .

— مبنلة ؟

— لا .

— ماذا بها إذن ؟

وأصبتها في صوت بجوح ، لا لكاد أسمعها :

— لا أعرف يليلها .

وبدت نبرات الصيق في صوتها وهي تسأل ملحة :

— كيف لا تعرفين ! ! من يعرف إذن ؟

وبدت يدها تتحسس ذلك الشيء الملتصق بحسدى التشبيه بالمساق ،
وثالث وهي تحرك يدها منتقلة من مكال لأخر :

— هنا .. أم هنا ؟

ولم أجب بالطبع .

وعادت تسأل في عصبية :

— أعطني يا سبير يا حبيبتي .. لا تتعبيني .. قولني أين الوجود ؟

وهزرت رأسي في يأس وأجبتها :

— ليس هناك وجع .

— بم تتسحرين إذن ؟

— بلا شيء .

— إذن ماذا بك ؟ .. ما دمت لا تحسني فيها بأى وجع ؟ !

— إني لا أحس بها كلها .. لا أستطيع تحريكها .

ووجدت أمي تنقب من الفراش وشدة هزة وطء يليلها . وبدت عيناها
مشرحة مكتومة كعينا حيوان خربح ، وبعبين حاضيتين ، أمسكت بساقي ،
وهنت في صوت متحرج .

— حركي ساقيك .

— لا أستطيع .

— جربي .

ولم تتحرك نفسها وشهقت بالبكاء . وهي تهتف في أمي وتعدو
تجاه حجره أبي :

— يا حبيبتي يا سبير .. يا حبيبتي يا بنتي .

وأصرت أمي يدفعني إلى من حجرته اندفاع القلبية .. وهو في
نصف وعيه ويهتف مختلا

— ما لها سبير ! ! يليلها ! !

ومى ثوان كل ينحني على ويصمى إليه في لهفة صالحة :

— مالك يا سبير ! !

وأحسست ملجزع على أمي أكثر بما أحسست بالجزع على نفسي ،
وعصيته إلى بشدة وأنا أحس بدموعي تتدفق إلى مقلتي :

— لا شيء يا بابا .. ليس بي شيء .

وانتهلت أمي تهتف كالريشة والكلمات تخرج من فمها مرتجفة قلقة :

— سأتها .. لا تستطيع تحريكها .

وبدا أمي يمشك .. ومد يده فأمسك بساقي . وسألني في لهفة .

— أليها ؟

وانثرت بأصبعي إلى المساق الهنيء .

وجري بأصابعه فوق القدم والمساق حتى الركبة . وأنا أهز رأسي
في يأس . ثم مد يده حتى أعلى الفخذ دون أن أحس شيئا .

وبدا على وجهه خلط من الخوف والإعياء والجزع .. وبضت برهه
وهو ماعر ماء ، وأطلق زمرتين مفلحنتين .. ثم ما لبث أن استمدت قدرته
على مواجعة الأزمت .. وبدا بكسو وجهه قناعا زائفا من العلبانية

والاستحمام .. وحاول ان ينقل إلينا مشاعر الطمأنينة التي كانت أبعد
أ تكون منه قليلا :

— تخذيل مؤنث .. لا يلبث أن يزول .. أغلب الظن أنها ثابت
عليها .

ونظر إلى أمي ودموعها تنهمر كيهاء صنوبر تالفة :

— كئي بكاء .. ليس هناك ما يستحق كل هذا .. عندما يصبح
النهار .. تكون واقعة كالحصان .

ورغم ما تبينه من عزم في تيرائه ، أحسست بإلغلق يكاد يصرح
من مينيه المتأرجحتين بين معنى وساقى .

والزدرت أمي ريقها المحتلط بالدموع ، ونظرت إليه نظرة شك
كسيرة مهزونة ولم تنطق بكلمة .

واتحه أبى إلى آلة الهاتف ورفع بصره وقال وهو يهر راسه في
حيرة :

— الساعة ما زالت الرابعة .. من الذي يجسر على إيلغلق طبيب في
مثل هذه الساعة ؟

وهتفت به أمي في توسل :

— اطلب ليلز ابن منك .

ومد أبى يده إلى الكرسي يجدر الأرقام ، وهو يقول في لهجة
استغناء بمتعة :

— سأطلبه حتى يطمئنك .

وكانت أعرف أنه لنجد منها حاجة إلى الطمأنينة .

وسخت برهة وهو يضع الساعة على أدته ينتظر ردا .. وأخيرا
سمعته يهتف :

— آلو .. عذرة .. أنا عبد الهادي .. آسف أن ألقاكم في هذه
الساعة .

وصبت برهة وعاد يقول :

— خير .. ليس هناك ما يزعج .. كنت أريد أن يرى سيهر ..
سأفها تجدو كأنها ...

ولم يعرف ماذا يقول ..

كيف يترجم كلمة « الشلل » الإلينة إلى لفظ اقل إزعاجا وأكثر
رحمة بالأسعاج .

وعاد يلوك الالفاظ في فمه ياتحا من اللفظ المبسط :

— أعني أن ساقها .. لا تستطيع حراكا .. لا .. لا .. ليس
كسرا .. وإنما هو نوع من التخفيل ، أو التضييل .. وكانت أود أن

يفحصها لطبائنا .. أنا أعرف أن الوقت غير ملائم .. ولكن .. أجل
.. أجل .. أظن من الخير أن يراها فوراً .

ويبدو أن السيدة ذهبت لتعوط زوجها .. فقد وجدت أمي بمسك
الساعة وينظر إلى أمي التي وقفت ترتبه ماعرة الفم .. بمصورة
الافتقار .

وكانت أرتقب كل ما يحدث من غرائبي .. وأنا شاردة الذهني ..
كأن الأمر لا يعني ..

وبين آو به وأخرى أنسل لمصاعى لأمر ذلك الشيء المتصق
في . لعلى أكتشف أنه تحول ليكون ساقا مرة أخرى ، فألمس أمي وأبى .

وأريتهما من مناد العذاب الآليم الذي ينتقل كل منهما على جبهه نظريته
الخاصة .

ولكني منأ حاولت أن أعيد إليه الأحاسيس . كنت أدفع في لحيه —
أو لحي سابقا — بطرف سبيلتي وكئي لحيه في الوسادة .

ولم يكن هناك ما يؤلمني .. إلا انعكاس المسألة كلها على أمي وأبى .
فنص أكثر إحساسا صماتنا من خلال أفعال الآخرين بها .. سواء

كأن أفعالهم ، أو رثاء ، أو شفقة .

ولم أحاول ساعد ذلك أن أناقش نفسي في آثار ما أصبت به ..
ولا حاولت أن أتصوره بمعاد الآليم كشكل يمكن أن يقدمني . بل كنت

أنظر إليه على أنه عارض رائل . تماما كما يقول أبى . شبل أو تخذيل ..

وكان أكثر ما يدل على من الآخر ؛ إحساس بل حراً متى لم يعد حساً
من ، أو موجه آخر ، إحساس بل حراً لا يمتلك التصرف فيه قد
النقص في .

إحساسي الذاتي بالمسألة .

في غريب حقاً .. أن تحك جلدك فلا تشعر .. هذا هو مدى
أما من إحساس من طريق أبي ولبي .. فقد كانت نظراتها تمت
الاتجاه في تنسي .

ولبي مسح كلمات مقتبسة أسر أبي إلى تربيته الطبيب بالمسألة .

وترك أبي الساعة وعاد إلى يكتو وجهه الإنسانية الدائمة ،
ومضى إليه تلالاً :

— سيأتي الدكتور غابر حالا .. إنها مسألة بسيطة لن نحتاج إلى
أكثر من بضعة ثريمت وتعليكات ، ويعود كل شيء إلى حاله .

وبعد فترة قصيرة سمعت صوت عربة تقف بالمدب ثم اتل عليها
الطبيب والجرار اليوم ما زال في عينيته وهو يقول ملتقطاً تناسه
— جيلاً إن شاء الله .. كيف حال عروسنا الحرة .

واقبل على .. يجري لفحصه الطبي .. بترومتر من غنى ..
وساعة على صدري ، وأصابع تجس نبض يدي .

ثم بدأ يفحص ساقى .. يذبوس بين أصابعه .

ولم يطل به الفحص ، فقد كانت المشكلة بالنسبة له واضحة ، لم
يصعب عليه أن يدرك ببساطة أن ما في « شلل الحبال » وأن الحرارة
والصداع الذي ظنناه أعراضاً « أنفلونزا » لم يكن سوى مقدمة للشلل
الذكور .

ولم يطل بالطبيب أنه شلل أطفال .

لقد ريت على دراعي بلطف ، ورسم على شفطي ابتسامة رفيعة
مشجعة وقال لي هدوء :

— المسألة بسيطة .. ستحتاج إلى بعض العسر .. والتدليك

الكهربائي ، والثيرمات الرياضية ، وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه
بإذن الله .

ولم يمت قوله شيئاً لي نفوساً أكثر مما كان بها .

بهاء الصنوبر الثلج المركب في عيني أبي .. استمرت تظهر ؛
وابتسامة أبي الدائمة ، استمرت تغلو شفطي .. وإحساس اللابلاية
شخصي ، والوجهة لأبي ولبي استمر يلا نفسي .

وتبع أبي الطبيب إلى الخارج ليسمع منه الأسرار الآلية التي
لا يسرها الأطباء عادة إلا للرجال .

وانصرف الطبيب وعاد أبي بنفس ابتسامته الدائمة .. زاد عليها
شيئاً من الشرود .. اعتقد أنه كان يدرسه مشروعاته القانية بالنسبة
لي .

وبعد أن تهلمت مع أبي في البهو ، أقبل على .. وقد بلا نفسه
شحنة جديدة من الطمأنينة والرح ، لكي يدفع بها إلى .

واستمر بجواري وضعتي إليه .

وأخسست في غيبته شيئاً جديداً .

أخسست أنه يلصقني به ، وكأنه يخشى أن يفتلني منه أحد ،
ويلتفتي غيبته إحساساً بالخوف .. من أن انتزع منه معلاً . مصيبيه
أكثر .

ولم أشعر إلا وضوعي تتقلب من عيني ، وأحس بها تسيل على
هذه .

موجعته يرتجف .

أخسست بحسده الغوي الكبير وكأنه بهتر كالريشة بين دراعي
ويبتلع انتفاضة العصور على صدري .

ولمست براسه أرفع وجهه إلى ، فوجدت أحمراراً في عينيته ،
وضموا تسيل على خديه .

وأخسست بيد أنيية قاسية تمصرني .

كانت أول ضمة أراها تشك من عيني أبي .

لم أعرف كيف أوقفها ، وهي تزدق شيئا في باطنى .
ومررت لأول مرة .. فإذا يضع الناس استسلاهم الزائفة على
شفاهم ، وس بين الدموع المتسابة على خدى رست أولى استسلاهم
الزائفة وفلت له :

— بابا .. أنا بحير ؟ !

— أجل يا حبيبى بخير .. دائما بخير .

ولحد زغيرا طويلا ، يطلع به ما تبقى من دمه .. وغسلى إليه
ثانية وهو يقول في ثقة وإيمان :

— لن يصيبك سوء ، وأنا معك .

واينتم استسابة صالحة ، وهو يقفلى تاللا في لهجته المدللة .

— أنت روح بين ؟

ولجنته إجابتى التقليدية التى تعلبت بها النطق منذ سنوات طويلة :

— روح ملأ .

وعاد يسأل :

— وحبية بين ؟

— حبية ملأ .

ما أمتح التذليل ممن يهبوننا .

لقد استطاعت الضمة الحانية والكليفة العذبة أن تفعل بنا فعل
السحر .. بلأنا ثقة وأبلا ، وفندرة على أن تحوش المعركة ، مع
الداء الثقيل .

ساق في قفص

بدأت معركة المرض في هياتى .

ولم أكن أحس في الفترة الأولى من مرضى أتى طرفى في معركة .
كانت المعركة الحقيقية تدور بين أبى وأبى في طرف ، والداء
التقليل في طرف آخر .. أما أنا فلم أكن أكثر من ميدان للمعركة ، بكل ما بين
من رخسوخ ولاجمالة واستسلام لأثر المعركة .

ولم أشعر خط .. وأنا في بداية إصابتى .. أن الإصابة يمكن
أن تطول بطريقة تبعث على اليأس من الشفاء .. ولا طاف بذهنى ذلك
الظالم السفيس الذى يجعلنى أتصور تقسى مشلولة مقعدة ، أو عرجاء
تحر سلتها جرا .

كنت أشعر أن رقدتى مؤقتة .. ولم يكن بإسفلتى ما يسبب لى أى نوع
من الآلام الجسدية التى كانت أكثر ما تفزعنى في ذلك الحين .

لم يكن مرضى أكثر من مجرد استسقاء في الفراش .. وقابله من المراهبا
ما كنت أشعر أنه غاف كثيرا ما تستحته رقدتى .. فقد أمهلت على
مظاهر العطف من كل صوب بكل ما تحمله من حدايا وتذليل وتسلية ..
وأقبل على الأهل والأقارب والأصدقاء يملئون رحاب الدار ، فلم تحمل
هجرنى من الزوار لحظة حتى كنت أهن في رقدتى إلى بعض الراحة
والوحدة .

وبدأت أمارس العلاج الطبيعى الذى أجمع عليه الأطباء من تزيينات
وتدليك بالكثير من .

ولقد أوحشت خبئة في بادئ الأمر من أوداع الملاح - ولكتي لم أنت حتى تموتته .. ولم يعد الأمر بالنسبة لي أكثر من عملية رتيبة مادية ككل ما يدرسه من مواد خلال خلال أيام المعالجة .

وأحسست بفطر حب الناس لي ، وأهملهم بي .

ليس فقط أبي وأمي .. بل كل من حولي .

النت « حنية » رحلتها إلى بلدة أخوها ، واستقرت قاعة بجواري كائنا ظلي المتحرك .. لا أكاد أشير بأصبعي حتى تغمر بلية ظلي .. ولم تستطع دائما أن تكبح صراخ دمعا الذي ينز بين آونة وأخرى ليرك أكله الصراخ في جنبها ويسبب لها نهر أبي ولوم أمي .

واقبل على رفائق المدرسة ومخرباتها وباطرتها المعور التي كنت لتغلبها وهي تنقع في حجرها المخلعة أو تقبل علينا بشعرها الأشيب حية أو غريبة مبادي أحدها وهي تجلس بحوار فرائي رفته طسة .

ولم تكن « سلمى » تتركني إلا للتوهم والذهاب إلى المدرسة حتى طعابها كانت تتناولها معي .. وكانت تنقل إلى صورة كائلة لما يحدث في المدرسة بطريقها المرح التي كانت تولد تيار الضحك في نفسي .

وبدأت « حناني حبيطة » تمارس معي كل أنواع الرعبية ليس فقط كابتة لخت بل كزوجة ابن تقرر مصيرها كشركة لحياة ابنها وأم لأحدها .

واقبل على « حسن » يبتحن مزيدا من الاهتمام والمطعم البايح في طيبة قلبه .. ويعلم الله إن كان عامل الشفقة بي قد بدأ ينزلني من نفسه برتبة جديدة ، أو كانت أوهم الشاعر قد أفلت تنسج من هبتي قصة يحتل أن أكون وإياه فيها بدوري المظولة .. الله وحده يعلم طريقته فكثيره ، وحقيقة مشاهره .. أما الذي أعلمه أنا فهو اهتمامه بي وعطفه على بطرئة جملتي أدم فيها بيني وبين نفسي على ما كنت أقدمه له دائما بن سفرية واستغلاف .

وأجنت الأيام تتساق واقبل الصيف وأنا رافدة في فرائي أرتب

من مائتي القليل والمائتين المنتشرة تحت سطح الحبل متحطها أشجار الحور الباسقة ، حتى يلفها الليل فلا يبقى منها غير أضواء اللائعات الملوحة وأنوار النواهد ومصبيح الطرقات تحتل في الظلمة لترسم معالم ليل دمشق العزيرة .

وبدأت أصيب بقرنبي رغم كل وسائل التسلية ومظاهر العطف الذي أحطت به .. ورغم كل ما يذل من أبوي لكي أعوض عن عجزى ولكن لا انتقد ساقى المشلول أو أفكر أنني مفعلة .

رغم كل ما يمنحني من عون الآخرين أحسست أنني بدأت أنتقد عور نفسي .

بدأت أنتقد ساقى التي يمكن أن تدعني بعيدا من الفرائي .. بعيدا عن الحجرة .. بعيدا من البيت .. لكي أتطلق .. وأطلق .. وأضل أخرى فلا توقف .. حتى أبلغ المعوطة .. وأتسلق شجرة الجور ولتفر من عرق المربشة .. وأعمل كل هذه الأشياء التي لا يمكن أن يعينني عنها كل ما يفعلون من أجلتي .. والتي يمكن أن أعملها دون هذه الساق العبيدة التي تنس أن تحس وتصر على أن تصيح شيئا آخر لا علاقه له بي .

وبدأت أعمل كقول مظاهر تيرمي وشيخي عندما فطنت على أمي بحبل صبي الماكهة تصحبها حناني « حبيطة » وكانت « سلمى » تجلس بحواري على الفرائي .

رسمت رأسي إليها وقلت لها في شبه لوم :

— عندما أقوم إليك أن تقول لي أهدى .. وأهشمي ...

إلى آخر هذه النصائح التي كانت تلاعنني بها .

ووصمت لبي طيق الماكهة على المصدة ولم تستطع أن توقف شهوة اتطلعت من صدرها .. وأجلبنتي وأبصالية باعنة فطو شمتها لتنفسي بها تألرها :

— سنلوبي يا حبيبتي وتحرين كما تشائين .

— متى ؟

وكان ذلك هو السؤال الذي بدأ يسبب لي شيئا يركضني .

لم أكن أحسن أن ركضتي بابت برهونة بزمين محدد .. على أن أمد الأيام لأتحلص منها .. بل أصبحت الأسابيع تتوالى حتى بلغت الأشهر وكل ما أسمعته حولي هو كلمات بهيمة يحاولون أن يغمروا بها الفئوس إلى نفسي ونفوسهم حتى بت أحسن أن قيايى قد باتت أقرب إلى لبنية وهيمة منه إلى نتيجة برتقة وافسحة ، ولم أمد أحسن أن أبرى قد باتت ، وكلا إلى الطب والطبيب بقدر ما هو موكل إلى الله .. وباتت مترافكات « بلئن الله » و « بلئ شاء الله » و « بأمر الله » اقرب إلى ألى من التفسيرات الطبية .. حتى الطبيب نفسه لم أمد أسمع منه إلا « ربما يتشفى » و « ربما يعين » وغير هذا من المترادفات التي أبتده أمامي اقرب إلى العطر المازج الذي يروج هبة على شيء لم يفعله منه إلى القادر انذى يطالب بنتيجة مؤكدة لعمل حاسم فلم به .

ولم تكن ألى بالطلع أكثر ذراية من الطبيب حتى أحاول سؤالها .. ولكنها كانت فقط أكثر الناس صبرا على شيئي .

وكتبت « خلتي حقيقة » أسرع منا في الإجابة ، فثالت من لهجة مؤكدة :

— بعد أسبوعين مستوف جلسات الكهرباء .. وستجئني الثمرين على السير .. وسنذهب سويا إلى بيروت ونفسي الشهر كله في بضمون .

ولم أكن أعرف من أين استقت خلتي هذه المعلومات التي سأنتها بلهجة التاكيد ، ولم أحاول أن أحقق في مدى صحتها ، بل التفتلت الحرة الأخير الذين يمكن أن أتأكد من مدى صحتها مسألت ألى قائلة :

— حقيقة سنذهب إلى لبنان كما قلت خلتي ؟

— أجل يا حبيبتي .

ولم أكن أثق بالطبع في موعد قبلي من الفراش .. وأردت ألا أربط سفرنا إلى لبنان به معدت أسايل :

— حتى ولو لم أتمكن من السير ؟

— بل سنذهب وسنذهب .
ولما كتبت أمر على الحصول على وعد مطلق بالسفر إلى لبنان مدت

معدت ألح في التساؤل :

— وإذا لم أتهنى حتى ذلك الوقت .. ألا نذهب ؟

— بل سنذهب في أي وقت تشائين .

— وأين سنزل ؟

وردت خلتي :

— سننزل كلنا في الأجناسفور .

والصمت بشيء من الارتياح من اختيار « خلتي » للفندق ، إذ كان قريبا من البيت الذي موعدت أن تنزل فيه « سلمى » مع أسرتهما .

والثقت إلى « سلمى » قائلة :

— متى سنذهبين إلى لبنان يا سلمى ؟

وهزت سلمى رأسها في حيرة ، وأجابت :

— لا أعلم بعد .. ولكني أعتقد أننا سنذهب في الشهر القادم عندما يحصل ألى على أجرته .

وبدأنا بعد مشروعاتنا سويا .. ولم يكن أسهل على من أن تسمى ساقلي العاطلة .. وانطلق في آمالي ملهية محفلة .

وأتملت ألى بعد برهة .. وكأني أكثر الناس قدرة على منهي الأمل .. بضعة القوية العنور وأبضابنه الشرقية .. وتسلطه المطلق بكل ما اطلب ، وتحفله الكابل التدقيق العجول لكل مشروعاتي معها سمحت .

ولم يكن أسهل عليه من التسليم بما أعتقدنا عليه ، وجلس يشاركني و « سلمى » في مشروعتنا التي أمدفناها للزعة في الجبل في « عين لاصفا » و « نبع الباروك » و « زحلة » ومقبة أنحاء الجبل .

وأقبل الليل وقد غلب تملؤني برهلات الجبل المأمولة ما كتبت قد بدأت أحسن به من شيئي مرقمسي ، ويطس من شغالي ، وهنت نسمة مبهنة بسق الياسمين لدى مكافرت زهرار الربيعية البيضاء حول تالافتي .

وأقبلت « حنيفة » تحيل في يدها عقدا مظلمة من الزهور الرديعة
ومدحت يدها تشبیه حول عنقي وهي تبسم قاتلة :

— كانت رقبتى تقصف ولنا أجمعه .

— حاسبى على نفسك يا حنيفة .. لا تتسلقى الياسمين حتى
لا تقسى وترقدى مظى .

ولم أكد أقول ما قلت حتى أخلت أراجيح نفسى .. ومددت يدى أربت
على كتف « حنيفة » وهي مستظفة على إحدى الحشبات على الأرض
بحول مرأش .. وقلت لها في شيء من السخرية :

— وإلا تتسلقى كما تريد .. بلما جريت وقررت ، ولم يمسنى شيء
ويلى الله إلا أن يصيب سائى وأنا رافدة في الفراش .

ولم سحر « حنيفة » ردا .. ومدت كائبا قد أهرتها بثولى .. فمدت
يدها لتخمس يدى فى رفق ، وقلت وهي ترفع رأسها إلى السقف
كائبا سجدت إلى الله ، وتبسمت خائلة .

— حكيتك يا رب .

وأجبتها في دهشة :

— أى حكمة من أن يرتدى هكذا ؟ !

— عسى أن نكروهوا شيئا وهو خير لكم .

— لا أظن خيرا لي أبدا أن أظل على عرجة الساق .

— ستشفى ساقك بئس الله .

ومضت برعة شروذ حيم الصمت علينا .. وما لبثت « حنيفة » حتى
عابوت حديثها بشبه بصوتها الخافت :

— من يخرى .. ربنا وثق الله برقبتك هذه .. من شر منها .. ألم
يكن من الممكن أن تخرجي في اليوم الذى رقدت فيه .. متصممة
العربة .. وتصابى — لا سمح الله بشر ما أصبت به من سائك .
ألا يمكن أن يكون الله وقد وثق من صحة نائلة برقدة في المرائش ..
فستريحين فيها من شغائك بعض الوقت .

وبدأت أنكر من إصابتي لأول مرة بالطريقة التي نكرت بها « حنيفة »
والحسبت أن المسألة أهون بكثير مما أحس بها الجميع .

لم تكن الإحابة إذا .. كما سلمت بها « حنيفة » أكثر من واثق من
لطمة أشد .. وماتع من ضمة أقوى .

كثرت فترة استجسام .. أو راحة .

تسير سادج مريح .. لا محل له بابة تعقيدات طبية .. لقد تناولت
المسألة كلها على أنها تغيير طيب من الله .. أوتعه بنا ليقينا من شر به ،
وسيرفع عنا بلائنه فمنا يشاء .

ولم تعد كثيرا في نهاية تسميره . من النتيجة التي انتهت إليها
علم الأطباء .. « شاء من الله » .

ولم يكن أسهل عليّ والمفارقة قد انتهت إلى نفس النتيجة من أن
أسلم بها قالت « حنيفة » فقد كانت في نظري أسلم مطلقا .. مدت
يدان المسألة من الله وانتهت إلى الله .. أيا الأطباء فقد مدوها بالطب
وانتهوا بعد المعجز إلى الله .

وقلت أسأل « حنيفة » سؤال المصدق على قولها :

— انتظيني فعل هذا حقاً لكي يعطيني من شر أشد ؟

وأجبت « حنيفة » بقوة مطلقا بأخفت مؤكدة في همم :

— بلعيا .. الله يحبنا يا سيهر .. يحب عباده جميعا .. لما بالك
بمطيين منهم ، الذين لم يردوا أحدا ، ولا ارتكبوا شرا .

— وسيفسفيني يا حنيفة ؟ !

— ما حالجني في ذلك شك لحظة واحدة .

— لماذا كنت تنكرين عليّ إذن ؟ !

وأجبت بمسألة في شيء من الاستنكار :

— أنا ؟ بعد الشر منك ، ولا سألت عليك جمعة واحد .

والفتت إليها وقلت أضرها بلاهة :

— لا تكذب يا حنيفة .. لقد كنت أرى دائما عينيك محترلين .

وردت « حنيفة » ضاحكة :

— من تحريط البصل .. والله يا عييتي .

ومحكت لكتبتها .. ورددت محكتي ضحكة صائبة وامسكت يدي
ورفعتني إلى حذوها قللة :

— صغيتي أنا يا صغير عندي أقول لك ستشعنين .. لا يصح
إلى هؤلاء الأطباء .. إنهم لا يعرفون شيئا .. هل هم الذين أرسلوا
الداء ؟

واحتبها صاحكة :

— طمعا لا .

— من الذي أرسله ؟

— رينا .

— رينا وإن يرفعني كما أرسله .. أسأله ، وأدعيه .. وصلى له .

ونظرت إلى سقاي العنجرة وتساوت في ذهشة :

— أصلي .. كيلا ؟ ؟

وأحببت « حنيقة » مؤكدة :

— من غراشك .. أرقص وحبك إليه ، وأدعيه أن يشفيك ..

إلحني بفيه بكل ما في قلبك من حرارة الإيمان .

وثقة عجيبة وإيمان شديد واصلت قولها من تأكيد :

— صغير بمقول إلا بمستجيب إليك .. أنا أعرف رينا
حدا .. لقد ذكرني بمسأله من قبل .. ولكنه كال يمحني إياها لتبسي
شرا معها ، لم يندخلني الله أبدا ، كانت رحمته أعطب على كل ما رماني به .

ولست أدري كيف نزلت إلى " المحلوة المولدة السافحة الطيبة بها
من قلبها من ثقة بقدرة الله وإيمان برحمته ، فوجدت نفس أرفع رأسي
لأهبط من رفعة النساء التي بنت من المائدة .. وأهسست كال الله
هناك .. عند شجرة الخوخ المذلة من بعيد ، وأهسست بأنه — كما
كانت حنية — طبيب كريم رحيم ، وهبط إلى " أنه يحمي هنا .. مسألته

أن يشفي سائتي ، وإن يعبد إلى " مخرني على الحركة والعمو والفقر ،
والإتملاق في المولة وفي الجبل وفي الجبل .

وأهسست عيني وأنا أحس بكثير من الارتياح .

واستريحيت في غراشي . وأهسست بحنية تربت يدي ثم تفالمر
الحجرة .

واستيقظت في الصباح .

ولم أعرف ما إذا كان الله قد أراد إلا يخلد ثقة العداة الطيبة به ..
ثم أنه يحمي هنا .

الذي أمره هو أني استيقظت في الصباح والشمس تنسلل من
البائدة الشرقية لغرشي أرض العرة .. وفيل أن أصبح لاسه أه
است من استيقظت أحسست كال شيئا يثقل سائتي . وقيل أن أحارب
حديها لمخلص من هذا الشيء الذي يثقلها .. اكتشفت نجاة أنها السلق
العاجزة .. أو السلق التي لا وجود لها .

ونيلتي الخوف قبل أن أدرك حنيقة ما حدث . وحشيت أن تكون
وراء ما أهسست به من ثقل .. آلام جديدة .. ومخفت يدي في حفر
التحسس سقاي نغذا يجلدها يشعر بيمن أصلي .. وإذا بها
موجودة .

وهسست بالقرب التذادات إلى شفتي :

— ماها .

وفي نواي كانت ألي تقلق أمانتي فامررة ماها من دعر ومن ورائها لي
يسأل في لهلة :

— ماذا بك يا صغير ؟

وقد بدأ كلامها كأنه يتوقع المزيد من الأنباء المفجعة .

واثرت في دخول إلى سائتي هائمة في تردد وخوف :

— سائتي .

وهي نفسي وأحد هتف كلاهما في جزع :
— يا لها !

— أحس بها .. إنها تتحرك .

وحركت ساقي في حركة خفيفة من أعلى الفخذ .

ووقفت أني ماحودة برهة ، وهي ترنرد ريقها وتبتلع دمعها .
ولقبل أني غير محدتي بنحس ساقي في خوف وهو يتسائل هلينا .

— اتحسين بها هنا ؟

وهتفت مؤكدة :

— أجل .. إني أحس بأصابعك تضغط عليها .

وأستبر « أبي » ينحس ساقي حتى يبط إلى ما بعد الركبة ،
فلم أعد أحس بمس أصابعه ، وعاد يتسائل في همسه الوجع :

— اتحسين هنا ؟

وانفطرت برهة قبل أن أجيب في شيء من الخوف المزوج بالخفية :

— لا .

وأستبر يهبط حتى للقدم وأنا أهرز راسي بالفتى .

وبدت على وجه « أبي » علامات الحذران فهتفت به في إصرار مليء
بالثقة والامل

— ولكنني أحس هنا .

واثرت إلى محدتي وأنا أحرکه بقدر ما أمك من قوة ، واثبتت
في فرحة :

— ألا تري أنني أستطيع تحريكها ؟

ولم يلمح « أبي » أن استقلت إليه فرحتي وأعد الامل يمر نبرات صوته
وهتف خائلا :

— أجل يا حبيبتي .. أجل .. بدهشي .

وأخلفت « أبي » قبتة وضوعها تنسب من عينيها :

— الحمد لله يا حبيبتي .. الحمد لله .. ريقا يتم شهادته .. سليمة
إن شاء الله .

وكانت « حنيفة » قد اثلت على أصواتنا .. ولم يصعب عليها أن
تدرك ما حدث .. فرفعت كفها إلى السماء كالماخوذة .

لقد اعتبرت بداية الشفاء الذي حدث استجابة مباشرة من الله إلى
دعائها .. واداءت إيمانها بالقوة بنصصة مستحبة .. رغبة كريمة ،
ورفعت كفها إلى السماء .. وبفت كائنا توجه إلى الله حديثا خاصا بيهمة
وبينها :

— يا رب .. لطيفك لائق الحمد .. أتت كريم يا رب .

واثلت على « وهي ترتجل من التفرحة والخوف .. وهتفت بي في
صوت بهوح :

— أرايت يا سفير .. لقد كلى اقرب إلينا مما متصور ، أرايت كم
يصبك .. أرايت رحيمه ولطفه .

واثلت على نفسي في لفة وفرحة .

وسرت بين الأهل والاصفاء انفسار الشفاء الحرشي الذي أحرزته ،
وبدايا بعيش في دوامة من التهنئي والفرحة والتسبات الطيبة بأن يتم
الله شأني .

واحدث مشروعتي مع « سلمي » لرحلات العمل تتطور ولم معد
محد أوهم انطلق إليها وأنا قابعة في قرائتي .

كنت اعتبر الشفاء الذي حصلت عليه مقدمة للشفاء الكامل ، وكنت
أواصل دعواتي في إلحاح له كي يتم نضله ويريق بقية الشلل من
ساقي .

وهي الخليل الصابت .. كنت انطلق من البداية ، أبحث عن الله في
الرحمة الزرقاء بين السحوم المتلألئة .. أتضرع إليه أن يستجيب همساتي
.. وأؤكد له أنني أحبه ، وأوس برحمته ولطفه .. وأثق في أنه لم يتخذ
أدأى خط ، وأني قد قبلت مصابه بلا تضر .. ولكنني قد ضقت برقبتي ،
وأنني أريد أن أعود كما كنت أعود .. أريد أن انطلق في العمل كما
سمعت أن انطلق .. دون أن تعوق انطلاقي هذه المساق المداة إلى
جائتي .

وعلى الصباح .. كل أول ما فعله هو أن ابد يدي لأتحسس نتائج دعواتي ، وأرى إذا كان الله قد أسمعني إلى في الليل واستجاب لرحلتي .

ولكن الإلهام مرث .. والسائق المشلوله مدلاة إلى جاني .

بدأت أتحرك في البداية مسندة على كتفي أبي وأبي .. أو ليس وحنيفة عندما يكون أبي في الخارج .. ولكن كنت أتحرك في نطاق محدود ، وأنا أحر سائلي المدلاة من ركبتي كنتها هرقة ياليه .

واستمر العلاج الطبيعي .. بالتمرينات والتدليك ، رغم أن الأمل قد بدأ يطف ، وبدأت حافتي تتجهد عند هذا الوضع .. ولم يعد الشتاء الحزن الذي حصلت عليه بمثابة لشفاء كامل .. بل بات كأنه تطور طبيعي للمرض .. وخبا الرجاء فيه كتشخيص القيام والحركة والامتلاك .. بل أصبح بالنسبة إلينا أتمنى ما يمكن أن يرحى من محسن موسائل العلاج التي نتبعها .

ووضعت سائلي في القفص الحديدى الذى يشد بشط القدم إلى أعلى ولا يحملها مدلاة تصطدم بالأرض كمق اللجاجة المنسوجة .

اتبل على" أبى به أول مرة ، وقد كسا وجهه قناعا زائفا من المرح .. وقال بلهجة مزجة :

— ما أراك من هذه السائق الحديدية .. لو غرمت به أحدا شلوننا .. لصرقه .

وأكمل الطبيب قوله في لهجة جادة :

— ستساعدك كثيرا على السير .. يمكنك أن تتحركى بها دون حاجة إلى أية مساعدة .

ولم أكن أملك سوى الاستسلام لكل ما يعرض على" من وسائل للعلاج ، ولكنى لم أرحب كثيرا بإفشد الحديدى . كنت أكره أن يكون هذا هو مصيرى المكنوم .. أكره أن أتحرك بكل هذا الضجيج كائن مرة القطار .

ولكنى لم أجد بدلا .. اللهم إلا أن أسير محمولة على كتفين ،

أو محمولة على ذراعي ، أو مدفوعة على عربة .. كاتبة الفرة السلوقي . وبدأت أحرب المشد الحديدى ، وكنت أصيق به من أول الأمر .. وكنت أفضل عليه الرقاد .

ولم يحاول أحد أن يثقل على" به ، أو يرغبنى على ارتدائه .

ولكن " سسى " أحدثت طفلة على" من وقع المسألة كلها .. وبدأت تهرى بالخروج إلى الفوطة .

وقلت لها في دهشة :

— كيف أخرج أيام الناس .. وأنا أطرق الأرض بهذا الحق الحديدى .. جالدا يقولون على" ؟

— لن يقولوا شيئا .. ثم إننى لن أرى أحدا ولن يراها أحد .. سذهب وحدا إلى الفوطة وبطس أسفل العريشة كما تعودنا أن نفعل .

وأبستك بالمشد الحديدى في يدي وقدمت به من شيق وقلت لها :

— ولماذا لا أسير بدونه .. إننى أستطيع أن أتكى على أى

شئ . ولم يكن هناك أحد مما في الحجرة ، فقلت " سسى " في حصى :

— تستطيعين حقا ؟

— ولیم" لا .. هيا بنا نهرب .

وكنت أحس بأداة سائلي لدى أريكة في الحجرة ، فبدأت أفلى سائلي السلبية ، ثم سحبت سائلي المشلوله وأثقلتها على الأرض .. ومددت يدي استند إلى كتف " سلمى " ووقفت محملة على سائلي السلبية ثم أحدثت في الحركة .. وخطوت خطوتين ، وجعل إلى" أبى أستطيع أن أسلمنى من كتف " سلمى " فربت عنها يدي وخطوت الخطوة الثالثة وحدى .

ولكنى لم أكن أظن أنني السلبية حتى ارتبطت القدم المدلاة خلال حركتى بالأرض فإذا بي أتحرك وألقد توازنى وأهوى على الأرض قبل أن أتمكن من الاستناد إلى كتف " سلمى " .

ولم أعلق كثيراً على قول « أمي » .. ولكني عرفت على أي أهل
المشهد كحل نهائي .. وعلى ألا أعود إلى إثارة المتاعب لأحد .. وشاولت
النفس الحديدى الملتقى بجوارى وأخذت أضع فيه قدسي وإن أقول في
شيء من الشهدى :

— عرجاء .. عرجاء .. إن يهينى قول أهد ..
قلتها وكأنها أصابع الناس تشير إلى سلكى المشؤلة وهي محبوسة
بين قضبان سجنها ثقلة :
« هذه هي المرجاء » !!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

واختلطت صرخة « سلمى » بصرختى بضجة وتوهم على الأرض :
وأبليت أمي نعدو مرة على صوت الصبح ، واتحدثت على ملكه بدعوة
وهي تصبح بمسائلة :

— ماذا حدث ؟
وأجبت وأنا أنهض يهدى الأملى :
— لا شيء يا مليا .. كنت أحاول السير ..
وردت أمي في ثائر بالغ :
— لماذا يا حبيبتى تلعطن بنفسك كل هذا ؟ !
وأجبتها في لهجة مستفجرة :

— كنت أجرب السير بدون هذا المشهد الذى يندى كالجنية المحور
التي تطرق الأرض بقدمها الحديدية .. والتي يخيفون بها الأطلال
الصغار ..

ومدت أمي يدها تساعدن على الجلوس على الأريكة ، وقالت
« سلمى » وهي تحس أنها المشؤلة عن سقطتى ..

— أنت واهمة يا سهير .. ليس بالمشهد أبدا ما نظميه من كل هذا
الإزعاج .. إتنى على استعداد لآل البس واحدًا مثله .. حتى لا تفجلى
منه ..

ورببتها أمي في هنو وقالت :

— لا أحوك لك إلبه .. وأغسلها عنه .. إنها غسرة مؤقنة
سيساعدك فيها على السير ، وبعد هذا مستبشرين وخذك إن شاء الله ..

وكلت قد بدلت اسمي ما لقته إباي « خنيفة » من حب الله لى ..
وعطيه على .. ورحمته بى .. ولم أعد أشك لى أنه لم يعد يشاء لى
الشفاء .. إنه كف من الإنصات إلى والاستجابة إلى دعوائى بعد المرة
الأولى التى منحني فيها الشفاء الجزئى ..

قيل الرحيل

بدأت المرحلة التالية من مرضي .. بسألي المأهزة .. حبيسة المشد الحديدى .
ولم يكن هناك ما يقلقنى خلالها سوى نظرات الناس المقلبة بالرشا والشفقة .

واقترعت بعد فترة بأن كل شيء يمكن أن يهون بالتعود .. حتى هذه النظرات الرائية التي كنت أصيب بها بدأت اعتادها مع التهيئات التي أحاط بها كلها وجدت بين الناس .. والتي يصل إلى رذاذها .. « مسكينة » ما أجل وجهها ، أو « غسارة » .. شكلها لطيف - والتي تلخص آراء الناس في المقارنة الدائسة التي يمتدونها بين سألتي العرجاء .. ووجهي اللطيف .

كل هذا بدأت أشعره .. وطرقات قس على الأرض لم تعد غريبة على أدي ، وأصابعي رضاء العالج الذي لا يملك إلا الاستسلام لقضاء الله فيه .. والذي لا يملك إلا الهسيبة مستعجة تصحبها هرة من رأسه وهيمك لنفسه تقول :

« ما الذي استطع أن أفعله ! »

وبدأت في رموضي .. أمارس كل ما أستطيع ممارسته من مدح .

كل ما كنت أمارسه عدت أمارسه .. بلا عفو .. بل مساق عرجاء تطرق الأرض في كل خطوة .

ولست أظنها حرمتمنى الكثير مما كنت أتمتع به .

عدت أتمتع بالقسوة .. أطفل الزهر والثلج والنبات واجمع بهض الدجاج ، وأستبح إلى دقات المشقة وهدير المياه .. وكل شيء .

رحلت إلى لبنان .. وبسألي الحديدية .. نفلت كل مشروعتي مع « سلمى » .. ذهبت إلى عين الصفا ، ورحلة ، وتقبلت نظرات الناس المشفقة إلى سألتي ووجهي في شهر أكتراش .

وعدت من الجبل لأبدأ على الدراسي ، وأتبرع لوصول كل من في المدرسة بعرضي وشجعي سنكى .. حتى بدوا يقدروننى ، وأصبحت بشكلى الجديد جردا متبعا لميقاتهم اليومية .

وعادت ثروس آلة الحياة من حولي إلى دوراتها الطبيعي ، وأخذ كل شيء يسير في رتلة وانتظام .. على أساس أني قد استقررت في الوضع الذي أنا فيه كصغير محتوم لى .

حتى موجة العطف الزلزال التي كانت حسلى « يغمرى بها قد بدأت تنحسر ، وبدأ معد حصوله على التيسات يسجل نفسه مشروعات مستقبلة ، وسفره إلى مصر لتسجيل رسالة الدكتوراه .

كل من حولي قد اعتاد مصابى وأنا أولهم ، عدا مخلوقين كانوا يتنقل من الداء مؤلف التحفز الدائم .. كأنها القط القوس الطير المكسر الأنياب .. لم يبلغ الأهم قط من نهديتهما .. ولا إرجاء أعصابها .

« أبى » بحزنها الواضح .. وهو عها التي لا تحف .

و « أبى » بحسرتها المذمونة في أمانيه .. وتلقه الدائم وهو يحاول سفره أمامي بكل ما يملك من انتمه ، ثقة توهج الهدوء والرضا .

وكتت أحسن أن « أبى » لم يكف لحظة من استشارات الأملاء .. بل أكثر من هذا عرفت مما أنصرته من مكتبته ذات مرة أنه بدأ يقرأ كل ما يستطيع الحصول عليه من كتب من خصمه الميمن المسبى « شلل

الأطباء « الذي حمل من هوايته الجبينة المحسنة » سفير « مخلوقة عرجاء
مسلولة .. لا تكاد تتحرك إلا وعلى قدمها قيد من حديد .

وبدأت اسمع من همسات تدور بينه وبين أبي .. كلمة « العملية »
.. وسمعتها بعد ذلك من بقعة أشاء اتوا إلى بيتنا وأجروا ما يشبه
المؤنسر على سلكي العاجزة .

وكنت أدرك من جو البيت ، وس اهتمام « حالي حبيبته » بأى
هناك إمدادا للشيء .

ولم تكن محاولة فى عندما اقبل أبى على ذات صباح قبل أن يخرج
ليضمنى إليه قفلا :

« ما رأيك فى السفر إلى لندن ؟

ورفعت عيني إليه متسائلة :

« لندن ؟ لماذا ؟

« نستشير الأطباء هناك ، أعتقد أن لديهم علاجا لحالتك .

وصمت برهة .. وشرخت أظف الأبر فى رأسى .. ووجدتني فى
الطائرة .. ثم فى لندن .

وحيل إلى « أبى » أن شرودى شرود خوف .. فقال مطمئنا :

« أن نفعل شيئا قبل أن ننق إلى نجاحه .

ثم صمت برهة وواصل توله فى لهجته المطمئنة :

« حتى إذا أحتاج الأمر إلى عملية .. أنت تعلمين أن العملية بسيطة
حدا .. فتكرين عملية الزائدة الدودية التى عيلتها ، لا يحسن المزج
إلا بشكة إبرة ، ثم يسحو .. فإذا بكل شيء قد انتهى .

ولم تكن قد وصلت أبدا إلى ما وصل إليه أبى .. ولا كانت المخاوف
التي يحاول طردحها من نفسى قد بلغت إلى ..

كنت ما زلت فى الرحلة .. كيف ساطير ، وكيف سلودع اصحابي
فى المدرسة .

واستمر أبى فى حديثه المطمئن قفلا :

« لقد علمت أن محمود بن عبد العزيز بك أصابته بكى حنكك »

وأجروا له عملية فى لندن .. انتهت بنجاح تام .. وهو يسير الآن
على قدميه كأنه لم يصيبه شيء .

وبدا ذهى ينتقل من الرحلة كرحله . إلى الرحلة كعلاج . لتحقيق
يمكن أن أشفى وأسير كما يسير الناس .. أم هى مجرد محاولة عاشقة
ككل تلك المحاولات التى يقوم بها الأطباء ، والتي تنتهى بأى يهزوا رؤوسهم
فى عجز واستسلام ويهيمسوا بأى الشفاء من عند الله تبلى كما نلعل
« حيلة » ؟

واصبكت بكه وأغلقت أميت بأصابعه متسائلة :

« أيمكن حقيقة أن تشفينى العملية ؟

« طبعاً .. بلقن الله .

ولم أحاول أن أسأله .. « وإذا لم يأن الله ؟ » . فلم يكن هناك
ما يدعو أن أميت اليأس فى نفسه التى لا تعرف اليأس .. وكنت له
متسائلة .

« ومتى يسافر ؟

« لقد أرسلت التقرير الطبى وصور الأشعة إلى طبيب من أشهر
الأطباء الذين نصحتونى بهم .. وما زلت أنتظر الرد .

« ومتى يحتفل أن نذهب ؟

« فى أى موعد يحدده الطبيب .

« لئنه يحدده فى الصيف بعد أن تنتهى الدراسة .

« الصيف أو الربيع .. فبما أنفل من ناحية الجو .. لا نريد أن
نقاسى برد لندن فى الشتاء .

« أنفل السفر بعد الامتحان .

وتحسس « أبى » رأسى فى ردف وهو يهم بالدهوش قفلا :

« يا حبيبتي .. الامتحان أمر يمكن تدبيره ، يمكنك أن تؤدى الامتحان
بعد أن تعودى .. وحتى إذا فائت الامتحان .. يلتصق عام .

ولم أكن استخف بأمر الامتحان كما يستخف « أبى » .. فقد كرهت
أن أصبح العام فقلت « إلهاج وعناد

— لا يا بابا .. لى اضيق العام بحال من الاحوال

وسار « أبى » إلى الباب وهو يقول فى شروء :

— رينا يسهل يا سهير وتعودين سليمة وثلاثين الامتعال .

وبرت بعد ذلك بضعة أيام كتبت أنسى معها أمر العملية .

وكانا فى بداية الشتاء .. ونمروع الشجر العارية تبدو من وراء

زجاج شرمة البهو ، وهبات الريح تنسج فى صغير ينتطح منحوح كأنه

الدمجج ، وأنى قد أصبحت شاردة الذهن موش إرتب تنسج بهما صغيريا

من السموف ، وأنا قد جلست على الأريكة مبدودة السانس أحاول أن

أنهى بسرعة من واجب حسبه يخرسى حتى أتسلى بقراءة المجلات التى

رصصتها بجوارى ، و « حنيفة » تمد ابتداء للعشاء ، وهى تنصت فى

دهانها وإليها من المطبخ إلى حجرة الطعام إلى منبات الغفاه المنبعة

من الترانىو .

وسمعت صوت العربة تنكف سلب البيت ، وكان وتوف العربة ليها

مضى بعض وثبة منى إلى الباب وتقررات على الدرج تلقى منى من أحضان

« أبى » متسائلة :

— ماذا أحضرت لى ؟

وكان دائما يحضر لى شيئا .. نى شيء .. حتى ولو كان قطعة من

انثيكتولاتة ، أو بانكو لبال .. حتى إلى لأتكر أنه كان يحضر فى جيبه

رسيدا دائما من الهدايا الصغيرة يستعملها وقت الحاجة عندما يكتشف

فجأة وهو بالباب أنه نسى أن يحضر لى شيئا .

وكتبت أحس أنه يمتد ويتانى على الدرج ولعائى على باب البيت .

كنت أحس ذلك فى خطواته المتناثلة على الدرج وكأنه يحمل ثقلا على

ظهره ، أو كأنه يحسنى أنا على كتفيه .. كما كان يحلو له دائما أن يعمل

.. ولكنه لا يكاد يعبر الباب حتى يلغى بكل أصنائه ويثعه إلى « بتناع المرح

الذى يكسو وجهه ويبد به » إلى « ما أحضره لى قبل أن أسأل :

— ماذا أحضرت لى ؟

فى هذه الليلة لم تحف خطواته المتناثلة .. حتى بعد أن عبر باب

البهو الذى فتحته له « حنيفة » .. بل اقترب نحو أبى وقد بدا عليه
الاحتلام وأخرج من جيبه ورقة قتلا :

— وصلت برقية من الطبيب الذى أرسلنا إليه التقرير .

ورفعت « أبى » رأسها وتساقلت بلهنة :

— ماذا قل ؟ !

— قال إنه مستعد أن يراها فى منتصف يناير .

— لقط ؟

— وملا يستطيع أن يقول أكثر من هذا ؟

— ألم يقل لك إن العملية ممكنة ؟

والثنت إلى « أبى » ورسم استسامة على شفتيه وأجاب فى لغة :

— طبعا ممكنة ، وإلا لما كنى هناك ما يدعو لذهابنا إليه .

وكانت « أبى » تريد أن تعرف المزيد مما يطمئنها .. فعمدت تسأل

فى لهمة عيبة :

— أعتنى هل ستجرح العملية ؟

— هل تطمين أنه سيرسل إلينا الترقية قبل أن يراها ليثول إلى

العملية ستجرح ؟

ولم يرمس أبى رد أبى .. فرمعت رأسها إلى أه — ملجنها الأخير

— عندما يعدها كل من حولها ، والذى يقبل كل توسلاتها ودعواتها فى

صمت بريح .. وتصلت مهدى .

رفعت رأسها وأطلقت تهيدة حارة وتخطت فى توسل :

— يا رب .. أنت كريم يا رب .

وكتبت أنا قد أحسست أن كرم الله قد توقف معى .. بعد تلك

الليلة حين استعاب إلى « ونحنى اندفرة على تحريك الجره الأعلى من

سنانى ، ولم أعد أطبع بعد ذلك فى المزيد من كرمه .. بعد أن طابقت

دعواتى وصلواتى وروحوانى ، واستمرت الساق بدلالة من ركبتي نى

قيدها الحديدى .

ولم آبه كثيرا لدعوة أبى .. بعد أن تيسيت كل ما أتممتنى به

« حنيفة » من أن الأبرامس يرسلها الله ويأخذها الله . وإن الطلب والأطباء لا قدرة لهم على أبرامس الله .. إلا بالتسليم مائة وانتظار إنيته بالشقاء .. ثلثا كما يفعل بقية العباد الذين ليسوا أطباء .

والثقت إلى أبي أسكاه :

— أعتدنا الطبيب موعدا للحمية ؟

— أعتدنا موعدا لزيارته ، وسيقرر بالطبع بعد أن يفحصك ماذا سيحصل .

— أهبوز إلا بعد عنك مبررا للحمية ؟

وكتت أعرف أبي ارتكب نفس الإلحاح الصبي الذي ارتكبه « أبي » في سؤال « أبي » عما لا يمكن أن يكون على علم به .. ومع ذلك فقد كتت لود أن أعرف هل تقرر إجراء عملية لي .. ولم يكن أمامي سوى « أبي » لأسأله .

وحار أبي بالطبع ، ولم يعرف كيف يجيب .. ولكنه سرعان ما رد على بلهجة الواثق المطمئن :

— اعتقد أنه لابد وأجد طريقة لشفاك .. سواء بالعملية أم بغيرها .. لست أولي من أصيب بهذا المرض يا سفير - إلى واثق أن كثيرين من الذين أصيبوا به شفاوا ثلثا .

وصبت برهة ثم بسط كفيه في استسلام قائلا :

— على أية حال .. لاند أن نبدل كل ما نملك من جهد . على الأقل حتى نريح أنفسنا من لوم التقصير ، وليس أمينا في النهاية سوى التوسيم ببسبينة الله .

وردت « أبي » دافعة في حرارة :

— رسا بشغبها .. وفيهها مسألة .

ثم وجهت القول إلى أبي في شيء من التردد :

— ولكن .. ألم يكن من المستحسن لو أجريت الحمية في جو أكثر ملاءمة من هذا البرد القارس الذي نحن مقبلون عليه ولا سيما في إنجلترا .. أنت تعرف أن سفير لا تحتمل البرد .

وكتت « أبي » على حق .. إذ لم يكن هناك أسهل من إسباتي بلقرد .. بل إلى كتت في تلك الآونة أماني من بداية برد بدأ بحرقل في الزور وسعال خفيف .. أبي إلا أن يعلن عن وجوده ساعداك حتى يؤكد قول « أبي » .

ونظر إلى « أبي » في قلق .. وقال متسائلا :

— منذ متى بدأ هذا السعال ؟

وأجبت في استغفاب :

— لا الذكر .. ربما اليوم .

— لا تدعي إلى المدرسة غذا .. يجب أن تعرضي جيدا من البرد .. حتى نستطيع السفر .. وإن كتت سابرق للطبيب حتى يؤهل الموعد إلى أوائل الربيع ، لا سيما وقد وصلني برقية من احتفال وصول شحتك الآلات الزراعية التي استوردتها للأرض في أوائل عمارير ، والمغروض أن أكون في استقبالها . حتى أراقب تسليها ونوزيها على الأرض .

وردت « أبي » مؤكدة :

— أظن مارس سيكون موعدا ملائما للسفر .

وتحطت بينهما أبدي رأيي في المشكلة قائلا :

— المهم أن أكون هنا قبل الاحتفالات .

وهر « أبي » رأسه قائلا :

— إن شاء الله .

وسمعت « حنيفة » تنتم وهي تقبل علينا لتدعونا إلى القعدة :

— والله لا لزوم للسفر والتعب .. الشفا من عند الله ، إنه يذكرنا برحمته أينما كنا .. إن شاء الله سنشفي هنا في هذا البيت .. دون حاجة إلى السفر .

وردت « أبي » عليها في إيمان شديد :

— تاجر على كل شيء يا حنيفة .. لبتني كتت بكتاتها .

— بعد الشر هناك .

ونهمنا للعشاء تصحينا الدعوات المتبادلة بين الأم و « حنيفة »

وقد شرد كل منا مبعيا نحن مقلدون عليه من أحداث تعتبر الأولى من موعها
في حياتنا الرتيبة الهائلة .

وعرت بعمسة أيام قل أن يصل رد الشربة التي أرسلها لي .
وكانت نوبة البرد قد أزدادت حدة رغم انطوائتي في الدار حتى لا أتعرض
لأية مضاعفات قد تنسب لي إضافة السر إذا ما استقر الرأي عليه .

وكل يتلكني إذ ذاك إحساس بالاستسلام لكل ما يقترح علي .
ولم تكن بي لفة على السر ، فما كنت أحس بشيء من ذلك الجزء الذي
يحصه أبي علي .

كنت أسمع أن علي أن استسلم لذلك الوضع الذي أصبح عليه .
فلم يكن هناك سبيل للمقاومة ، ولم يكن هناك مبرر للجزع .

وبع ذلك لم أضق فكرة السر ، ولا تملكى خوف من إجراء العملية .
وما دام هناك محدد بعملي — كما قال أبي — أتاه وأصبح لأجد كل
شيء قد انتهى .. فعلم الخوف ؟

لما من النتيجة .. فإذا شفيت بأمر طبيب .. وإذا لم أشف فماتني
كما أتت .. ملا أي إزعاج جديد .

وفي ظهر أحد الأيام سمعت أبي يقول لأمي في لهجة حاسمة :

— سنسافر في منتصف يناير .

وسمعت « أمي » تجيبه في شيء من الدهشة وخيبة الأمل :

— فإذا ! ! ألم تطلب من الدكتور التجهيل ! !

— أجل .. ولكنه أجابني اليوم برفقة أخرى أنه يفضل الحضور
في الموعد الذي حدد .. وأكد لي أن الجو لن يسبب أي إزعاج .

— وماذا ستعمل في الآلات التي تنتظرها ؟

— لمحدث ما يحدث .. ألم سمع .. لقد وضعت في ذهني
أن أسافر بها أولا ، والمسائل الأخرى يمكن تدبيرها .

وصيت برهة قبل أن يصل ربي صوته حزينا حائتا وهو يواصل
حديثه :

— منفيما أتصور أنها يمكن أن تبقى طيلة حياتها هكذا .. أحس بال
شيئا يمزق صدري ، وأني أوشك أن أخنق .

ولحسنت بالسمع بطير إلى عيني وأنا أسمع صوت أبي الملى
بالنبوع .. وكهرت أن أكبر سدا لكل هذه الآلام التي يروح تحت ظنها
هو ولي ، ونسيت لو استطعت أن أخفف عنها وتؤكد ليها أنني حقيقة
لا أشعر بكل هذه الآلام التي يحملها لنفسها .. وأني قد نموت حياتي
ويكن أن أهبطها بلا غشيق ولا ظم .

وأقبل علي أبي يضاحك وكل شيئا لا يتقل عليه ولا يبرق صدره ..
وكننت أحس موجة من الحزن من أجله تعانني .. ولكني لم أرد أن
أحله بعيدا من الأجزاء وكل علي أن أقبل تضاحكه بانصاف سعيده
راضية .

قال لي وهو يسلك يدي ليسامني على الانتقال إلى حجرة
الطعام .

— سنسافر في منتصف الشهر القادم .. لقد أصر الطبيب على
موعد .. فلتتوكل على الله .

ووصلنا إلى المائدة وأجلسني برقي على مقعدى وهو يواصل حديثه
في حبي .

— شهران يخبين كالح برق .. وموعد بك في أتم الصحة
والعافية .. لتدري أمي الشغوفة والمفرطة .

وانتقلت إلى عدوى مسكنة فقلت في لهجة ملأها الأمل :

— سأستلم الانزلاق على الجليد في لبنان .. أتذكر تلك الأعمدة
التي كنا نراها على يسارنا ونحن نسمد الجبيل قبل أن نصل إلى
صور ! !

ولا أظنه كان يذكرها .. ولكنه أجاب مؤكدا :

— طبعا أذكرها .

— ذلك هو مكان الزحف على الجليد .. بمجرد أن تعود مستذهب
إلى هناك للانزلاق .

وأجاب « أبى » فى لهجة ملؤها التمنى ، كانه لا يكاد يصدق أنى
يمكن أن يعود سليلة بمعاينة .. لأجرى واتلم الاتراق على الحليد :

— عندما تعود يا حبيبى سنفلد لك كل ما تريدين .. سنذهب
للانتراق فى جبل الألب .. سنطوف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا فى
صحرة الريح ، وسنلخذ المركب من تينيسيا .

وهر رأسه وواصل الحديث يؤكد :

— فقط .. يشفيك الله .. والىالى دمه فى .

وسألته بآخرة :

— وإذا لم يشفى .. ستتركى دون أن ...

وأجاب فى حياسة وهو يطرد المسحابة القاتبة من الحزن التى كانت
أحملها تحشم على وجهه :

— سأبذل لك كل شيء .. على أى حال .. وفى أى وضع .

وأقبلت أبى لئلاخذ بكتفها على المائدة وقد شرد ذهنها فى الأحداث
التي توشك أن تقوض غمارها .. سفر .. وعملية جراحية ..
واغتراب .. ويرد .. إلخ .. كل هذه المشكلات التى سمعتها تزدحما
لأحتها « حفيظة » .

ولم يكن أبى قد انتهى بعد من تأكيداتنه المطمئنة إلى " فقد رأيته ينظر
إلى نظرائه المعجبة الصنون وهو يؤكد على إخلاص :

— لن تحصلى هما ما كنت حيا ..

ولم أكن فى حاجة إلى تأكيداتنه .. فقد كنت أشعر دائما أنه ملاذى
فى كل صديق ، وما أشبه حلتى مرة واحدة فى كل ما سألته إياه .

كنت أحس — بلا غرور — أنى أهم ما فى حياتي .. أهم حتى من
أبى الذى كانت تمنعنى جزءا منها .. وكانت تسلم بسهولة وأغشاش
سركتى المفضل عند « أبى » .. فقد كنت الوحيدة التى ترضى « أبى »
بالتأول لها من حقها فيه .. وأفضلها عنده .

وبدأت مرحلة الاستعداد للسفر ، وأخذت زيارات الأقارب

والاصدقاء تتزايد كلما قرب يوم السفر حتى بدأ فى الأيام القلائل الأخير
لا نكاد نستقر وحننا لحظة .

ورأيت الكثير من أقاربنا الذين كنت أسمع عنهم دون أن أراهم ..
لهم أقبلوا يودعوننا ويتبنون لنا عودة سليلة بمعاينة .

وانتهت « أبى » من طى السجديد ، ولم الأناك وهرم الأئمة
وفريقه العقائب ، ورشت النفتان فى الفوايب .

ولم يكن أبى يستقر لحظة واحدة .. كل يبدو لى كانه يعضى
كل ما له من أمور وعلاقات ، وأنه سيسطر إلى غير عودة .. من غرط

ما كان يقوم به من أعمال بمقابلاته ومعايناته الطيفية التى لا تنتهى .

وفى اليوم الأخير لى فى المدرسة ودعنى الناظرة (السيلة العسم ،
البيضاء الرأس ، التى اكتشفت طبيعتها ورقتها وسط مظاهر الحرم
الذى تحيط بها نفسها .

نأفنى فى حجرها ومهضت لشد يدها إلى " وتضمنى إلى صدرها
قائلة :

« تلوها كلها تدعو لك بالشفاء .. أذكرى دائما أن الله معك .. إليك
أن تتقضى إيليك به » ..

ولم أكن أستطيع أن أقبل قولها بسهولة ، ولا حاولت أن أحده بلحد
الجد .. فقد كنت أشعر أن الله ينسانى كثيرا .. وكنت أحس أن التحاء

الناس إليه وتعلقهم به أصحى نوعا من العادة .. لا يقصد منها أن
تحقق غرضا حقيقيا .. بقدر ما يقصد بها التبرج من الهم ، وإراحة

النفس البالسة الضائعة .

وعادت السيدة الحازمة المظهر ، الرقيقة الباطن ، تواصل حديثها
وهى ما زالت تفسك بكلى بين كنيها :

— لا تينسى أبدا من رحمة الله ، حتى لو نقل ملائك لرحمة الله
أكبر من أن تعددها فى صورة بذاتها .. إنه ينعمها لنا مشكل أو بأخر ..

فى شفاء سالك ، أو فى سناء قلبك ، أو فى رخاء الناس عنك وجيم
لك .

ولم أصدق كثيرا في محالي أحوالها .. وإن .. وإن كنت أعرف أنها
تدعيني بقدما من احتمال عدم نجاح العملية .

وانتقلت السيدة من حديثها نصف المفهوم إلى حديث أكثر وضوحا ..
حديث القرب إلى نفسي وإلى بطلاني .

قالت تطمئنني من الانتعاشات :

— لا تنصلي للامتحان عما .. في أي وقت تمودين .. سأدع بعض
مدرساتك يرابعن الدروس معك ، حتى تكوني جاهزة للامتحان .

وتنبت ببسج كلمات غير مضمومة أعبّر لها عن شكرى وواصلت
السيدة النظرة حديثها قائلا :

— لقد ظلمت من أمله عزة أن تعد لك قلعة بما يمكن أن تذاكره
لو وجدت لديك فرصة في سفرك .

ولم يكن الاستلزام قد خطر ببالي خلال السفر ، وإن كنت لم
أجد خيرا في الحصول على القائمة التي تحدثت عنها الناظرة لا سيما
وإن أمله « عزة » لم تكن غريبة عني ، فقد كتبت أخت « سلى »
وكثرت كثيرا ما تقوم بمتدريس لما في المنزل عنديا نستعصي علينا بمسألة
أو يهوتنا حرس .

وعدت إلى البيت لأجده مكتنبا بالأقارب .. وأقبل على « حسان »
وقد بدأ عليه التائر الناتج من طيبة قلبه .. وأمسك بعض كتب في يده
قائلا :

— لقد انتبخت لك بعض القصص المسيلة القراءة المذابة الأسلوب
لبعض الكتاب العرب .

وعد يده بالكتب وأتم حديثه مازحا :

— أطمئنني ليس بها شيء لي .. ولكني وأنت أنها مستليك في
رغدك في المستشفى .

وتناولت الكتب وقد تملكى إحساس بالأخوة له .. وقلت له في
خلاص :

— تنبئت لو كان بينها كتاب لك .

— حقيقة ؟

— أجل .

— ولكنك كنت تسفرين من كتبتني دائما ؟

— لأنني كنت لا أحب القراءة .

— والآن ؟

— سأحاول أن أحبها .. أن يكون ألبس في رقتي سواها ..
لا أظنني سأجد ما يشغل سامعني الطويلة هناك .

وهز « حسان » رأسه في إعجاب :

— لو استطعت أن أنتهي من طباعة مجموعة قصص قبل موتك
تسرسلها إليك .

ولحسنت ونحن نتحدث أن نوعا من التناهم العاقل قد بدأ بيننا ..
ويبدأ لي أنه يمكن أن تكون على علاقة طيبة ، ما دنا بعيدين عن هذا
الشكل الذي تحولوا الأسرة فرضه مليما ، أهني شكل الزواج .

وأقبلت خالتي « حفيظة » وقد أحسست لي كلاما طيبا يجري بيننا
وكثرت أكثر أفراد الأسرة تحبذا لسفري وثابيدا لإحراء العملية ، وكثرت
أشعر في قرارة نفسي بمدى أحاسنها بي .. ولهنها على كتفها حبيبة
لا تعوض حبسان يصلح ما أصابها من تلك ، وكثرت تضع نفسها بي
موضع صاحب الثقة أو وارثها .

وحاشائي أن أتمد بشعيري هذا الإقلال من قربة يشامرها نحوي
.. فلمننا على لم تكن تقويا لقيش المادبة فقط .. كوارنة للإف
الدوام التي يملكها أبي ، بل كانت تعترضني في جلتي أين ما يمكن أن
تهدي لانتها ، وكانت تكرر منه جهله بقبيش ، وعدم إقباله على .. إنزال
المطبخ الذي يعرف حقيقة قدرى كزوجة المستقبل الكلبة التي تطلع عليها
كل صفات الكمال والجمال فلا خوف من تزويد أو مخالفة .

ولم تحاول « خالتي » بالطبع أن تأخذ سخريتي منه .. ومن حديث

الزواج به ، بأخذ الحد ، أو تعثرها تعبير حقيقى من شعورى .. لأنها كانت تعثرنى أصغر من أن اتحدث فى تلك المسائل حديث الجسد ، وكانت تسلم على هذه هى الطريقة الطبيعية لمناقشة الفتيات مثل هذه المسائل فى مثل هذه المناسبات .

وكانت تعرف أن طليعة تقاليد الأسرة المتوارثة تتردى على الأبناء استسلم بشروعات الزواج التى يحططها لهم الآباء . ولم تكن نفس من طليعة خلقى أن ثمة هوائيل خارجية ، أو نزوات من الشعور يمكن أن تخرج تحطيطها .. وتحتلنى الفكر فى أى زوج آخر ، غير هذا الزوج المحلى .

ومن أجل هذا كنت أحس بملابئيتها إلى .. وعدم اتزانها من الطريقة المسيحية التى أحاطها بها .

ولكن الذى يرجعها كل « حسلى » نفسه .. لما أظنها أصغت منه قط اهتماما حادا من .. حتى فى الفترة الأولى من مرضى عندما كان يكثر من العطف على .. والاهتمام من .. كنت أدرك أنه كل إحساس شفقة لم يلبث أن تصال بطل المرض واعتياده .

ولقد سرها ولا شك .. وهى التى تحاول أن تثير اهتمامه من .. أن يرى نوعا من التفاهم الذى بدا لها حادا قبل أن أرحل .

عادت علينا فى حياصة تقول :

— بعد قد سيسأل حسلى إلى القاهرة لتسجيل رسالته وعتما تمودين بالسلامة سيكون قد انتهى من عملية التسجيل وعاد ليتسلم عمله كعميد فى الجامعة .. ولعل الله يكون قد وسع هذا الأحرار .. ولجعل مودتك إلهذا بأمرج دائمة .

ولم يرتج أحد منا لما أحس به وراء كلمات القالة .

لقد كان أقصى ما يمكن أن نقبله بيننا .. هو الصداقة ، لما ما يتحدى ذلك من مشروعات سقيمة ، لقد كنا حقيقة نضيق بها .

وهو « حسلى » رأسه واستدار لينصرف غصية ما يمكن أن يتطرق

إليه حديثها من ذكر الزواج ، أو معارفتها التقليدية له بأنه لا يستحق كلمة ظفري .

وبدأت حلتى « حفظة » تلبس ملابس معارفا من سفارتنا فى لندن ثم سلمتلى فى النهاية رسالة إلى صديقة لها قائلة :

— أول ما تذهبين اتصلى بالسيدة لطيفة زوجة الدكتور محمود هاشم استاذ التاريخ الإسلامى .. أنا أعرف أن أمك حذرة وتعرف فى شهر ما .. والسيدة لطيفة صديقتنا من مصر وقد ألفت ما يزيد على عشر سنين فى لندن وتعرف كل شئ فيها ، وهى معارفنا منذ زمن بعيد ، وكريمة وعشرية إلى بعد حدود الكرم والعشرة .. وسنضعك جدا خلال إقامتكم هناك ..

لقد قلت لأمك عنها .. ولكنى حسبت أن أسلمها الرسالة فتشيعها . ولم أكن أحس أننا سنكون فى حاجة إلى أحد .. لقد كتبت انصوب أننا سنذهب للطبيب الذى سيجزى لى العيطة فى نفس اليوم وأظن راتدة فى المستشفى حتى انهمس على قدسى ثم أعود إلى دمشق .

ومدحت يدي أخذ الرسالة وانصبا فى حنية بحوارى حتى أريح خلقتى .

وأحسست بمرامها تلعب حول جسدى وتضاضى إليها من حبال وعطف وإيمان بأشئ شئ .. ولم تستطع أن تنكب رفرة حارة انطلقت من صدرها وهى تدعو :

— رينا يهدكم بالسلامة .

وكانت « سلمى » تتبع بجوارى كالكفلة الوديمة .. ترتب مناظر الوداع المظلمة التى تتوالى على .. وقد بدت شاردة حريئة .. ومنفصا حال نرافنا وجدها تشيح بوجهها لأشئ فمعلن نترقرق فى مثلثها وهى بهمس خائفة :

— اكنى إلى كثيرا يا سهر .. سأكتب أنا لك كل يوم لأحرك من كل شئ .

وكانت « حليمة » آخر من ألدل على عتقا انتفى السابر وخيم
السكون على البيت .

أقبلت جميل مصعبا وكتيبا صغيرا دستهما تحت الوسادة وهي تقول
في جزع :

— سمعهم دائما تحت وسادتك .. وانكرى أن الله يحبك .. وإن
بيده كل شيء ، وأنه وحده صاحب القضاء ، لم يكن هناك ما يدعو
للسفر أبدا .. فهو قادر على أن يشفيك في أي مكان .. ولكن ما دام
لا بد من السفر .. فلهذهك الله بالسلاية .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

إحساس بالوحشة

بدأت رحلتنا إلى لندن في الطائرة .

انحدت جوعى حوار أسى وقد شجعت الحرام حولي ، وأخذت أرتقب
أرض المطار وقد بدت في آخره أشباح المودعين ، مختلطة وجوههم ،
مخالفة أروعهم الملوحة في الهواء .

واستقر أسى على متعدد مجاور معد أن رمى سمطينا وحقيقتنا فوق
الرف وبدأ يرضى أعصابه معد طول ما يقل من جهد والتفت إلى يتسم
مستقلا :

— أستمريعة في مقعدك ؟

وأشرت له برأسي « نعم » .

وبدت أسى يدها تحسس المشد الحديدى ثقلة :

— يمكنك أن ترخيه حتى لا يضايقت طوال الرحلة .

وقلت لها إنه لا يضايقتى .. ومع ذلك فقد أرخيت أربطته حتى أريحها
فى .. وعدت أينسى لاسى ابنسالية تطمئنه على .

لقد شعرت أنها في حاجة مستمرة لكن أكدت لها إلى بخير ..
وإلى مسفرةحة .

ومرت المضيبة بطبق الطوى ، فتناولت واحدة ألوكها في أسى ..
وتركت لنفسى لمرصة الشروء .

لم أكن أستطيع أن أهدد لنفسى كيف أضم .

كنت بشاعري مبهمة حتى على نفسي .
 لم أكن أعرف ما إذا كنت خائفة مما أنا مقبلة عليه .. أم مبلبة
 إلى نتيجة .
 لم أكن أعرب حتى إذا كنت اظلم حقيقة على الأشياء .. أم
 أن المسألة تستوي عندي .
 هل كان يهينني ما أنا فيه إلى حد المحاربة بالسيف والعميلة ؟
 لو ترك الأمر لي لما لقيت على شيء .
 لمست أظني في سني هذه كنت أشعر بالمعيق الجتهني ما أنا
 فيه .. فقد كنت أكثر ما يرعجني حينذاك الآلام الحسية .. وما كنت
 لا أشعر بما أنا فيه من الألم .. بالمسألة عندي فكانت تكون غير كأنه
 .. فأكلها النفسية لم تكن عندي ذات موضوع .. إذ لم أكن قد
 بدأت بعد أحس بما يمكن أن تتركه من تشويه في جسدي .. بل لم أكن
 أرى بعد أن جسدي يمكن أن يكون مظهرًا من مظاهر الجبال .. بل
 كل إحساسي بجمالي لا يتعدى وجهي وشعري .
 ومن هنا كنت مسعب الالامالة الذي كنت اتناول به المسألة كلها .
 والذي حملها بالنسبة إلى " رحلة بالطائرة " ، تعتمدا رعدة في الفراش
 وعبلية يتبني المحذر كل الأمها ، والندبة مما كنت ، بل تكون أسوأ
 مما أنا عليه .
 لم أكن أستطيع أن أحكم على المسألة إلا من خلال السن التي أنا
 فيها .. لم أكن أستطيع أن أشعر بها كما يشعر أي ولى الدلال
 يعرف كيف يمكن أن يكون أثرها في نفس بعد سبع سنوات ممدا أنبو
 ويكتل جسدي وتصبح ساقى المشلولة كالجزء المعلق في الثيرة
 التافهة .
 ولم أتجاوز من شرودي ذكرياتي القريبة .. وأخذت أستعرض في
 ذهني ما من في أرض المطار لم أحسست بالأرض تتأهد من أعيننا
 وفيلكى الحوف وأغمضت عيني وأطبقت على كف أي المستدة على
 يد المتحد .

وفتحت عيني بعد برهة لأجد الطائرة قد استقرت في الجو كثفا
 مشقة في النساء ، وأصبحت ببساط أبيس من السحب يمتد أسفلى .
 وفككت الحرام وأهسست بالاسترخاء ، وبدأت أنصرف كشي
 استتر على بعد في هجرتي ، ولم أشعر بالكل يتطرق إلى نفسي خلال
 الرحلة .. فقد بدأت التماثل بالأكل والقراءة والحديث مع أي تارة ،
 ومع أبي تارة أخرى ، وبدأت أستعرض معها ثقبه المشروبات التي
 أنوي شراءها من هناك وكأنا راحلون في قزعة .
 وهبطت الطائرة برئين علي ما أذكر في رومبا ولى جنيف
 ولم أحاول النزول ، فقد كرهت أن أحمل أي عبء بروني وصعودي من
 الطائرة بلا مرر ، لا سيما وأن صعودي إلى الطائرة أول مرة لم يكن من
 السهولة بحيث يشعني على تكراره .
 وانتقل أبي إلى جوارى وحاول أن يشرح لي ما بررنا عليه طول
 الطريق ، وكنت أظن أسفل ملا أبعز سوى لكذاس السحب .. لم
 أبعز سوى تم الآلب الناصعة وقد اختلطت بكوام السحب المراكمة
 حولها .
 وأخيرا هبطت بنا الطائرة في لندن . ولم أشعر كيف تسفل التعب إلى
 جسدي .. كنت بمتريهة طوال الرحلة ، ومع ذلك لم أكن أعط إلى
 الأرض هي أحسست بنقل في رأسي وفنيت لو استطعت أن أتدد في
 غرائبي .
 ولطبتنا على الأرض هبة ريح باردة كانت تقدمنا الإحساس بالمطرافنا
 .. وأحسست بأبي وقد بدأ عليه الإجهاد يحمل حذاب اليد في إحدى
 يديه ، ويبدو ذراعه الشابة حول جسدي حتى لتكاد تحيلني من فوق
 الأرض ويقول لي في إضلال :
 — البرد شديد .
 وهزرت رأسي وأنا أحاول الابتسام :
 — أجل .

— من أجل هذا حاولت تأجيل موعد الطبيب .
وابسست لامذاره واجبت ضلعة ؛
— لقد حضرنا وانتهى الأمر .

وأوصلنا اتوبيس الطائرة إلى المخلل الطويل المؤدى إلى مبنى
المطار ، وسرنا وراء المشيمة الزرداء العيبين ، استطولة الجسد ، وقد
بدأ علينا بنهى الإجهاد حتى وقفت بنا أمام مكتب مسوطة الحواريات
واشترت إلى لافتة مكتوب عليها « غير الإنجليز » فلتقم أبى وبدأ يكتب
أوراقا ويخدم لوراك ، وأخذ الموظف فى نفس جوازاتنا .. ولم تكن
المدة التى استغرقتها أكثر من دقائق ولكى خلتها دهرا بنى فرط ما كنت أشعر
به من تعب ورغبة فى الرقاد .

وانتهينا بعد ذلك إلى نافذة الجوارك ، وانتهى فحص حقننا فى
لحافات حاطمة ، وانتهينا إلى باب الخروج وقد بدت على وجه أبى علامات
الحيرة ، حتى أبصر رجلا يلوح له بيده .

وأقبل علينا الرجل الذى حيز أبى وعرفنا به أبى :
— الأستاذ جمال المحقق التجارى بالسفارة .

وحيثما الأستاذ « جمال » واستفسر عن حقننا ، ثم تركنا ليحضر
حرفه .

وعرفنا تحت مظلة البناء الخارجية ، ورذاذ المطر يتسلط علينا ،
والريح القارصة تدفع به إلينا نظمت به وجوهنا .

وأخذت اتكشى داخل معطلى وقد بلاى إحساسا متقباضا شديدا
وأنا أكاد أجد كل ما حولي باردا كليا ، والشمعة المصابيح تنكسر وراء
خزات الضباب المتناثر حولنا .. فلا تنفذ إلينا إلا غسبية مترسعة ، وتنهت
لو استطعتم أن أبكى وكنت أصبح بأبى :

— ليرد أن أعود .

من الميث أن أحاول وصف الإحساس الموحش بالمعربة الذى
احسست به وأنا ألقى بكنشة داخل معطلى والريح تنسعى والمطر بطرق
أزمنة التى وعظم وجنتى .

كنت أرتجف من التعب والبرد والحواف .. ولم تكن أبى أفضل منى
حالا وقد شحبه وجهها ، وبدأ عليها الإرهاق والشرود ، واحسست أن
بى أثقل بالمقاييس ، وأنه قد حمل فوق طاقته .

وطالت غيبة صاحبتنا الذى ذهب ليحضر المعربة .. وازدادت طرقات
المطر واسعات البرد وزداد معها الإحساس بالغربة والضياع وهيمت
بأبى وأنا أكاد أسقط إيماء :

— ليتنا ما حضرنا .. كنا يستريحين فى دمشق .

لجل .. لقد باتت دمشق كلها فى نظرى وكأنها بيت تحنو على
جدرانها ويظلمنى سقفه .

لقد تلمكتنى حزين شديد ، وأنا فى وقتى تلك إلى كل ما يمشى .
إلى طرقاتها المليئة بالأنس ، إلى أنفاسها الدافئة رغم برد الشتاء ،
إلى حركة شوارعها وأزهارها حوليتها .. إلى بيوتها وأشجارها ،
إلى مهرج الصور الرقيق ، إلى صيحات مامتها يذمعون مرساتهم الصميرة
أصمهم ، إلى كل الناس ، إلى « حنيئة » ، إلى « سلمى » ، إلى كل حجر فى
دورها ، وكل قصبة طين فى أرضها .

وبد أبى ذراعه فأحاطنى بها فى حنان شديد ، وقال برفقا :

— سينتوى كل هذا التعب عندما تستقر فى الفندق .. لابد أن
تحتلى يا سفير .

وقلت له وأنا أرتجف :

— أكره هذا البلد .

— ستكافئه بعد قليل .

وأخذت أبى تبتدى قلقتا بحسالة ، وهى لا تثقل منى ارتجائا :

— منى ستحضر المعربة ! لقد كنت أجد .

وأقبل أن يجيب أبى كانت المعربة تنفأ علينا .

وبعد لحظة وضعت الأمتعة فى صندوق المعربة ، وانطلقت سا
نجاه المدينة .. واحسست بالثوم يطبق جفونى ، وعال سا الطريق والمطر

ما زال ينهمر ومثلث الزحاج يحرك كالمدول في حركة عصبية رتيبة ليريح
أطراف المطر من أمام السائق .

وتنادى أبى والأستاذ « جمال » بصح كلبات ثلثه بقطعان بها
سميت الطريق ، وأحسست أننا قد أشرقنا على بداية الطريق عندما قال
« جمال » لأبى :

— لقد تم الحجز في البيت الأبيض .. أبلغنا الفندق أن المحررين
مجهزون ابتداء من اليوم ، والأفضل أن ننجم إلى هناك راسا .

ورد أبى في لهفة :

— أجل .. أجل .

وبدا التردد على « جمال » وهو يقول بالعربة قليلا ثم تساقط .

— أظنها في شارع السلي .

وليد « أبى » قوله مؤكدا :

— أجل .. في شارع الباني .. لقد طلبت الحجر منها لاني سبق
أن نزلت بها في المرة السابقة عندما مررت بثلثين .

— إنها مريحة جدا .

— وهي قريبة كما أعلم من المستشفى الذي نقرر أن نجرى به
العيلة .

— أجل .. أجل .. اعتقد هذا .

ومرة أخرى بدا عليه التردد وهو يتوقف بعربته وينتظر عابر سبيل
أقبل علينا وقال في شبه اعتذار :

— ألوانع اني لا أعرف مكانها بالضبط ، لأن الحجر تم بالتليفون ..
ولكننا نستطيع أن نساكن .

وبدأت عملية السؤال ، وأحدنا نتأرجح شرقا وغربا في الشوارع
التي أحبها الشباب وأغرقها المطر .. وكفى التعب والضييق قد استند
كل ما نملك من مقاومة ، وكنت أصبح يائسة :

— أعيدوني حيث أتيت .. إنني راضية بمساكني كما هي .. إن
ثم أشك لأحد .

ولكن مثبة خشبة على مشاعر « أبى » ، وخجل من الرجل الغريب
مجانى يزيدا من الصبر لما لبثت براسي على مسند العربة وأغمضت
عينى .

وأخيرا هتف الأستاذ « جمال » وهو يدور بالعربة في منحني ثم
يتوقف أمام باب زجاجي عريض وقف تحت مظلة حارس يرتدي
بدلة خضراء .

— وصلنا أخيرا .. آسف على هذا التمهيل .

وأخذ الحارس يتناول العتليب ويحملها إلى الداخل .

ولم تضي لحظات حتى كان أبى يتناول مقاهين ويشد على يد
« جمال » ساكرا وهو يقول معتذرا :

— آسف على ما قد أكون سببته لك من إزعاج .

وهر الرجل الرفيق رأسه مضيقا :

— حاشا له .. هذا أقل ما يجب عمله .. أترككم لكي تستريحوا
.. هذا رقم تليفوني إذا احتجتكم أي شيء .

وصعدنا إلى الحجرة .. وبدأ الدفء الذي انبعث من داخل البدن
يريل آثار البرد الذي حمل أذاننا وأطراف أنوفنا تكاد تجدد .

واستقر بنا الختام في إحدى الحجرتين المحوزتين .. والذي تمد
أبى أن يكونا حجرتين في جناح واحد .. ولكننا لم نجد سوى حجرتين كل
فيهما مستقلة عن الأخرى .

وارتيت على أقرب مقعد .. وبدأت أحس بالجوع وقلت لأمي
— ألا يوجد شيء ياكل ؟

وبلثت لبي إلى أبى .. فقد كان خلال مشكلاتها المستعصية وقد
بد الطعام في هذه الليلة الموحشة المنصبة من المشكلات المستعصية .

ونظر أبى إلى قائمة الأجراس وصنط على أهداها .

وأقبل السائلي بعد لحظات يتسائل في أصب عما نريد .

وسأل لبي :

— كيف يمكننا أن نتناول الطعام ؟

وهز الرجل رأسه في أسف قائلا :

— الطعام قد اُفلق .

— ألا تستطيع أن تشتري شيئا يؤكل ؟

وعاد الرجل يهز رأسه في أسف وهو يقول :

— لا أفكر .

وخرج وهو يمشي .. ويدت الحيرة على وجهه لى .. ولكنه مهمل
معاذة الأخذ بفنائه في حقبة يده حتى أخرج قطعة من الشيكولاتة يد
بها يده إلى كفيه قد وجد كزاً وقيل ضاحكا :

— حذى هذه تصيرى بها حتى الصباح .

ولم يكن أمابقا بعد ذلك سوى النوم .. وكذا في أمس الحامه
إليه فاعطينا أحساننا على الفرائس واستفرقنا في النوم .

واستيقظت في الصباح .

لم يكن صباحا مألوفى المفهوم للصباح .. فما كان يحل أبسط معالم
الصباح .. وهو الإشراف .. بل وما كنت لأدرك أنه أقل لولا أحساسى
مضى شبيعت نوما وبأنى لم أعد أطيق الاستلقاء على الفراش .. وأتد لى
إحساسى بأن الليل قد انتهى وأن عقارب الساعة كانت تشير إلى الساعة
والنصف .. ولم تكن واقفة .. بل كانت مبهمة فى التحرك .

ووقفت وراء النافذة الزجاجية أرتب الطريق ألساكى وأرتب مصنعه
ذات الضوء الأصفر التى تكسر أشعتها وراء ذرات الضباب الثقيل
لألا تكاد تنمدى دائرة خفيفة تحيط بالصباح .

ورويدا رويدا بدأ سحر الظلمة يرمع .. وساعات الدوائر الصغيرة
الصفراء المحيطة بالصباح وسط الضوء الرمادى الذى عبر الطرقات ..
وبعد لى أسلف الدور المنحرفة وقد غطتها طبقة ناصعة من الطيد ،
امتدت إلى شم الأتجار العارية وإلى أسلف العريات بل إلى أرمى
الطريق نفسه .

ولم تكن أول مرة أهرع الجليد .. فقد سبق أن أبصرته فى جبل
لينان وعلى قمم منودلى ، ومع ذلك فقد أخذت .. كانت المرة الأولى أن
رى كل شيء أمامى قد غطاء الجليد حتى الأرض السوداء وبدت الدنيا
كلها كسها إناء غار فيه ألبس وعطت رغايوه البيضاء كل ما حوله .
وانجبت إلى لى الذى أخذ يخطى فى أرائسه وهفت به فى فرحة :

— أرايت الجليد ؟ لقد غطى كل شيء .

وبشر أبى وصحنى إلى السادة ، ووقت معى برهب الأبيض الميت
أمامى .. ولم تبد عليه الحباسة التى كنت أتوقعها .. وقلت له بمسألة :

— ما أريك ؟

— جبيل .. ولّى كنت أفضل عليه شعاع شمس دائما .

وعابر السادة وهو ينظر إلى الساعة ويواصل حديثه قائلا :

— الساعة الثالثة .. وبوعنا مع الطبيب فى الساعة عشرة ..

أطش أن لدينا وقتا كافيًا للإفطار والذهاب إلى البنك .

وقبل أن يغفلنا أبى للذهاب إلى البنك كنا قد انتقل إلى جناح أرحب
مكدا يكون فى تكوينه شقة صغيرة يحكم مريح ومطبخ يحوى لمرنا وثلاجة
.. وأحسست فيه شىء من الاستقرار ، وبدأت ترتب ملابسى
واسطواناتى وكبرى وعمرت بين الكتب على الرسالة التى أعطتها لى
حدثنى لصديقتها المصرية ولوححت بالرسالة لأمى بمسألة :

— رسالة الست لطيفة .. ماذا أصنع بها ؟

— أطلبها من الشيفون .

— ماذا أقول لها ؟

— قولى لها إن خالك حفيظة تسلم عليها و ..

ولم يكن هناك أثقل على من مضادة العراء ، فقلت لأمى سلطانها
لك وكلبها أنت .

واستجبت بالمسامة وبأعزى من إنجليزية ركيكة استطعت أن أطلب
الرقم . وأحسست بالخرج وأنا أسمع صوتا يتحدث إلى بالعربية قائلا :

— آلو .

وأجبت بالعربية :

— صباح الخير .

— صباح الخير .. من ؟

وأرنيك ولم أعرف ماذا أقول وحاولت أن استجد بأني نوجدتها قد تشاغلتم في ترتيب الفوليب .. وكان عليّ أن أقول شيك نجست في أربحك :

— أنا سيهر .. خالتي حفيظة

ولم أكن أعطي اسم خالتي « حفيظة » حتى علمت السيدة :

— أهلا وسهلا .. لك أهلا وسهلا .. حمد الله على السلامة ..

كيف حال حفيظة ؟

— بخير .. وقد أرسلت إليك رسالة .

وكانت أتي قد ألفت نوجدت فيها بنقذا ، وقلت للسيدة على عجل :

سأبدا مستلكك .

وبعدت بدى بالمساعة أسلمها لأمي .

وعندت انشأغل بترتيب كتيبي في رف بالحائط .

وانتهى الحديث بين أمي و « لطيفة » بموعد السيدة بزيارتها وروحها بعد الظهر ، ولكن لم تضي مرة حتى دق التليغون وعذت أصبح صوت « لطيفة » تقول معتدرة :

— أهلا سيهر .. تحول لي لما إتنا سنحضر إليكم هذا الصباح ..
« أظنكم تكونون في حاجة إلى شيء .. مع السلامة » .

ولم تدع لي فرصة المناقشة ووعدت المساعة وأبليت أمي بالحديث .

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مبقيا عاد أمي من الخارج ..
يجدنا قد أردنا ملابسنا وجلسنا في انتظاره . ولم تكن أمي نلعه نبأ الزيارة المتوقعة حتى دق حرس الباب ، وأقبل الضيف « الدكتور هاشم » وروحته « لطيفة » واستقلها أبي بالترهيب ثقلا :

— أهلا وسهلا .. ؟ أظن في حاجة إلى تعارف . فقد تحدثت عنكما حفيظة بما فيه الكفاية .. وأظنها رانكها في القاهرة .
وأجابت السيدة :

— كن لدينا الأول من لسان ثم رارنك بعد ذلك في القاهرة ..
وعندما حضرت إلى لندن بعد بضع سنوات لم تكن تفرق لحظة . لقد أوحشتنا جدا .. كيف حالها :

وأجابت أمي :

— بخير .

وكنت أشعر أن المطر يمسق إلى ساني .. ولم يصعب عليّ أن أدير النظرة اللينة للسيدة التي تثيرها المقارنة اللا إرادية بين وجهي وساني .

وكان « الدكتور هاشم » رجلا طيب السمات ، طويل القامة ، محرم الطهر ، يمنحه بظارة ورائه الألبس وقار الأستاذة . وكانت روحه « لطيفة » تودجا حبيبا للسيدة الشرقية بكل ما فيها من طيبة ودكاء وحفة فم وحسن لقاء .

وفي لحظات رفعت الكلفة بين الأسرتين وأصصت في السيدة المصرية الذكية الشوش قد استطاعت بسرعة أن تكتسب ثقة أمي للحول المنطوية ، كما أصصت في أمي بطيبتها وهدوئها قد وقعت في نفسها موقعا طيبا .

وكان طيبعا أن يدور الحديث حول ساني .. بعد أن انتهت منة السمات والسمات والمديح في خالتي « حفيظة » وبعد أن طال استراق النظر إلى ساني المشدودة في ثيها العنيد .

وطرق أمي الموضوع مباشرة بقوله :

— لقد حضرنا لإجراء عملية لسيهر .

وقاطعته لطيفة بتسائلة :

— من الذى سيحربها ؟

— الدكتور إينلتر .

— من أفضل الأطباء هنا .. متى سيحربها ؟

— موعدها اليوم معه فى الحادية عشرة .

ونظر أبى إلى ساعته ثم أضاف قائلا :

— بعد نصف ساعة . لقد تبيل أن يتولى علاجها بعد أن أرسلنا له التقارير الطبية وصور الأشعة .. ولظنه سيقرر اليوم بعد أن يبعثها بالذا يتولى أن يعطيه .

والحس ! الدكتور هاتسم ! أى الوقت قد أرف للدعاب إلى الطبيب فنهض واقفا وهو يقول :

— أظن موعد الطبيب قد أرف . انعرف عنوانه ؟

وأخرج أبى ورقة من محفظته وعلمها قائلا :

— شارع بورتلاند ٨٢ .. أظن أن ...

وقاطعته لطيفة ! ثقلة :

— سيذهب هاتسم بمكيا إلى الطبيب .. وسأبقى هنا مع غاطمة هاتم فى انتظاركيا .

وأجلب أبى شاكرا :

— لا داعى لتمثيل الدكتور هاتسم . نستطيع أن نأخذ ناكسى إلى عيادة الطبيب يوصلنا بسهولة .

ورد ! الدكتور هاتسم ! فى إصرار :

— ليس لدى ما عمله الآن .. إن شارع بورتلاند على مقربة خطوات من الفندق .. هيا بنا .

وقبل أن تغادر الحجرة قالت لطيفة :

— سنناول العشاء الليلة سويا .. سيحضر همدى أبى أخفى من وولتس اليوم .. إنه غاضب فى الجيش تخرج فى السنة الماضية وأرسل فى بعثة مخصصة إلى إنجلترا .. إنه عزيز على كاولادى .

وهر اسم همدى ! أبى أخفى ! يسمى من الكرام .. لم أعرف بالطبع أنه سينتس بعد سنوات فى ذهنى وفى قلبى . لم يطف برأسى قط أنه سيمنى لدى فيما بعد شيئا .. شيئا جابا خطيرا .. بل أخطر ما يمكن أن يكون فى حياة إنسان .

لم يحضر سالى أنه سيكون .. إيسا لك .. وإلا لكنت خلقت بالإسفاه إليه .. والاستسار منه .. ولما تركته يخل من أذى ليخرج من الأخرى .. وأنا أتعلى بذراع أبى خارجة من الباب متجهة إلى المصعد .

وحبطا إلى ساحة الفندق الداخلية وقد دبث فيها الحركة ، نزلاء يدخلون بهتاجهم وخم يحلون المكائس أو الملاءات ، ومضى يدفع ليله عربة صغيرة محملة بمناديق ، خشبية ، وموسيقى تنبث من بهو النادي الصمير القائم حول حوض السباحة .

ووصلنا إلى باب الفندق وأنا استوعب سعري كل ما حولى .. ولم نكد نطل برؤوسنا من الباب الخارجى حتى لسعنا سيح الرياح الباردة .. كنت قد نسيت البرد وأنا داخل الفندق من رطبا كالى يسمت فيه من الفف ، ووجئت تفسى أرتجف وأنا متقلبة بذراع أبى خارج الباب ، وأشار أبى إلى الحارس الكهل الطويل المظلم وقد بدا سطنه الفخرة ووقته المتعالية كانه رئيس ورراء أو قائد جيش وهم بأن يطلب عربة أجرة متما قال الدكتور هاتسم :

— المسألة لا تصحقي .. العيادة فى الشارع المجاور لهذا .

وكان يخل الفندق يقع فى مهدان مثلث صغير يتوسطه نناء عتيق أقسه بالكائنات أحاطت به أشجار ضخمة تعردت أغصانها إلا من العليد المتراكم عليها كالزهر الأبيض ، وكان العليد با رال يفرش كل المسطحات عدا أرض الطريق التى لنفسه منها عجالات العربات التى أخذت تتعالب الواحدة لى ذيل الأخرى .

واستهوانى منظر الجليد البش يفرش الأرضة وأحسست به تحت قدمي كأنه العشيبة البيضاء اللينة وتفتت أبى أخوض فيه .

ورفعت رأسي إلى أبي وقتلت راجية :

— أريد أن أسير .

وبدا التردد على أبي وهو يهينني :

— الجو بارد يا سيهر .

وكان الجو بارداً حقاً .. ولكن المصطف الذي ضيخته إلى جسدي والإشرايب المصوني الذي لفنت به رأسي وأعلت به عنى قد صداً عنى سباط البرد ونحتني بالقدرة على أن أخوض لبارء بلا رجعة ولا خوف ، وكانت شحلة النشاط التي اكتسبتها من نومة طويلة صبيحة في الليلة الماضية بعد الجهد الشاق الذي أصابني من الرحلة تملؤني رغبة في السير فعمت ألق على أبي :

— السير سهلنا .

ولم يبد على « أبي » الانتعاش .. إذ كان أكثر ميلاً إلى الركوب ، ولكن خشيت من أن يشعرني بمعز سلاتي جعلته لا يتردد في قبول فكرة السير ولا سيما بعد أن عاد « الدكتور هاشم » يقول مؤكداً :

— المسألة لا تستحق الركوب يا عبد الهادي بك .

ولجأ إلى أبي وهو يرسم ابتسامة الاستسلام على شفتيه :

— أيركها .. أنا أيضاً أستطيع السير .

وبدأت أثقل قدمي في حشية الجليد المتد على الرصيف وأهستمت بتقبضة أبي تمسك بي في حرمي وكنته يخشى أن أسقط منه في كل خطوة أخطوها .

وغيرت الطريق .. ثم سرت على الرصيف الآخر .. وأبصرت العدائق تمتد على مدى صري .. جدائق جردتها اليد من كل مود أخضر .. وسكب على تيجالها الأحمر لونه الأبيض فلم يمد يصر منها إلا جدوع الشجر القاتية تنبت من سباط الجليد .

ولم يزل يد السير حتى وقتنا أمام بيت أبيي كبير ، واجتزنا عتبة

الباب المصم لنجد هموا مرش بالأسطة وجهر بالمقاعد كنه بهو داخلي لسكن خاص لا مختل عام للبيت ، وعلى يمين تلهو وقت واحد من هذه التشميسات الخطيرة المساة في لندن بالبنواين ، رجيل إلى " في أول الأمر أنه لابد أن يكون الطبيب نفسه ، ولكن لم البث أن رأيتته بتتقم في ادب بمصرف أو حجرة بتدابة ليسألنا عما نريد .

واجبته « الدكتور هاشم » بتساقلاً :

— الدكتور لفتار ؟

وأشار البواب الفلخر إلى باب على يسارنا .. فتتقم أبي يفسط زر الجرس ، ولم تلبث قليلاً حتى أبصرنا فتاة طويلة القامة ، حمرام الشدر ، بمشاة الوجه ، تفتح الباب بانسمة .

وقبل أن يتلقى أبي بكلمة .. سألته الفتاة بركة :

— السيد عبد الهادي المسان ؟

ولجأ إلى أبي :

— أحل .

— تفضلوا .

— سيئره الدكتور بوجوفكم .

وقادتنا إلى ركن في المهو الصغير قد اشتملت فيه بيران بخافة وقالت في ادب :

وبعد لعظمت مانت لتتوتنا إلى الدكتور .

وبحتت وافي إلى الهجرة وأنا أحس بدختت تلي تترديد وتعلو .

وماودني الإحساس بلوحشة والخوف الذي شعرت به وأنا ألق عارج المزار والبرد يلسعني والمطر يطرق وجهي .. سفت ألق لنفسي :

« لماذا اتيت ؟ » إلى لم أشك من شيء .. إلى راضية بمسائتي

مكداء ١١

وكان ابي قد اُخذ يسرد بهجرا لسير مصرى .. ولم يحاول ان انتبهه ،
متد كنت اكاد احفظه من نمرط ما سمعته منه وهو يسرده للأطباء .

وصبت ابنى .. وكثت السكرتيرة الحبراء الشعر المنبشة الوجه
قد جلست على ماعد منخلض امام مكتب الطبيب .. ولمسكت ورقة
وعليا وانخت تنوى الملهوظات التى يديها الطبيب .

وبرك الطبيب مكتبه واقترب منى ، ولم يصعب على " ان امير بسهولة
عرجا من مشينه .. وتذكرت بائع الصحف الأعرج لذي يقف بسنخل
المنطق ، وحيل إلى " ان الناس كلهم عرج ، وانه ليس على " من عرج من
مصرى ، ولم اعرف لم كل هذا الطلق على " من ابنى .

واقترب منى الطبيب ورئت ظهري من رفق ، وتمايل إلى اريكة
منخلضة من ركن الغرفة بجوار مكتبه .. وقال وهو يبتسم :

— أيمكن ان تتردى هناك حتى اننى عليك نظرة ؟

وكنت قد اعتدت كشف الأطباء ، حتى حنطه من ظهر قلب ..
منسهرت بك الشد وحطعت الحورب ، واستنطيت على ظهري فوق
الأريكة .

ولم يطل نحى السنيب لى ، ولم يفعل اكثر مما يعود أن يفعله من
غيره من الأطباء .

ونظر إلى " وهو يهز راسه ويرسم ابصاليته الرابطة على شفتيه
مثلا :

— حسن .. يمكنك ان تنهضى .

وعاد إلى مكتبه واخذ يثتر بقلم من يده بضع نفرات على المكتب ،
ثم قال لابى من ههه :

— اعتقد انه من الممكن إجراء العملية .

وهز ابنى راسه واجاب مؤكدا :

— نحن رهن إشارتك يا فكتور .

وكننت هناك

لقبني الطبيب الإنجليزي ببشاشة ورفق .. ، وتحدث مع ابنى برهة
ثم اخذ ينمى صور الأشعة الخلاء على مكتبه .

والقيت نظرة حنطية على الحجرة ، فلم اجد من مظهرها ما يوحي
بأنها عبادة طبيب .. كان انكها متيقنا فاضرا .. وبها مخفاة رغبانية
دقيقة الصنع ، رصت كتل الحطب من سلة جوارها ، ولكن جوفها كال
خالد التيران ، واستعفى من دفعه التوتود بدهاء الكهرياء ، واتلييب المياه
المالخرة .

وعلى الأرض نرشت معنى سجاجيد عجيبة ، وفوق الحائط علقت
لوحات زيتية لاتهار واشجار وحيد ورجل يبدون كالملاك أو الأطباء .

من وراء النافذة الزجاجية انصرت الطريق يتلاحق فيه الناس من
سرعة عجيبة ، كأنهم يسيرون من شريط سينمائي صلبت .. والجلبد
قد بدا من القويان وداسنه الأقدام ، فاختلط بياضه المصنع سواد الأرض
من كتل رمادية كأنها رغاوى العسل القدر .

وانتقل بصري من النافذة إلى وجه الطبيب ، واخذت ارقب شعر
حاجبيه الأسود الكثيف المنوى إلى اعلى كأنه مظلة فوق ميتيه ، وهطت
منهاى إلى الشرايين الدقيقة الشعر المتعرجة المنتشرة من انفه ، ثم
انتقلت من انفه إلى وجه ابنى .. وانصست بيمضى الراحة ، وأنا ارقب
الوجه الاليل المحسب إلى " .

معظم القدم ويصحبها عملية متصلة واحدة ، وتظل القدم مثبتة في وضع محير لا يمكن تحريكها منه بعد أن تثبتت عظام المفصل . وأعلم أن هذا يمنع القدم من أن تتدلى ولكنه أيضا يمنعها من أن تتحرك في أي اتجاه ، ولا أظن مشية الإنسان يمكن أن تكون طبيعية إذا لم يستطع أن يحرك مفصل قدمه .

وبعد أبي سانه وقد ثبت قدمه ، وإشار إليها مؤكداً — لقد حاولت أن أجرب السور بقدم غير متحركة . . فكانت مشيتي غير طبيعية .

ولم يضالك الطبيب بمسحه من الابتسام . . لم يكن بلا شك قد تعهل أن الأمر وصل منى إلى كل هذا المعلومات والتجارب .
وعاد أبي يشير بقلمه إلى الرسم الذي حطه أمام الطبيب وهو يقول في انهبك تلم :

— أيا العملية الثانية . . فهي ترريح وترخي من عضلات الساق الخلفية من عضلات القدم لتحل محل العملية الأولى المشدولة . . وتقوم مقابلها من تحريك القدم .

ثم حط بقلمه ابتداءاً لعملية الساق الخلفية من الرسم ولتتبع بعملية القدم مثلاً في لهجة بلؤها التني :

— وهكذا يمكن للوتر المرووح أن يحرك القدم .

ورفع الطبيب حاجبيه الكثيفين في دهشة . والاشباهة العريضة ما زالت ترسم على شفاهه : وقال مؤكداً :

— لم أتصور قط أن لديك كل هذه المعلومات ، ومع ذلك فلما مارلت تؤكد لك أنني « ضد » العملية الثانية بشدة .

ثم شطب بقلمه على الوتر الذي رسمه أبي .

ولم يستطع أبي أن يخفي معالم الضيق وحيرة الأبل التي ارتسمت على وجهه ، وتنبهت وأنا حائرة أن نهض وانصه إلى . وأؤكد له أني سعيدة بأي شيء ، وأنني أشعر بما قلته لي هو نفسه . . إن كل شيء يهون عدى ما دام حي .

واحسن الطبيب بالأم أبي وقال له في رقة :

— تبدو قلنا ؟ !

ولم يجيب أبي ، وهز الطبيب رأسه وانصاف في اسف :

— ولكن هذا هو ما أراء .

ونظر إلى الساعة .. وبدأ كان ساقطة أبي قد أخذت من الوقت أكثر مما قدر لزيارتنا .. مما جعلنا نجور على صاحب الموعد التالي .

واحسن أبي أننا لا بد أن نصرف ، ولم يجد محس للإمرار على أنفاسه .. بعد أن أصر الطبيب على رايه .

ونظر الطبيب إلى سكرتيرته ثم إلى أبي ، وقال في لهفته الهائشة :

— سنحجز لها حجرة في مستشفى لندن .. على أن تكون هناك بعد

ظهر يوم الأربعاء .

ولم يبد أن هناك شيئا يتدل بعد ذلك .. ومد الرجل يده لأبي مصافحا ، ثم ربت ظهرى في رقة وهو يبتسم قللا :

— سأراك يوم الأربعاء .. إلى اللقاء .

وخرجت وأبي .. وقد بدأ عليه الوجوم والشروود .. وتحتلنا

للسكرتيرة ثالثة .

— يمكنك أن تنتظرا لحظة حتى أحضر لكما ورقة المستشفى .

وانجسما إلى ركني البهو حيث ينتظرنا الدكتور هالم .. ولحظ الرجل

وجوم أبي ؟ فكتبل عليه يسأله في دهشة :

— خير !!

وحاول : أبي ؟ عينا أن يرسم على وجهه ابتسامة ما .. واجلب

الرجل في قلبي :

— يصر الطبيب على عملية .. لا اعتقد أنها ذات فائدة .

ثم أطرق وانصاف كأنه يحدث نفسه :

— ثم أطلع كل هذه المسألة لأجد لها قنبحا .

ولم يفهم الدكتور هالم ما يقصد أبي .

فقال بمسأله :

— ماذا حدث ؟

وقص : أبي ؟ عليه باختصار ما حدث بينه وبين الطبيب .. ولم يكذب ينسئ من شرحه .. حتى بدت الحيرة على الرجل .. ولكنه ما لبث أن قال لأبي في لهجة حازمة :

— إذا لم تكن مقتنعا به .. استشر غيره .. ليس هناك ما يقيدك به .

وقبل أن يجيب أبي .. أقبلت السكرتيرة تحمل ورقة لدخول المستشفى وهي تقول :

— الساعة الرابعة يوم الأربعاء ستكون الحجرة معدة لاستقبالها .

وقبل أن تنصرف الفتاة .. سألها أبي .. والصيق ما زال يملأ معالم

وجهه :

— أرحم منك أن تبلى الدكتور .. انى أريد العملية انى يصر

هو على ألا يقوم بها .

وبدت الدهشة على الفتاة .. ولم تعرف كيف يسكن أن تلج الرجل

ملى مريضا يريد أن يقوم بما هو مصر على ألا يقوم به .

وهزت رأسها في تردد وحيرة .

— إن لديه زائرا .. ولا أعرف كيف أبلغه .. أكثر من الأشهر ...

وتدل أن تتم قولها .. ففتح أحد أبواب البهو وأطل وجه أحمر مبتلىء

لشباب شخم الجسد .. وبدأ كأنه قد وضع حدا لحيرة الفتاة ، فعدت

هتت ثالثة :

— هذا هو الدكتور روبرت .. مساعد الدكتور ابنتاز .. أظن من

الأفضل أن يبلغه ما تريد .

وله يترك أبي الفرصة فأنجه إلى الرجل .. ولمى كلمات واضحة

مختصرة انشئ إليه بالمشكلة .

وبدت الدهشة والحيرة على وجه الطبيب الشاب .. وقال لأبي

في رقة ولهم :

— من الناحية الإنسانية أقدر مشاعرك كآب .. ولكنى لا أعرف

وجهة نظر الدكتور ابتزاز في معارضته للعمليات الثابتة .. ربما لشكه في قدرة العملية المزروعة على تحريك القدم .. فالمسألة كلها متوقفة على مدى الشك في عقلات سائقها .

وصبت الرجل بفكر برهة ثم هز رأسه قائلا :

— على أية حال .. سأنتقل وجهة نظرك للدكتور .. وإذا اتصلت في في التلفزيون صباح الغد .. سأخبرك بالنتيجة .

وتركنا عيادة الطبيب ، ولم يفلح حديث الطبيب المساعد في إراحة أبي .. إذ لم يخطر بباله أن الطبيب الكبير سينتازل عن رأيه .

وأشكر أبي لإحدى عربات الأجرة ، واستقر كل منا على مقعده ، وقد بدا علينا الشroud ، وكان أول من نطق صاحبنا الذي هبطناه هنا .

قال الرجل محاولا أن يخفف عن أبي :

— لا تعجل هيا .. هنا عشرات الأطباء المهرة ، الذين قد يرون في المسألة وجهة نظر أخرى .. ليس هناك ما يربطك به .. نستطيع اليوم بعد الظهور أن نعرضها على طبيب آخر .

ولجأ أبي في شيق :

— صور الأشعة والتحاليل كلها عنده .

— فلفظها منه .

وهز أبي رأسه في حيرة :

— إذا كان رأيه هكذا وهو فيما سمعت من أكبر الأطباء الاختصاصيين .. فما الجدوى في التفتل من طبيب إلى طبيب ؟ !

وأطرق أبي وهو يتولى كالمحدث نفسه :

— على أية حال لننتظر إلى الغد .

ثم رجع رأسه إلى " وهو يحاول تكلف الابتسام قائلا :

— لا داعي لأن نخبرك بما حدث .. لا أريد أن أدخلها في تفاصيل لا تفهمها .. ولكنها تسبب لها المزيد من القلق .. إلى الفضل

إن تعرفني أنت كل شيء .. أفنك لا تحتاجين بعد كل ما سمعت إلى مزيد من الشرح .

وهزيت رأسي علامة الموافقة ، دون أن أتيسر بكلمة واحدة .

كان الأمر يتساقط عندي .. هذه العملية لم تكن .. ما كنت لا أتلم .. المهم عندي ألا يتضيق أبي ولا تنزعج أمي .. ومن أجل ذلك أحسست أن أبي أحسن عندما منعنا نوي ألا يخبر أمي بكل تلك التفاصيل التي أزعجته ، ما دامت المسألة كلها بالنسبة لها عملية جراحية .. بكل ما فيها من مخاطر ومخاوف .. فليس هناك ما يدمو إلى تحميلها المزيد من الوسواس والأوهام ..

ولقد انتهت لو استطعت أن أجنب أبي ما يمتحيه من شيق وقلق .. ولم أكن أملك سوى إهشلية شاكرة . ونظرة حنون .

وأحس بما أعنيه بالتصامني ونظرتي غربت يدي برفق ، وقال وقد حاولته بمضى لفته وإيمائه :

— إن شاء الله كل شيء سينتهي إلى خير ، وتعودين سالمة سميكة . وعقب الرجل الطبيب الجالس بجوارنا قائلا :

— تعودون كلكم تترى العين مجبوري الخلف .

وقلت « لأبي » وقد أحسست أن مصيب الألم قد أحدث نقشع من حولنا :

— سيكث في سويسرا برهة للارتقاء على الجليد .

ورد الدكتور هاتم ضاحكا :

— هكذا مرة واحدة ؟ أول ما تشطح تشطح ؟

وروصلنا إلى الفندق واستقبلتنا « أمي » في طلق ولهفة ، وقال لها « أمي » بالتصامني الواتكة ولهجة المبلتة وقدرته المحمية على طي

المخاطر في بطنه :

— كل شيء على ما يرام .. لقد قرر إجراء العملية .. وسنذهب إلى المستشفى يوم الأربعاء .

وكنّا في يوم الجمعة .. وكان علينا أن نقضى خمسة أيام من التلق والانتظار .. وعبرت أمي عن إحساسها بقولها وهي تتندد :

— ظننته سيغوم بها غداً أو بعد غد .. لماذا لم يجعل حتى ينهين
.. وفروع البلاد ولا انتظروه .

وتجاوبتها السيدة « لطيفة » ضاحكة :

— ليس بلاد .. بل شفاء إلى شفاء الله .. كلها أسود على وتقوم
بالمسألة .

ثم بنت يدها مودعة وهي تقول :

— موعدنا إلى المساء إلى شفاء الله .. سير عليكم ابني إبراهيم
لاخذكُم بالعمرة .. كتبت لكم عنوان البيت ورقم التليفون من باب
الاحتياط .

وقالت أمي في لهجة شكرية :

— لا ضرورة لكل هذا التعب .

والكيل أمي قولها :

— إننا نستطيع الوصول بسيارة أجرة .. لا ضرورة لأن يتعب
إبراهيم .

ورد الدكتور حكيم في لهجة لامية :

— لماذا كل هذا التكليف .. إبراهيم سيكون قد أنهى دراسته الثانوية ،
والعمرة جاهرة .. ولي تمنحه أن يحضر لأحدكم .. السلام عليكم .

وانصرف الزوجان الطيبان .. ويغيبنا وهذا .. يبدأ أمي نوعاً
من التثرثرة يستمر بها اللصيق الذي نمتلكه بجانبه حتى حد موعد العشاء
فهيبتنا لتناولوه في بهو المطعم في الطابق السفلي .

وفركنا يدعيًا أنه ذاهب إلى السهرة لزيارة بعض الأصدقاء ولقضاء
بعض المهام .

ولكنني كنت واثقة .. أنه ذهب في أمر يتعلق بي . بلا أمشي أن
هناك شيئاً كل يمكن أن يشغل باله أو يسيطر على تفكيره سوى ..

بكل ما بي من مخاض .. ومفصلات ، حتى العملية التي كانت في حيا
ذاتها مخاطرة بمزجة .. قد يقل بها القدر .. وأبي إلا أن أصبح في
سبيلها المعقدات .

ومرت بسبع ساعات وأنا مستلقية في الفراش . أقرأ نثره
واشرد تارة .. وأمس كعابها دائماً بمهيك في ترتيب الحجرات والدوابب
وتشليل الضياء والمطبخ .. كأننا في بيتنا في دمشق .

وفق جرس الباب .. وأقبل علينا أمي .. وس نظرة جالطة لوجهه
استطعت أن أدرك أن مشكلة الصباح التي ألقته قد حلت .

لم أعرف كيف .. ولم أدر أن أسأله .. فقد كنت أعرف أنه قد
أحس المسألة كلها عن أمي .. ولكنني كنت واثقة من أن حلاً قد رفع
من كتفيه .. ليس كل الحبل بالمطعم .. ولكنه الحبل الإضائي للذي
وضعه الطبيب هذا الصباح على كاهله .

النحن على وضمي إليه في شوق ولهفة .. كأننا نلتقي بعد فترة ..
ثم جلس وأخذ يسألني بقوله :

— كيف قضيت الوقت بعد أن تركتك ؟

— فرائ .. وفكرت ..

— فرائ ماذا .. وفكرت في ماذا ؟

— تصفحت بعض المجلات .. ثم بدأت في كتاب من الكتب التي
أعطاهام في حشري .. كتاب شائق .. استطاع أن يحسنني إلى فراجه
حتى كنت أصل إلى نصه .

وبعدت بدى إليه بالكتاب فتصفح ثم وضعه جانباً وعاد يسأل :

— وفكرت في ماذا ؟

— في أشياء كثيرة .

— مثل ؟

— ما سألته في الأيام التالية .. قبل الذهاب إلى المستشفى .

— ووضعت بشرى ما ؟

— كثيرة .

— ندرسها سوياً ؟

— بل نلغها سوياً .. لا وقت للدراسة .

— إذن هاتين .. قولي .. أولاً .

— ألا استقر في الفندق لحظة .. يجب أن أعود سلفا الأيام
التي سارقتها في المستشفى .. فرصة أن أعود كل شيء قبل أن أركد .
ثم أخلت باثقة :

— من يدري . ربما لا تتاح لي فرصة السير بعد هذا .
ونظرت أبى إلى نى خفيق والزعاج ثقلة :

— براحك سفيك .

ثم تلتها بجهلها التلقيدية :

— أبستى من أمك سبع بصلك .

وأصرمت أتلذ وصيتها حتى لا يتملق المزاج .. ثم قلت موحية
القول إلى أبى :

— ستزور متحف المسيح .. بأريك ؟

— مولقى .

— وبرج لندن ؟

— مولقى .

— وسذهب لمشاهدة واجهات المحلات ولشراء ما نحتاج منها ..
أريد أن أشتري سترة شيواء .. و ...
وخضك أبى وهو ينهمس :

— هذه بشروعات من اختلاصك أمك .

— تنزل وحدنا في شوارع لندن ؟ لتحسن الظن بأبى إلى هذا
الحد ؟ !

وقال « أبى » يملطا :

— سيكول محكما وأمرى إلى الله .

وكانت الظلمة قد خيمت قبل أن تبلغ الساعة الخامسة . ولم يكن
النهار يميز الملامح بضوءه الرمادى الشاحب .. وقبسه المسائمة وراء
ستار كثيف من السحب ، ومصابيح الكهرواء المصينة أبدا داخل الدور
.. والتي يعجز الضوء المنسلل من النافذة عن تبديد أشعتها الموحية مليل
بتواصل لا تشرق له شمس .

وانتهيا من ارتداء ملابسنا استعدادا للعشاء .. ولم يطل انتظارنا
حتى حق الجرس والكل ننى حوول مؤدب لم نشك عى أنه « إبراهيم »
.. ودعانا للترول .

وكانت الملح بطرات الرقة وإبشابات العطف من كل وجه لقاء ..
مابل المسعد والبوب وسائقى الناكسى .. كلهم كانت اعتبر نى نظرم
إنسانة ميمرة .. تستحق نوعا خاصا من التكرم .. بسلاتها العرجاء ..
دات القمص العتيدي .

ولم أضق تلك المعاملة الميمرة .. على الرغم مما نوحى به إلى
من أحساس بالقتص أو المحر .. فقد كانت يمدتها وبعدها من التكلف
.. أقدر على أن تشعرنى بحب الناس لا أن تشعرنى بعمجى .

وبعد جولة في الشوارع المبهمة أبدا .. حيث يتلاحق الناس كلهم
انراس سبقي لا يطفون ولا يتهلون .. توقفت العربة أمام أحد تلك
البيوت التي لم أحس أن مطرها غريب على عيني من فرط ما رأيتها
في أفلام السينما ، البيوت الريادية المتحلورة المتشابهة التي تقضى إلى
أبوابها يسبح خرجت خالرجية .

أترانى في حاجة إلى أن أصابك البيت .. وأذكر لك تفاصيل
العشاء ليبلنداك .

أنت تعرف جيدا .. سلمه الحجري المرتفع .. وطرايزله العتيدي
العتيق الذي يقولك إلى الطابق الثالث ، وكأنه الحامس أو السادس من
عوط ارتفاع الأدوار ، يترك أنفاسك تتلاحق كذلك تصعد إلى السماء .

تعرف حجرة الجلوس ذات المائدة المستديرة التي رصت عليها
صعاب الطعام وجهاز الراديو بجوار الحائط والإريكة المصنعة والمغدة
الزجاجية الكبيرة المنخفضة والجدران المغطاة بالورق المزخرف .

وماذا أيضا ؟ !

أذكر أشياء كثيرة بدخا .. كلنى أراها في أمسى القريب .. ليست
أدري لى !

لأنها لأزمت أول لقاء لك ! !

ولكن أنت نفسك لم تكن تسمى — ولا كل يملكك أن تسمى — وتنداك شيئاً لدى .

ولا أظننى كنت فى مرحلة عمرى .. وفى أزمة برعى ذلك .. أهلا للاندفاع بأى إحساس ماعلى يمكن أن يحفل من التماسيل المألوفة ذكرىك مخيلة لا تضبو على مر الزمن .

ومع ذلك لا أستطيع أن أتكرها .. وهى موجودة بتفاصيلها فى الذاكرة .. مجرد أن المنطق لا يجد لهاها مجرأ ولا سببا .

لم تكن ونحن الصوب الذين ضمتهم الحفرة الشيقة الدائنة . كانت هناك الدناءة دلت الوجه الحاد والملاحج العصية التى لم تنطق بكلمة عربية واحدة خلال حبيبها إلى « أبى » رغم أنها احبرتها مرة أنها لا تعرف الإنجليزية .. وكان هناك ذلك الرجل الذى أجرى عملية فى حنجرتة .. والذي كان يتكلم بصوت مبهوح . وكان هناك .. أنت !!

أو كما كنا نسيك — مازحين — فيما بيننا « هدى » ابن أختى .. كما تصر على أن تفاديك « حلفتك لطيفة » .

وكان واضحاً أن « خالطك » محورة بك ، بطريقة جعلت من المسألة سماً للكتابة بيما .. وجعلتنا .. كرد فعل لماضينا فى التماخر بك .. ترى نيك شيئاً لا يستحق التماخر .

وليك أن تعصب مى إذا قالت لك .. إبنى أجدتك فى تلك الليلة مأخذ السحرة .. بحيثك الشخيد .. وفوقك المفرط .. واحترامك للتناس احتراماً لا يمر له .

لم أهدبك لينذاك .

طبعاً كنت سبغمة .. ولا ألوم نفسى بقدر ما ألوم تلك المس التى تضفى على تفكيرنا أكبر قدر من السخافة . ولكن عندما أتصورك الآن ، أهد نفسي على استعداد تام ، لأن أهدك .. فى أى س .. وعلى أى حال تكون .

ألا يبنى هذا تكثيراً لسخافة تفكيرى وسوء تقديرى لك وتنداك ؟ !

لما هى مشارك أنت نحوى تلك الليلة .. فلا أظنها كنت أكثر من إحساس بالشغلة لثيرة فى نفس كل من ألقبله .. فحسباً ينزل النصر من وجهى إلى سالى .. ويصمصص بشغته ويسأل حاله يقول : « خسارة » .. كالتى النعمة المكسورة .

لا تنكر أن هذا كل إحساسك .

وحاشاى أن أكون من السخف والغرور بحيث أطبع فى أكثر من ذلك .

وأكنت كثيراً تلك الليلة .. لقد سمعت « خالطك » أن تعدق على — بكل ما حملت به مثقتها من أطعمة سورية ومصرية .. بما فيها من « الكيبة » و « المستمة » .

وانتضى أبى ركناً مع روح خالطك .. وكنت أعرف أن « الدكتور هاشم » سيتحدث معى فى مشكلة الصباح .. فأصغيت السمع جيداً .. وحملت أذع مألوفة فى مى .. وأذنى تلتقط الحديث الهامس الدائر بين الرجلين .

قال أبى :

— ذهبت بعد الظهر إلى السفارة .. ولقيت بعض الاستقاء وشرحت لهم المشكلة .. فأمر الجميع على أن أعرضها على طبيب آخر .. واتصل أستاذ حياى بمعاداة الطبيب لكن يستلزم من وجهة بصره ويستأذنه من إكمال استشارة بعض الأطباء .. ورد عليه بمساعد الطبيب .. وعاجاه بال طبيب تد وافق على إجراء العملية الثالثة .

وسمعت « الدكتور هاشم » يخاطبه فى فراح :

— حسن جداً .. هذا خبر طيب .

ولكن أبى أطرق وبدأ عليه الشرود ثم واصل حديثه قشلاً :

— يخابرسى بعض الأوقات إحساس بالخوف .. وأسأل نفسي لماذا أصرت على العملية رغم أن الطبيب أصر على أنه ضد إجرائها .. ألم يكن من الخير أن استمع إلى نصيحته ؟ !

— على أية حال .. لا أنش الرجل سيجري العملية مد رغبته ..
إنه لن يجرىها إذا لم يكن مقتنعا بها .

.. هذا هو ما يطمئن بعض الشيء .

وربت الرجل ركية أبى .. وقال وهو يرنح الكأس إلى شفيه .

— توكل على الله .. أبعد من نفسك الوسواس .

واقبلت « خالذك » فطمت حديث الإثنين بقولها لأبى :

— ماذا ستفعلون غدا ؟

— سأحاول أن أخرج سوبر لأريها متحف الشمع .

— هدى أبى أختى ليس لديه ما يعطه غدا .. سهر عليكم

مأعربة ويذهب بكم إلى المتحف ويرىكم معالم المدينة .

وحاول أبى أن يرقى شاكرا ، ولكن إلحاح « خالذك » كان أقوى

من رغبته .

وعندما إلى البيت .. وقد رسمت لنا « خالذك » اللقاء الثانى ..

دور أن نسمى إليه ، ودون أن تكون له وقتذاك أية قبة .. ولكن ذكرياته

.. ما زالت باقية فى نفسى .. جبيلة .. جبيلة .

وساوس .. ودعوات

كان واجبا عليك لأبد أن تؤديه إكراما لخالذك .

لا تحاول أن تكتب وتدعى أنك أقبلت عليه برغبة واستمتاع .

إياك أن تنكر أنك رغبت فى أن تصيفه إلى الحسنيات التى مستحسب
عليها فى النساء إلى جانب الأعمال الطيبة الأخرى التى قيمت بها للمجرة
من أمثالى .

ولن أحاول أبدا أن ادعى أنني استمتعت بمصحبك ، ولكن لن أنكر
كذلك أبى استمتعت بالرحلة السريعة عبر المدينة تحت طشرات المطر
المتهمر .

تركنا الفندق معك قبيل الظهر .. الظهر الذى لا وجود له ..
واتجهت بنا يمتة فى طريق قريب من حيادة الطبيب .. وكلى المطر
يشهر فى رذاذ جفيف غير منقطع ، وغيباب سماف يلف الدور والشجر
والناس ويسرى بينها فى خفة كأنه الأتلس .

وطرقت باب متحف الشمع .. وبدأت تقوم بطور الدليل .. وحاولت
أن تدو أنك تعلم كثيرا .. وأنت كبرياؤك أن تترك « أبى » يدع تدانكر
الدخول ، وصعدت بنا إلى الدرج .. واكتفت لنا أن الحارس لم يكن
أكثر من شلال .. رغم أنه يبدو ككتل حتى .. لمى كل خلجة من خلجات
وجهه .. وكل لبنة من لبنائه .

ومدنت يثك لتعجس نواحه .. أمّا بالليل يلتفت إليك ويترسم
في رقة قللا :

— في حديثك يا سيدي .

وأمر وحبك .. وتعلمت وتعرفت ، وأنت تنسب أن ما كنا نطه رحلا
.. وحاولت أن نقتنا أنه مجرد تبال ، قد انضح أنه رجل لعل ..

ولم أبك نفسي من الضحك .. وقتت لك في سفري :

— عجيب !! إنه يتكلم ويترسم !

وقلت نلهم ممترا :

— عجيب !! كان في موضعه تبال يثه تبالا .

وعلى بسطة السلم الثانية .. بدأ حارس آخر .. وأصغتك القول
أي لم أعرف إلى كل تبالا أم رحلا .. وكل علينا أن نأمر جميعا أن
يسم .. حتى شحك الحارس الحقيقي .. وتال مازحا وهو يشير إلى
التبال الذي يقف على السطة الثانية :

— أنظر أن هذا الزميل هو الذي كنت تقصده أولا ؟ !

وطما بلرحاء المتحف ورائنا العظباء .. كأنهم يتكلمون بلحهمهم
وشحهم .. وانتقلنا إلى الحناج التاريخي الذي يمثل أفراد الأسرة
الإحصارية المالكة بلزائم الانتخابية الملونة .

ورسنا إلى القو حيث المفصل والشتاق والماطر المحبة .. وبدو
أنك قد مالفت في تصوير الآثار المروع لملاطر التعذيب التي جسدتها
التبائل الشعبية .. فقد طما ملقو دوي أن يبدو علينا أي مظهر من
مظاهر الرعب الذي كنت تعشى منه لا سيما على " أنا ككتاة صعبة
عاجرة .

ولقد تمكنت ألا أجزع وأل استطع بارليت حتى أتحدى لملطك بهوي
وشفتك من .. لقد خبل إلى " وتلك أنهم شعور متكلم تمكنت من أن
لؤدي وأجبك نهو ضبوب " خافك " على أكل وجه .

وتركنا المتحف بعد أن بررنا سهو الملامى وتناولت بسك قطعة
الشيكولاتة والتي استمتعت بها رغم أنك حملت بها بني مجرد طفلة .

وانطلقت بنا بعد ذلك تنهب الأرض المثة وتطرات المطر تترع
سقف العربة وتلحدر على نوافدها ، ولم أحوال أن أير معالم المطرقات
بماتيا العجيبة التي تكاد تشمله جفرائها وأسقفها الدائكة المائلة
وربوس المداخن تطل منها برصوة كأنها عساكر الشطرج .. والأسوار
للدبذبة أسود حديد بأسفلها وتلف حول الدرجات المثانة أمام مدخلها .

كانت الكائنات تبر أمام بصري من خلال نافذة العربة المنداة بالمطر
.. وقد شرده في الدهس في العلية التي توشك أن تهري في ساني
بعد اسم قلائل .. وأحسست بالظوب يتسلل إلى نفسي من ذلك المحوول
أدى أوشك أن أخوضه ، ونوازت على ذهني صور متصصة ..
المستحسات بممراتها الطويلة وصننها المهيول ، والمبرصات يتسلل
من حولي كأنهم الأشباح النيس .. والطبيب مشرطه .. وحاولت صفنا
أن أطرده كل ذلك الصور ما لفته إياي " لي " من أن العيلة " شكة
إبرة " ثم صهوة يجد فيها المرء أن كل شيء قد انتهى .

ولمقت من هواشي وهوتك يهتف بنا :

— هذا هو الطريق المضي إلى قصر الملكة .. يسموه المول .

وانتت حولي لأجد طريقا واسعا .. امتدت على يمينه نية ضخمة
مترامية الأطرل لمع في وسطها ماء البهيرة .

وتوقفت العربة أمام قصر الملكة .. بمسورة الحديد الضخم ولحمت
من جلالة الحراس بقناعاتهم السود الكبيرة وسرراتهم الجبر يتحركون
كأنهم النجي .

ولم يطل بنا الطوفوف حتى انطلقت العربة تهوش الطرق المظنة
المشعبة تحيط بها أشجار مسحة سود البدوع حافة الفروع كأنها
لحطب .. وتوقفت بنا ثانية على شاطئ " التبر " وقد أرسمت بياهه
حس لوشك أن تنسكب على حافة الطريق .. وهذا الصلاء على طول
بدد القصر لا شيء يحجب بياه البهر والحصرة المنددة والأشجار
العارية .. والسكون يطنق والصمت موحش ، وصنع عربات وقفت

على حافة النهر وقد تنكش أصحابها يرتبون الألق النائم واليهاء المبسطة
تقرع ظهرها سباط المطر .

ولم يكن هناك شيء يشرح النفس ، وهزيت رأسك وأنت تدبر
العربة قتلا :

— في الصيف يصبح المنظر أكثر جمالا .. بورق الشجر وثبت
الأزهار .

وانطلقت بالعربة .. مرة أخرى .

وكان قد بقي من معالم المدينة .. مشهد الخمر .

وكان اللال قد بدأ ينطرق إلى نفسي .. وهبت بأن أطلب العودة
إلى البيت .. صديا توتلت في ميدان مليء بالحمام والنالورات والأسود
التحاسبية السوداء الرابضة حول العود المرتفع الذي يمتد إلى السماء
لهضى التلال المستقر على قمته .

وقفت باب العربة وقلت في شيء من الحساسة وأنت نهبط منا :

— هذا ميدان الطرف الأغر يتوسطه تلال نلسون .

وهبطت من رجاء العربة كما تعودنا في كل مشهد تتوقف ما
عنده .. وانتظرنا أن نتخذ مكانك أمام محطة القيادة لتعود منا إلى
التنفق .. ولكن يبدو أن مبيتك لم تكن قد انتهت بعد .. فقد وفت تشير
إلى أنواج الحمام الذي يملأ الساحة وقلت :

— الحمام يطعم الحب من أيدي الناس .

وبدا واسع لدى أن كسلنا ورغبنا في أن نضع داخل العربة لن
تكون شبيها لديك في الخروج عن برنامجك المرسوم لزيارتك وأدى يدخل
خمسته أن نهبط إلى الساحة لتطعم الحمام بأيدينا كما يفعل المثلث من
السعداء الذين يلقب الحمام على رؤوسهم ولكتابهم .

ولم يكن هناك بحر من الاستمتاع بلطعام الحمام .. وهبطنا من
العربة لجرد إرغائك .

وهبطت الدرجات الرخابية العريضة أجر سالى وقد حملت مدراع
في .. وأسرت أنت أماننا تصحكت الضخا ، كأنك تريد اللحاق بشيء ،

ثم عدت إليهم ولبه كلك الحب ومحدث بك إلى " وأنت تقول بغيا :

— ألا تريدني إطعام الحمام ؟

وشاؤلت منك الحب وبسطة يدي ولنا أحس ببعض الهوى .
وهبطت حبيبة على درامي وبدأت تلتقطه من كفى ، وعجأة أحسست
أنى سمحة .. وثبتت أن أشتري مزيدا من الحب لأطعم مزيدا من
الحمام .. ورليك تضع بعض الحب على رأسك فتهبط عليه حبيبة
للتلقت الحب من موثها . وضحكت أنا إلى حد الضهمة .. ويذوت أنت
سميدا لأنك أضحكى .. وأمركت لأول مرة أنك مظلوق حليف الدم
.. وأحسست أنك تقوم بشيء أكثر من مجرد تأدية واجب نحو حيوان
" حائك " .

ومعنا إلى العربة .. وكأنت تلوح الكلمة بيننا قد أخذت تطوبه ،
واطلق لسائك يتحدث في سهولة عن دراستك وعن حبيبك لمر ومن
أحتك " ناية الأدبية " التي تخرجت في كلية الآداب ومن رسائلها إليك
.. وعن أشياء كثيرة لا أنكرها ، وإن كنت أذكر اهتمامي بحديثك في
مجموعه .. حتى وصلنا إلى التنفق .

وشكرنا لك في إخلاص .. وودعتك في حرارة .

وكان آخر عهدي لك .. في لندن .

فلا أطيك تريد أن تحتسب زيارتك لي في المستشفى وأنا ما زلت
تحت تأثير الجحر وأنت تقولي في صورة مزفوجة ممتزة .. لا ألك أبزك
في " الدكتور هاتس " .

وكأنت حبيبة بشامري نوحك في هذا اللقاء الخلط في غربتنا
على بعد مئات الأجيال من بلدك .. أنك مظلوق مؤدب جلول
يسكن أن يكتشف الإنسان فيك غمة ديك بعد أن يرمع بينكما حساب الكلمة .
ولست أظنك تتوقع أن يبقى منك في نفسي — لجرد هذه المشاعر —
شيء ذو بلى .

لقد انطبست معاك في ذاكرتي .. ولا أظنني كنت أنكر منها كل

هذه التفاصيل .. لولا أنها أصبحت فيها بعد شيئا بتعطلت بك أنت ..
كأصغر معالم حياتي .. وأبرز أحداثها .

وسرت بنا الأيام القلائل التالية .. تبيل أن نذهب إلى المستشفى ..
سريعة حائلة .. فقد كانت علي ما تملكنا خلالها من قلق الانتظار وخوف
المستقبل المجهول .. يقلب علينا إحساس بقوة ما يبعثنا من روابط
وبقلعة على الاستنطاق مصحبتا معا كأننا نؤشك أن نحوض غبار لحظة
طويلة .

كنت أحس ذلك من نظرات أمي الطويلة التي لا تستطيع أن محس
الحزن الذي يملأ نفسها .. وفي خستها لي بين أونة وأخرى .. ضبة
ملؤها الحب والحنان .

وكنت أشعر بها في كل لفظة من لفظات أمي وكل نظرة من نظراته .
كنت أستيقظ في الصباح وكه بتحسس شعري في رفق وشفتاه
تتصسل وحده وصوته يهتف بي برت .. ومرح :

— صباح الخير .. والنور .. والجمال .
وأجيبه في نبرات خافتة منقطعة وأنا شبه مبهمة :
— صباح الخير .

ثم ألتفت عيني لأحد قد ارتدى ملابس غامسات في الزمراج :
— أنت خارج ؟
— أجل .

وترداد لهمني نفسا وأنا أقول :
— إلى أين ؟
— إلى حيث تريد .

— ستخرج معنا ؟
— طبعاً .

ويبعثني إحساس يقره وعصيته لحظة وإيلاً .. وأنهى لأرندى
ملاسي .. ثم نطلق في الطرقات ..
لم يعقنا برد ولا مطر ولا تلج .

سائق تطرق أرض الطريق .. ولزاع معلقة بجذامه ، طمنا
بشوارع لمس .. ودخلنا حواشيها .. واشترى لي كل ما طليت وما لم
أطلب .. وأكلنا الويس .. طعابهم الشمس المصبل .. كلفة بالمصبل
.. ولعنا بالويس .. غزولة مائل في الكواب من ورق .

وفي نهاية اليوم تعود إلى الفندق .. مخلص بالأكسيس الملية
بالمشريات .. تبدأ « أمي » مبعثها في الأرض والترتيب .

وقبل النوم يجلس أبي بجوارتي على الفراش .. ويخص علي ماذا
ينوي أن تفعله عندما تعود إلى دمشق .

وكل يقول لي كلاماً عاداً ، ومع ذلك كنا مستمع به ، فقد كنت
أحس أن لياليها بما تؤشك أن تنتهي .

كأن أكثر ما يقلق ، أمي سأبيت وحدي في المستشفى ، فقد كان
المبيت به مجزماً على غير المرضي .

ولست أذكر أنني كنت وحدي في حجرة بد ولدت .

كنت أبيت دائماً في أحضان « أمي » .. وعندما حصلت لي حجرة
منسلة .. كانت « حبيبة » تنام على أريكة في الحجرة ، ولم أكن
أفهم عيني قبل أن أطلب إلى وجودها .

ولم أكن أعرف كيف أستطيع أن أبيت وحدي . ولكن لم أحاول
أن أنقش الموضوع حتى لا أثير ضيقاً لأبي وأمي .
كنت قد عرمت أن أحمل كل شيء .

ولقد سمعت أبي في بعض مناقشات محاول أن يعد خلا لكي يبيت
مع أو أمي معي .. ولكن الجميع أكتوا له أن المبيت مستحيل ، وقالت
له الست « لطيفة » على سبيل بث الطمانينة :

— لا تفكروا عليها أبداً .. إلى الشريش في المستشفى بمذاق ..
ويتمكن أن تخصصوا لها بمرصة في الليالي الأولى من العملية .

ولكن المسألة لم تكن قدم الطمأن إلى الحجة .. ولكننا إحساس
مريض بالفرقة والوحشة .

وكنت أدرك ذلك جيدا من إحصاسي ، ومن وحوم أمي وشرودها كلها
أقبل الليل وطلب مذهبها .. أنها سمعود في الغد إلى الفندق وتخلطني
وحدي هناك .

حتى « أمي » بكل ما يملك من صلاة وقدره على إهداء بشامرو
لم يكن يملك إلا أن يليل جلسته إلى جوارى كل ليلة ليخسني إليه ،
وكأنه يوشك أن يحرم من شيء حبيب إلى نفسه .

وفي يوم الأربعاء رصت « أمي » أمتعتي في الحقيبة وحمل أمي
الكتب والاسطوانات والجرافوس ، وحطنا في المصعد الكبير لتذهب
إلى المستشفى .

ولم يكن المستشفى بعيد أكثر من بضعة دقائق عن الفندق ونظر « أمي »
إلى « أمي » ونحن نسير في الطريق قائلا :

— انطك تسطيعين بسهولة أن تذهبي وحده إلى المستشفى ،
لقد صمدت أن سزل في هذا الفندق حتى يكون قريبا منه بحيث لا تحتاجين
إلى أية مواصلة .

وكنت أعرف مدى إرضائك « أمي » في مجرد الانتقال من رصيف
إلى رصيف .. واخذت أضحك وأنا أحد « أمي » يصف لها الطريق
ويتلها على مكاني الانتقال من حانب الطريق إلى جانبه الآخر .

وحاولت « أمي » أن تتع حديثه فقدر ما تملك من دهر شاردي في
الأحداث التي توشك أن تخوضها .

ووصلنا إلى المستشفى وعبرنا مدخلها الماهر اللطيف .. وسلم
« أمي » خطاب الطبيب إلى حارس بقت بهجرة إلى يسار المدخل ،
وما لبث الحارس أن أعطى « أمي » رقم الغرفة .. وقادنا إلى المصعد .

وبنح باب المصعد الرطب واشارت لنا حارسته المجرور الرقيقة
بالدخول ، وعندما املتت الباب واستدارت إلينا تسألنا عن رقم الطبيب ،
بدا عرجيا واضحا ، ووجدتها تتاولتي ابتسامة زائلة بلأوها الشفلة ..
وقالت وهي تهب رأسها مازحة :

— يوم جميل .

وكان شمع شبل باهت من الشمس قد بدا خلسة من خلال
الخيوم .

وردت على ابتسالتها بابتسامة مثلها ، واجابها « أمي » موافقا
مؤن أن يبدو عليه الاقتناع :

— يوم جميل جدا .

ووقلت لأمي الطابق الخامس .

والتي على العجز الرجاء نظرة خيرة وأنا أفرغ المصعد ..
وعدت أفكر طبيبى الأمرج ، وسمع الصفح الأمرج ، وجبجبع العرج
الذين التقيت بهم ، وسألت نفسي : وبأذا علي أن أكون أنا أيضا
عرجاء .. لم كل هذا القلق والتصب والسفر .. والمخاطر التي توشك
أن نخوضها ؟

وسرنا في الممر الطويل ذي الجدران البيضاء والأرض المقطعة
بالمشع الأزرق والأبواب النية العريضة ، تقست عليها أرقام
الحجرات . تنخلع منها الممرشات ذوات « الحرايل » الزرق أو يدخلن
إليها في خطوات سريعة .. ومرت منا محور يتوكأ على عكاز - ويرى
يجر على فراش ، وخاتمة سوداء تحمل عينية .. وأشار لنا البعض
بكرة من رأسه ، أو ابتسامة من شفاهه ، ومر بنا البعض الآخر كأنه
لا يحس لنا وجودا .

وخيل إلى أن الممر الطويل لا ينتهي .. كل هؤلاء قابلتهم ونص نسير
وراء الممرشة النحيفة ذات الوجه الشبيه بالسكة ، حتى وصلنا أخيرا
إلى الغرفة .

واحصست بالمطابقة النسبية وأنا أوى إليها ، الممر الطويل العائل
بالممرشات والرضي .

ولم ألتك قليلا حتى أبجئت ملابس وارتديت القمص واستقرت
في الفراش ، وأخذت ألقب النظر في الحجرة الصيقة المستطيلة يتوسطها

الفراش فيكاد يشعلها شعلتين منمليين ولا يترك سوى بحر حبيق بين طرف الفراش والحائط يكاد يخطئ الإنسلي فيه بصموبة .

ولم يكن بالغربة شيء مميز .. حوص المياه من ركن من أركانها بحائل للمشمعة بجوار « ، وشموبير صغير سررة ومضخة انراج رصت « أسي » فيها المتأنف والملابس وعلمة بسكوبيت وشيكولانة ولحاح بدريطا ، وجوار الفراش منسددة عليها دورق مياه وإثاء به مسكر ، ومن الجانب الآخر منسددة أسفرت عليها التلفيوس ، وفي ركن العرمة المذبل تحرس المياه أسفرت دولاب صغير للملاسل .. ووضع بجوار مقعد مريح من القش .

وخلع « أسي » معطيه وسرته واستقر بجواري على مقعد صغير وجلست « أسي » على المقعد بعد أن نظفه لها « أسي » في الداخل أسهل الناندة .

ومرت مرحة صمت شردت خلالها أذهانتها في العملية التي توشك أن تجري ، ولم يلبث كل منا أن يلور أفكاره في سؤال يتسائله .. وكل أكثر ما يلفتني هو ما يمكن أن أتعرض له من أوجاع وآلام ، وكنت أول من عاد من شروده سائلة « أسي » للمرة الحقة :

— حقيقة لي أشعر بأكثر من شكة إبرة ؟

ورجع « أسي » رأسه قائلا في تأكيد :

— طبعا يا حبيبتي !

ومد يده بردت يدي في رقب قائلا :

— أتمرغين شكة الحقة ؟

— أجل .

— إن تهمسي بأكثر من هذا .. مجرد حقة تدمع في ذراعك ..

فتفرقت في سمات حبيق ، وتستيقظ لتجدين كل شيء قد انتهى .

— أعذا هو كل شيء ؟

— طبعا .

— لماذا يخشى الناس العمليات إذن ؟

— من الذي يخشاها ؟

— قبل أن تجري عملية الرائدة .. كانت أسي تجلس عليك معها .

ورد « أسي » ضاحكا وهو ينظر إلى « أسي » وقد أحطت ترتينا بنظراتها الشاردة :

— أمك يا حبيبتي تخشى علينا من أي شيء .. حتى من عبور الطريق .

ومسحت ولحسست أن عيود القلق قد مدحت من بسى ولم أشعر أن هناك ما يوجب الوجود أو الشروع .. نظرت إلى « أسي » أحاول أن أبعد ما يعترينا من حبيق .. وسألت :

— ما لك يا أمي ؟

وهزت رأسها تقول :

— لا شيء يا حبيبتي .

ولكنها لم تثبت أن أخرجت قلقلها في سؤال وهنته إلى أسي :

— أظن أنه لا يوجد أية خطورة من البنج ؟

وسألت « أسي » في شيء من الضيق :

— خطورة ؟ !

وردت « أسي » وما زال الوجود والقلق يرتسمان في ملامحها .

— أجل .. إن أكثر ما أفضاء في العمليات .. البنج ، ولكني

سمعت أن البنج هنا أفضل أنواع البنج من العالم .

وكنت أعرب أن « أسي » قد غلق بذهنها ما سيسببه ذلك برء من

موت أحد المرضى في غمرة العمليات بسحر أن سرى السج في عروقه ،

وكانت أسي دائما تلتقط حوادث الحظر لتقيس عليها كل ما يصانفها من

أحداث .

ولم يعد « أسي » ما يدعو إلى العوض من مناقشة معها بل يؤكد لها

أن حادثة أو حادثتين من البنج لا يمكن أن يقاس عليها . عند كلته « أسي »

بشقة الإقناع بتأكيدها أن البنج هنا من أفضل أنواع السج في العالم ،

ولم يجد « أسي » أسهل من أن يؤكد لها قولها :

— أجل .. إلهم يستوردون البعج في أمريكا من هنا .. لا يمكن أن تكون به خطورة أبدا .. أطمئن .

ولم يكن قد بقي غير « أبي » الذي لم يفلس بعد من وسالوسه . ولم يلبث حتى جذب شبيها طويلا أخرجه من شبيدة أطول وقتل في شبه دعاء :

— إن شاء الله تنجح العملية ، وتقومين بالسلاية ، وتجنسين كالفرس .

وكان هذا هو ما يهمل رأس « أبي » ويشغل تفكيره في كل لحظة ، وكنت أعلم أن قلقة قد تضاعف بعد ذلك الصباح الذي التقينا فيه بالطبيب عندما أمر على أن يقوم بالعملية التي رأى أبي أنها لا ترعى إلمه في الشفاء للكليل الذي يمكن أن يحقق أميته التي عبر عنها مساندة يرغبته في أن يرآني أخرى كالفرس .

ولم يخف من قلقة مولدته الطبيب على أن يقوم بالعملية التي يريدنا ، بل لقد حملته عبثا جديدا جعله يحس أنه المسئول عن أي إخفاق أو خطورة قد انخرض لها نتيجة العملية ، على الرغم من ثقته في أن الطبيب لم يكن يتبل إخراجها دون أن يقتنع هو نفسه بملكل إجرائها . ولم يبق إلم « أبي » إلا أن يدعو الله من قلبه مالا يحسدله ومن يجزي ضمينا وصبرنا خيرا ..

ورفعت « أمي » بصرها إلى السماء ، ورددت قول أبي داعية :

— يا رب أنت كريم .. تجعل ضمنا بديلة .

وقبل أن تحنس رأسها بعد هذا الدعاء ، طرق الباب وأعلنت « لطيفة » بفحكتها المرححة و « الدكتور هاشم » بامضائه الطيبة .

واستطاع الاقترار أن يبدد سبب القلق ، وجو الدعوات الذي كان يفهم علينا ، واستمرقنا في حديث من التوادد والاتفاصص . حتى انفلت علينا الممرضة النحيفة التي ارتدنت في اللرائش نضعها ممرضة أخرى وظللت من الجميع أن يتركوا الغرفة لفترة .

واما بين الخوف ، وسكنت مما ينويان عمله في .. فاشجرت الممرضة « أبي » أنها سيدان سائل للعملية .

وظللت من « أبي » أن يبقى معي ، فقد احسست بحوب من الممرضين وويل « أبي » مترددا . وسأل الممرضة النحيلة في ادب :

— هل أستطيع أن أبقي ؟

وهزت الممرضة رأسها وأجابت في لهجة جافة

— لا .

— ربما استطعت أن أساعدكم .

وأجابت الممرضة في صرامة :

— هذا عملنا .. ونحن نعرفه جيدا .

وريت « أبي » ذراعي في رقبتي ، وقال :

— لا تلتفتي شيئا باحييتي ، أن يفعل أكثر من أن يدهم سالك بهرم

وبلعاتها شش .. أن يؤك أي شيء .. وسألف خارج الباب .

وكلي على أن أستسلم .

ونظرت إلى الممرضتين في شيء من الدهشة وعما تجدان عيني

معلقتين مابى وهو يخاف الغرفة .

وكنت أشعر بطبائنة عجيبة عندما أجد « أبي » بجواري ..

كنت أشعر أنه يمكن أن يذرا عني أي ألم .. وبحيى من أي أذى ،

وإذا كنت أبا هوايته المحبة فقد كل هو بمعث الأمل لي .. كال ملاذ

.. الواقى ، ويلجئ الأمان .

كنت أهب « أبي » وأعجب بعائلتي .

ولكني كنت أحس لأبي شيئا غير الحب والإعجاب ، كنت أحس

بالحاجة إليه والإرتباط به .

وانتهت بهمة الممرضتين ، قامت إحداهما بتليك سائى وفارقتها

الأخرى في ربطها بالسلكى ، ولم نلتا حتى تركنا الغرفة ، وعاد أبي

ولس والصبلان .

وبدأت انتظر إلى الساعة في قلق ، وسألت أبي في شبق :

— متى ستهبون ؟

ودون أن ينظر إلى الساعة قال لي بلسا :
« ما زال الوقت مبكرا ، لن نتركك حتى تنهي .
وسأنته لاستوق من وعده :

— حقيقة .. لن نتركك ما دمت بقطي ؟ !
— أجل يا حبيبتي .

— حتى ولو ظننت بذلك المبرسة الرجل ؟ !
وقالت « لطيفة » تحاول طمأنتي .

— بوعده الاتصاف هنا الساعة الحادية عشرة .. وسنمطت
المبرسة قرصا بنوما قبل العاشرة ، وستأبين قبل أن تتركك .
واقصاف « أبي » يؤكد :

— وتأبين نوما هادئا ، وسكون عنك قيل أن تستقيظي . كأنما
تد نماعك .. ما راك ؟
وقلت بأسية :

— إذا كان الأمر كذلك .. قل أشكو شيئا .

وعندنا إلى الحديث لتعلم طرقات جديدة على الباب ، وأثقلت
ممرسة الفتيلة : سيدة طيبة الملامح . رقيقة النسبة ، وحيضا في لب
قائلة وهي تنظر إلى الساعة :

— أفضل أن تتركوها لتسريح

وبذا الانزعاج على ملامحي ، واجابها « أني » وهو ينظر إلى « مطينا :

— سنتركك معها حتى تمام ، لن نغوم بأي إزعاج .

وردت المبرسة قائلة :

— سأهبط لها قرصا بنوما حتى تسريح .

وبعد برهة عادت بالقرص ، وشكلته ، وبذات أهس بالسرعة ،
يسري في ماضلي ، وتندمت .. ولم أشعر بعد ذلك إلا بأني يثقل على
في الصباح ، ليوظني كما تعود أن يفعل .

عملية هينة

لم يستطع أي نوع من أنواع الأحاديث أن يبدد القلق الشديد الذي
أحد يشد أعضائنا ونحس نحس من انتظار بدء العملية بين لحظة وأخرى .

كأن جميع من الزوار قد بدءوا يتدوون تباعا واستقر معظمهم في
الحرارة معا ، وحس البعض الآخر الذين لم يسعهم المكال . في غرفة
الانتظار .

وكن يسود العزلة هو بمفعل من الفرح ، وحاولت « أنظمة » بكل
ما ملك من قدرة على التبريح أن تحدث دهن أي نحوها حتى لا تصل
لي ببدءا بخاؤها وأوعاها .

— وبعدين معاك يا عطمة .. والسى سلبية مادي الله .

وستسم أي انفساية صحر واستسلام وتنتهد قائلة .

— ربما يسبح منك .

وكن أبي يروج ويفقد بين الحرارة وبين الزوار الجالسين في
حجرة الانتظار ، ولقد ودعت لو استقر معي ، فلقد كانت ابتسامة
الصلابة .. التي تمنو ملامح وجهه الصرامة القوية تمنعني إحساسا
بالطمأنينة .

وبذات أضيقت بقلق الانتظار وبجو المرح المتعل .. ويكلمات التهذبة

وابتسابت التجميع حتى انزلت الممرضة تحمل الحقنة .. وظهرت إلى أبي ثقله في لجة صلبة :

— تفضلوا إلى الخارج .

ومساءل أبي وهو يغالب انزعاجه :

— استنظونها إلى غرفة العمليات ؟

ونظرت الممرضة إلى ساعة معلقة في صدرها قلقة :

— ما زال لدينا ساعة .. سمعناها الآن حقة ميذنه ولا تريد ان يزعمها أحد بالحديث حتى تساعدوها على النوم .

واحصست ان ثقات قلبي تتلاحق .. وأنا أحد الناس يتسللون من حولي وفي عيونهم نظرات أمي تطل من وراء الإنشابات التباهية التي تملأ شفاهم .. وأحد الحجر قد حلت إلا من الممرضة ذات الوجه الأحمر والمينون الزرقاوين والوجه شبيه بالسكة .

وأمكنست درامي وثقلت فيه بيرة الحقنة .. ثم سحبتها بعد لحظة وخلكتها بقطعة في يدها ، ثم رسيته على شفتيها ابتسامية مطمئنة .. وربتت كفتي بحلة وثقلت وهي تقادر الغرفة :

— استرخي .. وحاولي ان تنامي .

ولم تكن تعلم الحجر حتى انزل أبي يسترق الخطأ ومن ورائه أمي تطل برأسها وقد بدأ على وجهها الجزع .

ولم انبأك نفسي من الانشام .. وانمكنست انشامتي على وجه أبي .. وانفجرت أسنيريته وثقل وهو يمسك يدي في رفق :

— كبله الحال ؟

— كما أنا .

— ألم تشعري بالخمول بعد ؟

وهزرت رأسي بالثبات .. وقالت لأمي وأنا أرى الحرير يتجسد في معالم وجهها :

— ماذا بك ؟

وهزرت رأسها وهي تبس في شرود :

— لا شيء .

وتلكني إحساس بالمعطف عليهما وهي تروح تحت عبء أوهامها ومفارقتها فقلت لها بتفاهكة :

— أنا بخير .

— دائماً يا حبيبتي .

— لماذا لا تفصكين إذا ؟

ورسيت على شفتيها ابتسامة اقرب ما تكون إلى آهة العزير أو صرخة الألم .

ولم أحاول أن أثقل عليها بزيد من الحديث لا سيما وقد بدأت أحس بأطرافني تسترخي ويلخول يدي من انماه حسدي وتركت جلتي يتسدلان على عيني وسمعت صوت أبي يهيم بي :

— تعالي .. دعيها نائم .

ونفخت عيني وأنا أسمع وقع أقدامها يتسللان خارج الغرفة وقلت لهما :

— لا .. لا .. أنا غير نائمة .

واستنتيتيها في الغرفة فقد كنت أكره ان اترك وحيدة .

ومع ذلك فقد غفوت .. لاستيقظ على صوت حركة في العربة .. ولابد الممرضة — التي عرفت فيما بعد ان اسمها : أسل — وقد صحبتها ممرضة أخرى ورجل بمريلة بيضاء ويجوارهم « أبي » .

واحصست بأن جلتي قد جف ، وثقلت في جرعة ماء أبل بها ريقى فقلت « لأبي » :

— اشرب .

ومهيت « أسل » ما أريد وهي ترى لساني الجاف يتحرك بين شفتي .. وهزرت رأسها قلقة في حزم :

— متزوج .

ثم اشارت إلى الممرضة والرجل قلقة :

— هيا .

وكل واحدنا انهم سيذهبون بي إلى غرفة العمليات .

ولم يكن هناك شك أن « أس » قد بدل جهدا حارثا .. ليهبط هادئا متأكد النفس .. ولكنى كنت أعرف جيدا ما وراء استسلامه التي يمنحها على شفطيه كلما نظر إلى .. فقد كلى الجرح يظل من مثارته الشاردة . ولم أبصر وجه « أس » بين الوجوه المحيطة بي .. وارتكت انها لم تقو على منظر دفعي مسجاة إلى غرفة العمليات .. ولم أشك من أنهم لأخوها بعيدا .. بدوعها وحزمها حتى لا تؤثر على منظرها المنهز .

واخسست وأنا أبصر وجه « أس » بنظرانه الشاردة وأصعور وجه « أس » بنظرانه الجزعة وعسيها المورقتين بالكسافق شدة عليها وتثيت لو استطعت أن أخلف عنها وأبعث في نفسيهما الطباية على ..

ومعاً جرحى عليها جرحى على نفسي ، وتبعد من نفسي الخوف والرهبة .. واستطعت أن أنضم لأبي وهو يظل على بنظرانه الشاردة الثقلة يرتب المرساة وهي تحكم المعاء حول جسدي ثم تدمع الفرائش بمساعدة زميلتها خارج العرفة .

وسار « أس » بشع الفرائش الذي تدمعه أيدي الممرضات من حذرة إلى طريقة حتى توقف أمام باب المصعد فالترب وشد على يدي وهو يسهم محاولا تشجيعي .

ولم أشك لحظة في أنه أشد حاجه إلى التشجيع فأنشيت له وقلت مرده ما سبق أن قاله لي .

— لست أعلم شيء .. سأعطيني عيني وألم .. فلا أسحو إلا وقد انتهيت من كل شيء .. بلا تعب ولا ألم .

وانتدج باب المصعد وأطل وجه العجوز الطبية العرجاء .. وقين أن تدمع في الأيدي إلى داخله رمت عيني إلى أس وأسرسلت اتول في لحظة حاثية :

— أرى لنا هين .. أنتم الذين تستمعون الصلح . أنتم الذين ستقاسون طوأل مدة العملية .

واخسست أن جهد « أس » قد بلغ اقضاء .. وهو يعال بامعته ويكث نومه ويسع على شفطيه الانشابة الباهتة التي تحس منها صوت الصراح .

وحال بيننا باب المصعد .. وظل شعاع البصر متصلا بيننا خلال رجاح الألب وقصباته الحديدية حتى أهد المصعد في الارتداع وأسرعت رأس « أس » يحتل بالندرج وعياء مطلقا معني حتى احتس من عيني .

ومعاً اخسست بالوحشة وأنا لا أجد أمامي سوى سقف المصعد وقصباته الحديدية والعجوز الرق التي ترمقني في صمت .

وتلكي الحوف ، وسيت لو استطعت الصباح « ناسر » أن تحس من يومه لأعود إلى دمشق .. إلى حترتي الهائلة المطلة على الباشينة .. وعلى قلب المدينة .

ولكن الصيحة لم تنطلق من شفتي الجافين .. كتبت أشعر بالعمى . وكان على أن أستسلم للبصير الذي التيت إليه .

وانخذت الأمور تتوالى بسرعة .. وقف المصعد .. وفتحت العجوز ابواب وودعني بانسابة شمعة .

وتناولت الأيدي الفرائش الذي رقدت عليه تلمعه خلال المرات البيضاء .

وانتدج بي الفرائش هنا وانتدج هناك .. ثم توقف أمام باب مريض فتح على مصراعيه لبهم فرائش ثم يثقل لبعثني سحبنة العربة ذات الأشباح الأبيض والوجوه المثلثة .

وانخذت أخلاق في مصباح زهاجي مستدير بدت صورتي صغيرة في قرصه والأشباح الأبيض تتحرك من حولي .

وانترب من أحدهم وتناول دراعي وبيرة في يده دفع بالحدرد إلى عروقي .

وكل هذا آخر ما رايت في الحجرة اللسيجة ذات المصباح المثل
على راسي والأشباح البيضاء اليابسة من خلف وجوهها الممتعة .
لم أشعر بهيئة .. أو بشدة .. أو حتى بهواجس حلم .
فقدان تام بالوعي والإحساس .. كأنها القنطع تلك انفرة من
حياتي ولفظ بها إلى النعم .
في لحظة انصرفت مني على الشبح الأبيض يدفع بالإنارة في
فراشي .
وفي اللحظة التالية فتحها ، لأجد وجه « أبي » يطل على في
لهنة شديدة .. وقد كد بصره بجفني المرتجنتين .
أبصرته بوضوح .. على التماسات .. بلا اهتزاز ولا ارتدواج
.. ومرة بي لحظة شك لم أعرف خلالها ما إذا كنت لم أبارح الحرية
بعد .. لم عدت إليها بعد الانتهاء من كل شيء .
ولم أجد بدا من السؤال .. وأصصت بصوتي يخرج واضحا
سليم التبرات .. وأنا استأثر أبي في شك :
« اتنعموا » .
وأبصرت استجابة صاغية نعلو شفتيه وهو يسمح أول كلمتي ..
وأجاب وهو يتهدد في راحة :
« أجل يا حبيبتي .. انتهى كل شيء .. والحمد لله .
— حقيقة ؟ ! »
« طبعاً .. أجريت العملية .. ووضعت الجبس » .
ولم أحاول أن أصغي إلى بقية كلامه .. فقد تحول انتباهي إلى
ذلك الشيء الذي يتلصق سائلي .. والذي رفع العطاء فوقه على شيء
يشبه القلمس الحديدى .. حتى لا يتلصق الغطاء على الساق .
ولم يعد لدى شك بعد ذلك في أن العملية قد انتهت .. وأصصت
مفرحة شديدة فصرني وأنا أحس في المبدأ الذي كان يلتصق حبيما قد
زال .. وأن القوف الذي كان يكن في سفورنا والذي كان يحاول كل
ملا ستره من الآخر قد وصل إلى نهايته .

وربعت عيني إلى « أبي » ونصبت لو استطعت أن أصبه بدماعي
وأقبله .

ومرة أخرى حاولت أن أتكلم .. ولم أحد مشقة في أن أعتب به :
« أريد أن أتيتك » .

وأنتهي على في حذر وأمسك براسي في رقب شديد كأنما يمسك
بكرة حشة يطش عليها من التفتت ومن شفلي بطن عجيب .

وأعطته بدماعي مقدار ما يحضني المخدر الذي أفتت منه من قوة
وقلت له بأسا .

« لم لكن أصغى أن الأمر سينتهي بشل هذه للسهولة » .

« ألم أكل لك .. لن تشعري بأي شيء » .

« أكل العمليات سهلة هكذا ؟ .. لماذا لا يعملون لكل المرضى
عمليات ؟ »

وصحك أبي وأجابني :

« العمليات تجري عندما يكون هناك ما يدعو لها » .

« والتقت حولي أبحث عن « أبي » فقد أحصيت طهفه عليها ..
وسألت « أبي » :

« أين مايا ؟ »

« سئاني حالا .. لقد كانت تجلس في غرفة الانتظار ، وذهبت
لأطبيبها عندما حطت إلى » الممرضة تسألني أن العملية قد انتهت وأنهم

سيذهبون في وضع سائتي في الجبس .. وأنتك ستطهين بعد نصف
ساعة .. لقد بدت وأنا أنقل إليها ألما كالفرق اندى القتب إليه

بطوق التناجاة .

ولم يكذب يتقنى من كلامه حتى أبصرت الباب يفتح بصفعة وأصعرت
وجه « أبي » بطل وقد أصعرت عيناها وسعمتها نفس « أبي » :

« هل أفتات ؟ »

« وقبل أن يجيب « أبي » رددت عليها أحاول أن أطينها بكل ما أملك
من تدرية على الحديث :

— أنا بخير يا أمي .. العملية انتهت .

ولم تستطع « أمي » أن تغالب دمعها المنهمر ، وأقبلت على بقول مي لهفة :

— الحمد لله يا حبيبتي .. رينا يتم بخير .

ومضت بضع دقائق استطلعت خلالها أن أمي « و » أمي «
إحساناً بالطبائفة والراحة .. قبل أن يعاودني الصعق وتمحو وبصة
الانتعاش التي استطلعت أن تملو بي إلى السطح وتنشلي من أعماق
الضياغ الذي كنت أغرق فيه .

أغمضت مبني برهة يستسلمه نلثك الانتقال التي تشدني إلى أسفل
.. تطبق حمى وسفن نسني ونجعل المراثيات بطيوسة المعظم والأصوات
مهمة الثبرات كرجع الصدى .

وملئت رعني من الحديث والإنسان .. وفقدت قدرتي على رسم
شبح الإبتسامة التي حاولت بها أن أعيش « أمي » و « أمي » .

وسمعت أبي يهمس بها وهو يشير لها لتجلس على المقعد الكبير .

— من الخير أن تتركها لاستريح .

وسمعت صوت قديمي يتجه إلى الخارج ، وقبل أن يفتح الباب
أحسست بوحه في قديمي وخرجت من شمس آهنة لم أستطع أن
أكتفها .

وقمرت أمي واثمة في مقعدها واستدار أبي عابدا إلى مشائلا
في جرح :

— ماذا بك يا حبيبتي ؟

وأمرت إلى قديمي التي حجبها الغطاء الأبيض المشخود فوق القمص
العديدي الملبث أسفل الفراش .

وبنت انجيرة من وجه أبي ... وانتظر لحظة لمل الألام الذي
جعلني أتاوه يكون قد زال .

ولكنني أحسست به يعاودني بطريقة أشد كانه وخز الإبر في
مفصل للقدم .

وعدت أتاوه من الألام .. والمعسكت الألام على وجهي أبي وأمي
الذين بدت فيهما الحيرة والمجزر .

وشط « أمي » حرس المبرصة وأضاء الجرس ضوفا أحمر ظل
مصبنا حتى أثقلت المبرصة تتسائل عما تريد .

وأشار لها أبي إلي سائتي قائلا :

— إنها تحس بوخر في قديمي .

وأزاحت المبرصة الغطاء .. ولأول مرة تبهرت سائتي مشفودة في
الجبس .. ورمعت رأسي لألقى نظرة على قديمي حيث موضع الوخر ..
تبهرت بقعة حمراء تنتشر في بياض الجبس .. وتضخ فوق ملادة
الفراش .

وأصابت رجفة من منظر الدم الأحمر يشع فوق الجبس . ولم
أكن أحاف شيئا كنتظر الغشاء .. كنت أجزع من أن يصيب أحسن جرح
.. ولم يكن يوجعني الألام كما تنزعني قطرات المسكّل القلبي .

وأحسست بعثلي وأنا أنصو سائتي مهتمة وراء قالب الجبس كأنها
سائتي دميحة حطما مسطور الحرار ، ولحت أبي يحلب أنفعله ، وأمي
تشيح برأسها حزما .

وأشار أبي إلى تشع الدم المتسلل من الجبس إلى الملادة وسك
المبرصة في لهفة :

— استيقظ هذا القزف ؟

وهزت المبرصة رأسها وأجابني في ثقة وهي تتحسس البقعة
الحمراء .

— لقد توقفت .

ثم أبتدت يدها لتتحسس الملادة .. وأضادت مطبنة :

— إنها لم تزد منذ خروجها من غرفة الصليبات .

ونظر أبي إلى موضع الدم فوق الملادة كأنه أكثر ذبيحة .. وقال
راجيا :

— ألا يمكن تغيير الملادة ؟

وهزت الممرضة رأسها مؤكدة :

— طبعاً ستفعلها .. لقد كنا ننتظر حتى نفيق من المخدر .

وكان خوفي من آثار الدواء قد انشأني الألم الذي أحسست به
في قدمي .. ولكني لم أدرك أن أحسست به ثانية .. وراد أحاسسي
به ما بدأت أتوهم به جراح نقيء منها الدواء القاتل في الجبسي ..
فعدت أصبح في صبر نادم :

— قدمي .

وبعت صبحتي كأنها مطرقة على رأس أبي .. ونظر إلى الممرضة
مستغيثاً .

وثابت الممرضة في هدوء :

— من لا نريد أن نتكلم .. سأعطيك قرصاً مسكناً بضع
الأيام .

وعادت بعد لحظة وهي يدها القوي .. ويضع قطرات من الماء
في الكوب استلعت أن أبطله .

واستمر الوحز متره .. وأنا أتأوه في شيق .. و « أبي » قد جلس
بجوارى مسكناً بيدي .. يحاول أن يحلف على كلمات حائرة عاجزة ،
و « أبي » مبتلة المآقي ، حارة الدعوات .. حتى بدأت أهدأ ،
واسترخي ، وأروح في شبه غلوة .

ويبدو أنك قد حضرت في هذه الفترة ، أو في فترة غيبوبة مماثلة ..
فقد ذكر اسمك أمامي .. فلم بمن لذي شيئاً ، ولا فكرني شيء ،
ورأيت شعبك بقل مرة ، ثم بنصرف كسائر الانتعاش التي كانت تتوالد
على لفتني ، متبلة الضلأ هائسة الحديث .

والفت بعد ذلك لأشعر بجفاف شديد في حلقى ، ولهفة شديدة
على جرعة ماء .
وكانت « أبي » قد غادرت الغرفة و « أبي » قد استرخى في
مقعده يرقيني بنفرائه الشاردة .
ونظرت إليه وهدئت راحتي :

— اشرب .

ونفسي « أبي » وأمسك بكفي في رقبى ، وقال يحاول تهدئتي :

— ألا يمكن أن تنتظري برهة ؟ !

ومدت أوتلي في إلحاح وأنا أحس بشيق شديد :

— أنا عطشى .. أريد الماء .

وعاد « أبي » ينظر إلى في عجز .. ثم مد يده إلى جرس الممرضة
.. وبعد لحظة كانت تلحج الباب متسائلة :

— نعم ؟

وقال أبي نائلاً إليها رغبتي الملحة :

— تريد ماء .

وهزت الممرضة رأسها في حزم قذلة :

— ممنوع .

ونظرت إليها في غيظ ، وبدأ لي كأنها تصانفي .. هذه المرأة
الفرقاء المبيس ، المبيكة الوحه ، لا شك تحاول بصلفتي .. هي
لا تكثر مدى عطشى .. وجرعة ماء لي تكفيها شيئاً .

ومعت أصبح بكل ما أملك من قوة :

— أريد أن اشرب .

وهزت رأسها في هدوء وعادت تقول :

— ممنوع .

ونظرت لأبي استجد به قذلة :

— امطس أنت بعض الماء .

وأجاب أبي بركة :

— يا حبيبتي .. إنها تعرف بصلحتك .

— إنها لا تعرف شيئاً .

وعاد أبي يسأل :

— ألا يمكن أن نعطيك بعض الماء ؟

— سيخرجها للتي .

ولم آبه للمرضة وعدت اتول لأبي متوسلة :

— أنا عطشى .. أريد قطرة ماء .

نظر « أبي » للمرضة بقول : ؟

— قطرة واحدة .

ولاح على شفتي المرضة الصارمة شبح ابتسامة ، وفكت وهي تهدد بأسمها :

— قطرة واحدة تبليل بها شفتيك !!

وبحت بعدها إلى خورق المياه تسب قطرات منه في يوب ثم ناولته إلى ..

وفي لحظة أثبت على القطرات التي طلعت في قاع الكوب غرائضى عطشا .

وعدت اتول لأبي متوسلة وأنا آتول الكوب :

— أبلا لي الكوب .

وفهمت المرضة ما أريد فتناولت الكوب في سرامة ثقلة :

— هذا يكفي .

واستمرت أمشي شربا في الحيلة من متاعب وآلام .

لهيكن الحيلة في حد ذاتها موجهة .. كانت كما قال أبي « شبكة إبرة » أمزق بعضها في سكت عبيق أصحو منه لأحد كل شيء قد انتهى .

كل شيء بالنسبة لهم قد انتهى .

بالنسبة للأطباء .. شعروا حطى ، وقطعوا أوتارى ، وحطبوا مضاي . ونظروا أقصى ما يستطيع أن يفعل حزار بنبيخته ، ثم عادوا ليلبوا كل هذا ويشدوه بغيط ويصوره بدمائه التالفة في قالب الحس ، الألبس الأبيض .

و .. ينتهي كل شيء .

أما بالنسبة لي فقد صحت .. لاستقبل كل أنواع المتاعب ..
المطش ، والآلم ، والوخز ، والصبق ، والطق ، والرقدة العاجزة الحيلة .

ولقي من كل هذا ، وحشة الليل ووحشته ، فقد كل كل شيء يمكن احتماله وأنا أجد أبي وأمي بجوارى .

ولكن عندما أقيمت مرضة الليل نهم حول الفراش ، تملأ خورق المياه وتنفع مصباح الليل في موضعه لم تنظر إلى « أبي » و « أمي » و « هاتم » و « لطيفة » وجبهة من رجال السلزة ، ومن الأصدقاء الذين استمروا يطمنون بنا ، حتى أوشك موعد الزيارة على الإقضاء .

عندما أقيمت المرضة نهم حولنا وتنظر إلى الساعة ، بدأ يداخني إحساس بالجرع وأنا أحس ملأها توشك أن تطردهم لتبتني وحيدة في هذا الليل الموحش .

وقبل أن تصل إلى باب الغرفة ، قالت في أدب :

— الأنصل أن تتركوها لتلم .

وقلت في حدة :

— لا أريد أن أتم .

وابتسمت المرضة وقالت :

— الساعة الآن الطائفة .

وتسائل أبي :

— وعلى تنتهي الزيارات ؟ !

— حتى الحادية عشرة .

ونشر إلى « أبي » وقال وهو يحاول أن يطمئنني :

— ما زالت أبائنا سامة .

وردت المرضة وهي تترك الغرفة :

— كنت أفضل أن تتركوها لتسريح .

وقلت لها في غيظ :

واخسمت باطباينة ، وتثبتت ان ذاتي المرسى ولن يظل « أبى »
جانسا مع طول الليل .

وحاولت جهدى الا املو . حتى لا املأ بالوحدة ، ولكنى عفوت .
لاصحو فجأة على صوت المرسى تقول لأبى :

— الساعة الحادية عشرة .

واخسمت بخوف شديد .

خوف من كل شيء . . من المرسى العبد الوجه . . ومن منظر
الخرقة .

من النولاب الأسود الغائم فى ركنها وعليه قيمة « أبى » ومن
سنتار النافذة ، ومن تلك الظلمات المكتسبة وراها لا تطلع من صدحا
الإسعة الباهتة المتسللة من نافذة هنا ونافذة هناك .

كل شيء كان يخيفنى .

ويذهب « أبى » ويتركنى وحيدة مع كل هذه الأكساج !

ونظر « أبى » بفوره إلى المرسى راجيا .

واجابت المرسى وهى تهر رأسها فى اسف :

— لا يمكن السقاء بعد الحادية عشرة .

وفلارت الحجرة . . واقبل « أبى » على يمسك يدى يرمى
قلبا :

— ان اتركك حتى تضامى ، واعود إليك قبل ان تستيقظى . . فقط
حاولى ان تضامى .

واخسمت عمنى . . واخذ « أبى » يرتدى المعطف والقبعة .

وكال على ان استسلم لرحيله . . وان احتل كل ما يحيط من من
مخاوف . . حتى لا امرضه مرة ثانية لرجاء المرسى ، ووقف « أبى »
يرمى برهة ، ثم بدا يمشى على اطراف قديسه ، وقد خيل إليه انى
استخفرت فى النجوم ، وكزعت ان اتركه يمصرف دون ان اودعه
عجست به :

— انا مستريحة هكذا .

وكنت امتقد ان المرسى قد افنى على مصابقتى . . وكانت محاولة
إخراج « أبى » و « أبى » بكترا ضمن حطة المضايقة .

ونظرت إلى أبى استنجد به . . فاجابنى بنظرة تأكيد بأنه لن يترك
الحجرة إلا « على أسنة الرياح » .

وكنت فى حالة من الإهماء ، تجعلنى لا اكاد اتيق حتى املو ، ولا اكاد
اغفو حتى اصحو فى شيق وخوف .

ومضت برهة . . رحت خلالها فى غلوة ، وصحوت على صوت
« الدكتور هائم » يقول :

— اأتان من الحبر ان نهضنا لتسريحنا . . إنكما لم تنوقا طعم الراحة
طوال اليوم ، حتى الطعام لم تتناولاه .

ونظر أبى إلى ساعتى واجاب :

— سأنظر حتى آخر موعد للزيارة .

وامسك وهو ينظر إليهما فى قلق :

— ولكن لا داعى لانتظاركما حتى هذه الساعة .

واجابت السيدة « لطيفة » فى إصرار :

— ليس ورائنا شيء . . سأنظر بمكنا .

واخس « أبى » أنه سيرغبهما على العشاء حتى هذه الساعة
المنهارة ، ونظر إلى « أبى » وقد بدا عليها انصى مظاهر الإرهاق ثم
قال :

— افضل ان نذهب بلطفة لتسريح ، وسأنظر اما وحدى .

واخسست أنا ان وجود الضيفين سيكون بمضى قلق لأمى ، وخسشت
ان يصرخ محبا حتى يجنبها طول الانتظار ، ولم أثبت ان شعرت
بالراحة وأنا استمع لقوله .

ونهض الضيفان بالى .

وبقى أبى معى فى الخرفة .

— مع السلامة .

وتوفد أبى وقد بدت عليه الحيرة والمجز وانحنى على بقلنى وهو يهتف بى :

— تصبحين على خير يا حبيبتى .. لا تخافى شيئا .. إذا أردت الممرضة دلى الجرس لها .

وعدت أقول له :

— مع السلامة .

وانصرف أبى .

وفتحت عيني ، وعدت أحمق فى الأشباح التى تترامى لى من النافذة ، من خلال جدران المباني القاتمة ومن جوف المداخل المظلمة من فوق الأسقف .

وعندت ببصرى من النافذة ، لأحس بالوخز فى قدمى .. ثم أبصر بعين الزهم بقعة من الدم تغرق الجبس وتتشتت وتغير الفرائش وتصيح الحجر كلها بلون أهرقان .

وكنت أصرخ ، ولكنى ابتلعت صرختى .

وفتح باب الحجرة .. وخلتها الممرضة .. ولكنى وجدت أبى يقف أمامى ذقبة ، وعلى رأسه القمعة والمطف يتهدل على كتفيه .. وقد بدا كأنه نثال للمجز ، والخوف ، واليأس .

وعطف بى :

— ألى تمانى بعد ؟

ولفت بمحاولة الانقسام :

— ستقام .. لا تخشى على .

وفتح الباب مرة أخرى ودخلت الممرضة .. ولأول مرة أرى أسليرها طين وقسماتها ترقى ، وعنتت بلى :

— تودوطلا ؟ !

واجلبها « أبى » بسلامة :

— لجل .

ثم أفساد وهو يطلق زفرة قصيرة :

— إنها المرة الأولى أن تتركها وحدها .

وربعت الممرضة أصمعا وانسارت إلى مينيها واجلبت فى لهجة ذاتية :

— ستتركها فى عيني .. لا تثقل عليها أبدا .

ونظرت إلى " فى رقة ثم عادت تنظر إلى أبى واسترسلت قائلة :

— المروض أن أبر عليها بحكم مولى كل ربع ساعة .. ولكنى أعدك أنى سأبر عليها كل خمس دقائق .

ثم وجهت الحديث إلى " قائلة وهى تشير إلى الجرس :

— عنفا تصمين أصبعك على هذا الجرس .. ساكون أمامك ..

لا ضلى من وضع أصمك على الجرس أبدا .. لقد طلبنى مريض ليلة

أيس مئة مرة .. كل مرة طلب شيئا وصمعا لم يجد ما يطلبه .. قال

لى أجلسى لآتحدث معك فليكن أن تضحلى من طلى .

ولصصت ببعض الطياتينة .. وكان على " أن أريح أبى وأبعو

ألمه شجاعة ، فابستت قائلة له :

— أذهب أنت .. وسأنتظرك فى الصباح .. إياك أن تتأخر .

وقالت الممرضة ضاحكة :

— موعد الحضور فى التاسعة .. ولكذك سخطيع أن تتسلل من

باب الخدم قبل ذلك .. هناك دائما استثناءات .

ونظرت إلى ساعتها قائلة :

— موعد الانصراف هنا العاشية عشرة .. والساعة الآن الثمانية

عشرة .. لو رآك أحد هنا ...

ثم رفعت أصمعا وأجرته على عنقها علامة الدح .. وأصافت

بقول :

— لقددت عني .. ارجو ان تسرع بالفروج ، وأبش على أطراف
تفليك .

وسطر « ابي » إلى « بثرة وداع احيرة » . ملأها الإسهاق والاسى ..
ثم أخذ يتسلل خارج الغرفة كما تصحته المرساة على أطراف أصابعه .
وحاولت ان أغشى عيني عن الاشباح الوحشة التي احبلت بى ،
واخذت تملأ براسها من رجاج النافذة .. من الضباب المعتم ثائرة ..
ومن الأسواء المزدوجة ذلثة الخرى .

أيام ثقيلة

اصبح الصبح بعد ليل طويل ، تقادنتنى فيه وحشة الارق ووطأة
الاحلام . وكان وجه المرساة يطل على " بين آونة وأخرى متسللة عما
إذا كنت أريد شيئاً .
وكنت أختلف بها فى كل مرة :

— أريد التمار .. أفضى لى الصباح من وراء هذه الستر الثقيلة
المسللة من الليل الحالك . أطلق لى ابي ولى ، فقد صقت ذراعاً بهذه
الاشباح المتواثية من حولى .

وكان نعاس الصباح قد غلغنى عندما لعل ابي يسترق الحظا
بمتسللا إلى الحجرة .

ونمتحت ميني لأجده يفتح القصة فوق الدولاب ويصلى المصلى
داخلة ، وهو ينفض عنه بقايا تلح انيض حط على كتفيه .

وتلكنى إحساس بالارتياح والطبائنة .. وأنا ارتب ابي يتحرك
على أطراف أصابعه خشية إيقظنى .. وأطقت جفنى لى استرخاء
بعد أن رأيت به يمسح العلكة وللملح اللسكويك والتشيكلات
والفهرات فى درج الدولاب المجاور للمراش ، ويرمى الكتب والمصنف
على حرف التلذذة .

واحسنت به يقف بجوارى يرتبني ويتأبل وجهى ،
ونمتحت عيني وأبتسمت .

وبعد بده يتصمى راسى فى رفق ، وهيس فى حنان :

— صباح الخير .

وزايت الايفساية اتساعا على شفتى ، وتساقلت بكل ما لك
من قذرة على المنبت :

— كيف دخلت ؟

وشحك « أبى » وأثار بلصبعه تجاه الباب وقال بصوت خفيض .

— دخلت من الباب الخلفى .. رايت القدم يمشون فرمعت باقة
المعلك وجذبت القبة على منى .. وحطت الخطا .. وعبرت الباب
فى ثقة .. وكأني أعبره كل صباح منذ عشرات السنين .

وشحكت وأنا أتصور منظره .. وكأنه يقوم بملفلة كبرى ..
وسأله فرحة :

— ولم يمشبك أحد ؟

وأجاب أبى فى سعادة :

— أبدا .. مررت كأي حاف من ختم المستشفى .. لم يسألنى
أحد ماذا أريد .. فقد كنت أسير بمتى الثقة .

وعدت أسأله فى ارتياح :

— تستطيع إنى أن تأتى كل يوم فى مثل هذا الوقت ؟

— طبعاً .

— وبقي معي ؟

وأكمل « أبى » ضاحكاً :

— حتى تطردنى ممرضة الليلة .

— وعدت لو شريتها ليلة أسى وهى تصر على ذهابك .

— إنها سيئة طيبة .. لقد سمحت لى بالبقاء حتى الثانية عشرة .
وهى التى دفنتى على باب القدم .. وإلا لما استطعت الحصول شل
الناجمة .

— ومعنى ستأنى ملياً ؟

— بعد أن تغسل بعضى الثياب .. وتعد بعضى الطعام .

— أنا لا أحب طعامهم هنا .

— ستصنع لك هى ما تحببه .

ولم استطع المخى فى الحديث رغم رابتنى فيه .. فقد كتبت أحس
بمجز عن القيام بأى جهد .

وأصغت عيني قليلاً .. وما لمثلت أن أفتحنها على صوت الباب
بفتح ورايت ممرضة الصباح تقبل وبمها زميلة لها .

ولوجست منهما حيلة وهما تطلبان من أبى أن يعلق العربة ..
وسألته باستمرار أن يبقى بجوارى .

ولم يفلح إصرارى ولا رجاء أبى فى إقناعهما بضرورة بقاءه بجوارى
.. فمضطر إلى الخروج .. وبدأت الممرضان عملية التنظيف الصباحى
.. وترتيب الفراش .

ومررت بعملية تنظيف كل أقصى ما فيها هو خولى من أن ترمى
سالى الموصوعة فى الجبس .. وصرحت بشع صرخات وهما تهركن
سالى لإبدال الملازمة .

وأجبرا انتهت العملية الشاقة ، ولتلى أبى مدى الفلق والضيق ..
ولكن شبح ابتسامة بدا على شفتى بعد كل ما به من قلق وخوف .

ولست أذكر تفاصيل الساعات والإيام التى مرت بى بعد ذلك ..
فقد كانت ساعات استسلام وانتظار .. استسلام لردة عاجزة ..
وانتظار لأمل يرتجى .

وتبهرت أبى الأولى بعد العملية برابعة فى النعاس .. كنت استسلم
له خلال ساعات النهار الطويلة .. وقد جلس « أبى » على مقعد مسكا
بكتاب أو صحيفة .. وجلست « أمى » لابه مسكة بالبرنس الطويلتين
.. بقطعتان ساعت نعاس الطويلة فى استسلام وترقب .

وبين آونة وأخرى يفتح الباب زائرة أو زائر .. يحيل عليه
الشيكوالة التنظيفية .. أو باقة الزهور .. ويجلس برهة يتبادل مع

أبوى حديث مجادلة ثم لا يلبث أن يعرف ونمود السكينة لتسود الحرية
الصغيرة .. واستسلم أنا للعاس ويستسلم أبى للكتاب .. وأنى
للإيرتس بين أصابعها .

ويظل السكون سائداً حتى تقبل « لطيفة » لا إقبال رائر .. بهجة
تقليدية .. بل قريب بحاجة مطلوبة .. عود ملئت صحابه بالأطعمة
القشوية .. أو صينية حلوى بخفة الصنع .. وبمعا زوجها الطيب الكريم
.. لهجسا بما التاعفت الطويلة .. ويندأ حديثهما صموتا يلف
شجيح التلق والحواف الذى يسطخب فى صدر أبوى .. دور أن
يجرأ على أن يجد لنفسه مقلداً بأهة أو نهيدة .

ومرت أيام النعاس الأولى .. ولثنا شمية مفتوحة للطعام ..
ثم عزوف عنه .. وتويات متعانة من التلق والسكينة .. والخبث
والرضا .. والمثل والصبر .

وأيا كل هذا الذى حملته لنا الأيام .. وأيا كلت حشوته .. وأعباءه
.. لقد كل حير ما فى هذه الأيام .. أنها تير .. وكل يوم ير .. كان
يحمل عما عنه .. ويخفف عما مضى ما تبقى من أعاء الأيام المائية .

وفى الأيام الثقيلة .. لا يحد المرء فى دنياه من عراء .. سوى أنها
تطوى .. وأنه ليس عليه سوى أن يتبع حاربا .. ليرى الأرض يتدب
بها .. بأصابعها .. ومرارتها .. من وراء ظهره يوماً بعد يوم ..
وكأنه يقرضها بناب دموع ملح .. قطعة قطعة .. ولمه نمسه النقة
بأنها ذات يوم .. ستصل إلى نهاية .

ويدان نعدان حياتنا الجديدة .. واضعت بكل ما فيها من ضيق وقلق
.. وإرهاق .. ومثل .. ثوماً من الخمر المزج الذى روضنا أنفسنا على
الاستقرار فيه .

ولم يكن احتياله .. على ما فيه من تلق .. بالأمر الشاق .. لأنه
قبل كل شيء .. كان أبوا لا يفر منه .. ولأن إياه كما قلت — كانت
تير — ولأن مرها .. وهذا أهم ما فى الأمر .. كان يقرب إلينا أملا
كبيراً .. وهو شفاء سائى وقيلى سلبية توبة اتف وأعدو .. واندمع

فى الحياة كسفر الناس .. بلا حاجة إلى هذا المشد الحديدي الذى
ينقل روحى قبل أن ينقل جسدى .

وبدا أبى يحسب من الأيام فى مفكرته .. بدأ يتدف بها يوماً وراء
يوم .. فى صفحة وراء صفحة .. أبوى اليوم المشود تقربه الصفحت
المعانة .. ويملأ على انقزائه كل يوم بل يربح من المفكرة صفحة
جديدة انزاح يوماً من كلفه .

واستطاع أن يستوفى من موعد ربح الجبس من سائى بالتعهدى من
الطبيب عنفاً من يتأ ذات عصر وسائى مستسماً :

— يبدو أن المدة المحددة للجبس قد قاربت الإنتهاء ؟

وصبت الطبيب برهة وبدأ عليه التفكير ثم أجاب :

— يوم الأربعاء القادم سنقوم بإزالة الجبس .. وعمل الشعة ..
وأرعو أن يكون كل شيء على ما يرام .

وكنا فى يوم حيس .. ويمسئ ذلك اتنى ساجلس من لغص
الجسي بعد ستة أيام .. وإلى .. إذا شغيت .. سأعود .. حرة ..
طليقة ككل هذه الكتات الحرة الطليقة .. القدرة على السير .

إذا شغيت .. سيحدث كل هذا ..

وإذا لم أشف ؟

ولحسنت بشيء يشم على صدرى ويكتم أمانى .

إذا لم أشف ؟

ولكن لماذا لا أشفى ؟ !!

لقد قنوا .. بكل ما يمكن أن يؤدى إلى شفى . لقد طعموا ومزقوا
.. ووصلوا .. كل ما يمكن أن يقطع ويمزق ويوصل .. استلبت
لكل ما طلبوه .

فليدا لا أشفى ؟

ومع ذلك .. حب أتى لم أشف ؟

سأعود إلى ما كنت عليه .

سأترك هذا الكراش .. وأغادر هذه المستشفى .. واتجو من هذا

الحق القاتم المقتضى .. واللبل الموحش النفيس .. والبيوت ذات
الجدران السوداء .. والمدائن المظلمة من أسقفها كأصابع الجبن .

سامود إلى بلدي .. إلى دمشق الحلوة .. وشوارعها المؤنسة
الطيبة تدفئها البيوت الحاتية عليها من قلب الشتاء .

سامود إلى حجرتي .. بأزهار الياسمين تتسلق الساندة ..
والنفسه تسرى في فروع الشجرة الكبيرة .. فتبهس بوشوشة
حببية .. سامود إلى الفوطاة .. مرتضى المزهري ، ومرحى الأخضر
.. ذى الفروع الدائمة والأوراق المشرقة والأزهار اليابسة .

سامود إلى شعاع الشمس .. الذي لم يكن منه سوء صباح
ولا نهار موقد .. الشعاع الذي يطل من السماء ليشرق في الحنظل ..
شعاع في دفئه حنان .. وفي نوره .. انس وبهجة وابتسامة ..

سامود مساتري في الحشد الحديدي لأعمل كل ما ينطه الناس ..
بالخوف ولا خجل .

وأبى .. وأبى ؟

ولحيتهما المريرة .. وأملها الضالغ .. في أبنه حلوة سليمة ..
تسير في رشاقة كثيرها من أينات الجيلات .

ومرة أخرى عاد ذلك الشيء يطبق على صدرى .

ومن جديد حدثت انقباض :

— ولكن لماذا لا أشفى ؟

وبين مرارة اليأس .. وغرعة الأمل .. قصبت إلهام الباقية ..
حتى حل اليوم المرتقب .

واستيقظت لراحة مستيشرة .. وزاد إحساسى بالألح شعاع شمس
رتيل وحد طريقته بين أكوام السحب السود المكسدة على وجه السماء
تنتسلل من الساندة منسابها على الأرض متسلقا الفراشي ، وحدثت يدى
أقبض عليه وأتا أحس له وخشة ولهفة .

واقبلت « أسل » المرسمة التحيلة ذات المستنير الماررتين والوجه
الشبيه بالسبكة ، وقد انبسطت أساريرها ورفعت عن وجهها ذلك القناع
الصارم الذي تعودت أن تلقانا به في أيامنا الأولى في المستشفى .

وبدت يدها تلمس شعري مازحة وهي تقول مشيرة إلى شعاع
الشمس :

— يوم جميل .

وأجبتها ضاحكة :

— أول مرة أرى الشمس في بلادكم المعصية .

— أثرونها كثيرا في بلادكم ؟

— ليس أكثر لدينا من أشعة الشمس .

— لماذا لا تصفرونها إلينا ؟

— سنفعل عندما أعود .. سأصبح علة فارغة في الشمس بقصة
سامات ثم أعلقها وأرسلها إليك .

وصحكت « أسل » وهي تجر الملاة من فوقى لكي تساوى العرائش
وتخبر الأفعلية .. وقالت :

— وسأعيدها إليك ملأى بالجلند .

— شمس بجلند ؟

— أى لا شيء ملاء .

— دعينا يتبادل شيئا اثنين .. سأرسل لك طوى من بلادنا .

— لا أظنك ستفكرينى بعد أن تعودى .

— لماذا تقولين هذا ؟ ..

— كثيرون يبركون ومنونى بأن يكتبوا إلى " عندما يعودون إلى
بلادهم .. ثم ذهبوا .. ولم يذكرونى .

— لست منهم .. سأظل أذكرك دائما .

— رغم سوء الفكرى والمذامب التى لقبقتها عندما ؟ ..

— أجل .. فقد كنت جميعا طيبين معى .

— أنت أيضا كنت مريضة مطهية .

وبدأت عملية الاغتسال بالماء الدافئة في الطبق الأبيض الكبير
والمنشفة الصغيرة تمر بها الممرضة على جسدي بعد أن اعرقتها
بالصابون .. ولم يكن هناك ما يضاهي تلك العملية الصاحبة ،
ولكنني لم أشعر بضيق في هذا اليوم .. كل كل شيء يبدو لي خطوة
إلى باب الحرية .. ودعنة في سبيل الانطلاق .

ونظرت إلى ساعتي الممدودة في قالب الجبس .. وطرقت عليها
بإصبعي في شيء من التحدى .. فقلت ضاحكة :
— سلفصل منه اليوم .

وأخفت « اسل » تحتل جسدي وهي تجهب بمسألة :

— متوقفين إلى الانطلاق ؟

— جدا .. بمجرد أن يرموا هذا الحس من ساعتي .. سأعود
هاربة إلى بلادتي .

— ولكن لا بد أن تبقى فترة للتعبير على السير .

— ولماذا لا تمرن هناك ؟

— حتى يطيق الطبيب على سلامة مسلكك .

ويبدو أن الشيق قد علا محياي فقد تساطت « اسل » ضاحكة .

— إلى هذا الحد مشتقة إلى العودة ؟

— وودعت لو أفتح عيني وأفضهما لأجد نفسي في دمشق ،
وأكل « أبي » . دمع الباب بيضاء وأطل برأسه .. ليسمع كلامي
هذه ، وعلت وجهه ابتسامة مشرقة وهو يقول :

— هاتت يا سهير .. لم يبق إلا بضعة ساعات وينتهي كل شيء .

والنكت إلى الممرضة بهيبة يقول :

— صباح الخير .

ثم تسأل قائلا :

— متى تتوون فك الجبس ؟

— غدا يحضر الطبيب .

— ومتى يحضر ؟ .. أعني متى تعود أن يحضر ؟

— لست أعلمه يغيب من الثانية عشرة .

وانتهت « اسل » من عطينها الصاحبة وتركت الغرفة .

وانتلت « أمي » وقد بدت الترحة على وجهها .. وأخذت تخرج من
الحقبة الثياب التي أحضرتها لي استعدادا للخروج ، وبنت يدها بهذاء
جذبة وتسامت في جفلي :

— ليحبك هذا ؟

وابسكت بالهذاء وتحمسته في رافق .. وانطلقت من صفري —

بغير إرادة — تبهدة راحة .

آن لي أخيرا .. أن أتباهى بهذائي !

آن لي أن أمد نفسي في مير شجل .. الاستعراض بها هذاء جببلا .
لم يعد لي من خشية من القمم المدلاة في حجر .. ولا من المشد
الحديد الذي يوهني مالي بت في حركتي أقرب إلى النسي .

واحبست أتى أوشك أن استمتع بالشيء حينئذ كنت أبعدها في
مدار التفكير ورغبتي ومجال أحلامي وأمنيتي حتى لا أضيق بالحرمان
منها .

وحلاني أن أحلم بغير حوب .. وأن أتهنى بلا وجل ، ورأيت نفسي
في أجمل ثيابي والهاء الآتيق في قمدي ، وأنا أخطر في رسالة ،
أو لتواب في خفة .

ومحدث يدي بالهاء أعيده إلى أبي قللة :

— شعبي قريبا متى حتى أستطيع رؤيته غلما أريد .

ووقعت « أمي » الهذاء وأخذت تتشائل بترتيب أراج الدولاب ،
ولغد أبي يروح ووجهي كأنه يعمل شيئا .

وكان بنا إحساس المقبل على نهاية الشوط .. نطو نوسا لمرجة
بخللاص منه .. ونشعر بالطلق من تنجته .

مرجة مشدودة بالشك الذي يحاول كل منا أن يكبته في أعيناه
حتى لا يضايق به الآخرين .

وانتصف النهار دور أن يقبل علينا الطميط أو بمساعدة لتبدأ عملية
إزالة الجبس ، وأخذ تلقى الانتظار يطمس معالم الفرجة ، وتركزت
أحاسيسنا في الإنمصات إلى وقع كل قدم تقترب من باب الخرفة ،
وإلى استراق النظر إلى مقرب الساعة نرقب مدى سيره .

وطرق الباب وانفتحت في ردتني ، وأسرع « أبي » يندفع ،
ولصابتنا الفجأة ونحس نرى الحاتمة السوداء تحيل حينية الطعام وتقل
بأسنة تشعبها على الكوموديتو الصغير بجوار التراس .

وإزال « أبي » اللطاف عن صفاء الطعام .. وهو يبدى به
إعجابا مصطنعا يحاول أن يفتح شهيتي له قائلا :

« الله .. لعبة لذيذة .. وسلطة تشبع النفس .

وسفرت إلى أبي في عيظ . فقد كان يعلم في حرارة نفسه أن طعام
الإحتياز هو آخر شيء يفتح النفس إلى الطعام .

والثبت نظرة على القرميوط المسلوق وعلى طبق الشورية الشسيمة
سالماء المكر ، وأحسبت أن تلقى الإنتظار قد أضعاع ما يمكن أن يكون
قد تبقى في نفسي من شهية للأكل .

وقلت لأبي وأنا ألتصيح نوحى من صينية الطعام :

« إذا كان يهيجك .. كله أنت .

وانحد أبي يظهر الجد وأجاب في صرامة مصطنعة .

« يجب أن نأكله يا سبير .. أنت تطيبين أنك في حلمه إلى
الطعام .. لأنه علاج لك .

وأجبت في إصرار :

« أليس لي رغبة في الأكل .

وتدفقت أُمي قائلا :

« دعها الآن .. لقد أوصيت « لطيفة » أن تعفر لها مرحة بديرة ،
ومكرورة .. و ..

وأحسبت أن بشكلة الطعام قد حلت .. وفعت أتمت من جديد
إلى وقع الأقدام المقتربة من الباب .

وطال انتظارنا يوماك .

حضرت « لطيفة » ومعها الطعام ، وشكرتها « أمي » من كل
ما تكلفته من بشقة من أجلنا .

وحضر الدكتور هاشم .

وأكلت .. وحضر روار واتصروا ، ودخلت ممرضة تسأل هل أتي
الطبيب ثم انصرفت .

وبعد الوقت بطينا بيلا ، وقيل تلقى الانتظار كل ما دفعه الأمل في
موسما من مرحة وإنتحاج ، ولهبعد أهدينا يحاول أن يخلو ما بنفسه

من ضيق .

ساد الصمت .. إلا من ثرثرة مبتسلة تحاول « لطيفة » أن تذهب
بها الشيق من نفوسنا .

وأسلمني الصيق لغموة صحت منها على مسسب في الحجرة
وأبصرت رجلا يرتدي مريلة بيضاء يمسك بقميص كبير .. وتلفكي

إحساس بالرحمة وتظرت إلى أبي من وجل .

ورسم أبي ابتسامته المظنونة على شفاهه وقال لي :

« سيزرع الجبس الآن .

« لأن يؤلفي ؟

« أبدا .. سيصق الجبس دون أن يمسك .

وحرج كل من بالحجرة عدا أبي .. وبلاى بالطميطينة وجوده إلى
جوارى .. لقد كنت أفسى أن أهدا لا يصر على إيلاس وهو موجود

.. وأنه يستطيع أن يدفع عني كل لذي .

وتحمس « أبي » شعري في هنان ، وأمسك كفي مطمينا وبدأ
الرجل ميله في قص الجبس .

وسار المصق يمشي الجبس من الجانب الخارجى من أملي وكأنه
يتمسه قطعة قطعة .. وتقل سيره سهلا .. لا أكاد أسمع إلا حافته

الساردة تاليس حلدى .. حتى وصل إلى المفضل وشعرت به يصخط على
منطقة العرقوب بصركت الما .. ونظر إلى الرجل ذو الوجه معفرا ،

وأخذ يتהל في سفلته على المتن .. حتى وصل إلى حلبة الجيس
السفلى .. ثم استقل إلى الجانب الداخلي .. وأحد في القمى حتى شق
القلب مصفين نصف سفلى تستقر فيه الساق ، وأحمر ملوى
أشبه بالقطار .

ورفع النصف العلوى ، وبدأ يربل القطن والثلاث من فوق ساقى ،
وبدت الساق رفيعة .. غشة الجلد .. وتلكنى من مفرها إحساس
بالقوى .. وما لبث الرجل أن أعاد القطاء الجيسى فوقها قتلا لاي :
— سيقى هكذا حتى يقوموا بإجراء الأشعة عليها .

ولم يكذبني من قوله حتى أقبلت الممرضة وبمها أحد الحراس
لجر الفراش إلى حجرة الأشعة .

وعاد الحرف يساورني مما يوشك أن يهل بي .. ونظرت إلى
« أبى » استنجد به وقلت له في توسل :

— لا تتركنى .

وشد على يدي مؤكدا :

— أبدا يا حبيبتي .

— ستذهب معى إلى حجرة الأشعة ؟

— طعما .

— وإذا لم يسمحوا لك بالدخول ؟

— سأفعل رغم أتومهم .

وعادنى الإحساس بالطبائفة وأنا أرى « أبى » يسير بجوار
فراشى المتحرك الذى تدفعه الأيدي في الممرات الطويلة البيضاء حتى
يلف ألبم المصد الكبير .

ورأيت حارسة المصد العرجاء المجوز ، ذات الوجه البشوش
والنظرات المانية تقول في عطف وهي تدوس على زر المصد :

— سيسمح كل شيء على ما يرام .. لى ابن أختك كان مثلك في
يوم من الأيام .. واليوم أصبح بطلا من الكرة ..

ولم أكن في حالة نسح لى بأن أكر فى ابن أختها الذى أصبح

بطلا من الكرة .. وأن أجعل منه أبلا يدفع الطبائفة إلى نفسى .
كنت أطبق على كف « أبى » .. محصر الإبن الوحيد الذى كل
لى وفنذاك ، وكنت أحمس له برجالى المحاد .. « لى تتركنى » .
ولم يمل هو من تكرارها بل كان يشد على يدي ويؤكد بنظرانه
« أبدا يا حبيبتي » .

وتوقف المصد .. ودمع الفراش إلى الحجرة المقابلة لبلبه ..
وابصرت القوائم الطويلة والأجهزة المذلة من السقف والمنزلة على
الأرض .. وعدت أشد على يد « أبى » لأدفع عن نفسى أشباح المخوف
اللى تنكسر على ..

وحلفتني الممرضات إلى فراش الأشعة بعد أن أخرجت ساقى
من ثلب الجيس المفتوح وظللت بنى إحداهن أن اكتم نفسى ، وسبعت
أزير الآلة يصح ثوان .. ثم سللت أن أطلق النفس طبعيا .

ومرة ثانية .. وثالثة .. وأنا ألقب الصربين سلف الحجرة ، ووجه
« أبى » ووجوه الممرضات الصلبة .

وبدا لى « أبى » كأنه يسير على حفة هالوية .. لم يستطع بكل
ما يملك من قدرة على كتمل المشاعر ، والسيطرة على الأعصاب ..
أن يخلق فيه الدافع ، أو ينشر على شعته الانسحابية المطبقة ،
أو يستعيد نظراته الشاردة بعيدة .. بعيدا ..

وانتهت عملية التصوير ، وقلت إحدى الممرضات وهي تحتنى داخل
أحد الأبواب :

— لحظة واحدة حتى نتأكد من سلامة الصور .

وجرت مرة انتظار أخرى .. قبل أن تظهر الممرضة على هيئة
الباب ثقلة :

— حسن .. كل شيء على ما يرام ،

وأقترب منها « أبى » متسلا لى لهفة :

— هل استطيع أن أعرف نتيجة الأشعة ؟

وهزت رأسها ثقلة :

وأعاد الفطاء الجبسي فوق الساق ، ونظر إلى نظرتة الفلانة
التي لا تحيل معنى .. ولم شغف ، ولم يقل شيئا .
ولم يحاول أحد أن يطلع صيته حتى نظر هو إلى « أسي » قائلا :
— أريد أن أحدثك في الخارج .

ونظرت إلى « أسي » .. فاحسست من عينيه كل قواء ظفوره ..
كان بدا قوة تجذبه إلى أسفل .. وبدأ لي وهو يرفع كتفيه ويبرز
صدره للأمام كأنه يقاوم ذلك الشيء الذي يهبط به إلى أسفل .
وازدحم « أسي » ريقها بصمومة كان يدا تطبق مستها .
ونادى الطبيب المجرة وهو يربت كفي برناق .. وتبعه « أسي »
ووراء الاثنين سارت « أسي » كالمفوضة .

واحسست أن الثلاثة قد استقروا وراء باب الغرفة .. ولم أهرق
ماذا قال الطبيب « أسي » .. ولكني لم أتوقع قط شيئا سيرا ..
واحدت أنتظر هودتها بإحساس مبدل .. لا أبل .. ولا يكس .. مجرد
انتظار مستسلم .. بذهن .. لكل ما يأتي من القدر .

— سيصرفها الطبيب .
والثقت « أسي » حوله وهو لا يجد للطبيب أثرا .. فسال :
— ألم يحضر الطبيب بعد ؟
وعانت الممرضة تهز رأسها غائلة :
— لا أعرف .
— وماذا سيفعل الآن ؟

— ستمدون بها إلى الفرائش ، وتبقى سالتها موضوعة بين سطرى
الجبسي حتى يحضر الطبيب .
وبدا الشبل على وجه « أسي » وهو لا يجد أحدا يطمئنه على
نتيجة طلق تركها .. ويعد الجبسي قد فك ، والشمعة قد أجريت دون
أن يبدو للطبيب أثر .

وعندنا إلى الحجرة ، وأقبلت « أسي » في لهفة لتسأل :
— ماذا فعلتم ؟

وأجابها « أسي » محاولا ألا يجعل ضيقه يبدو على وجهه :
— أجرينا الأشعة .. وسفلي في الجبسي حتى يحضر الطبيب .

ومضت ساعة ثقيلة أخرى لم يحاول أحد منا أن يسطع الطمانينة
أو الهدوء .. ولا استطاع أن نثرتة على الثرثرة أن يبعد ذلك الصمت
الذي خيم علينا في انتظار الطبيب .

وأخيرا أقبل الرجل .. بقيته الطويلة .. وحاجبيه الكثيفين .. وحيا
الجبس الواجم بابتسامة مريحة .. وخرج الروار عدا أسي وأسي .. وربت
الرجل يدي ثم رفع الفطاء الجبسي عن ساق .. وأخذ في فحصها
برناق .. وتهسس العرقوب والكعب والإصابع .. والانتظار كلها معلقة
بمعليه عليها تستكشف من نظراته ما ينبغي عن شيء .

ولكن نظراته ظلت جامدة .. ومعلم وجهه لا تحيل تحيرا ما ..
لا بسمة أمل ، ولا ضيق يأس .

واحتل في وقتها وأطلق تنهيدة قصيرة .
ثم عاد بفحص الساق مرة أخرى .

يكن هناك إلهاء بأنباء طيبة .. إلا أنني أحسست بتثقل يطبق على
صدرى وأنا أحد أئمة نبي العرب من سجنى الموحش والعودة إلى
الوطن يتبدد .

وهيئت متسائلة وأنا أحاول أن ابتلع الدموع التي توشك أن
تحبس الكلمات في فمى :

— سيكت مدة أخرى ؟ .. لماذا ؟

— الطبيب يرى أنك فى حاجة إلى البقاء بعض الوقت للرعاية
تحت مراقبته .

ولم أكن قد حولت أن أخبر قدرتى على تحريك تدبى فقد كنت
أفشى أن تسبب لى الحرية أى نوع من الآلام . ودعنى قول « أبى »
إلى أن أهرب حركتها داخل شطرى الجبس الملتصق عليها .

ولم أسمع وأنا أحاول التجربة أن جديدا قد طرا على سلقى قبل
العملية .. كتلت كما هى .

أحسست بالشئ الذى يطبق على صدرى بزداد ثقلًا ، وبالدموع
التي أحاول ابتلاعها .. تدلج لتلأ عيني وتحقق صوتى وأنا اتول بتسائلة
فى خوف :

— سيكت مدة أخرى ؟ !

وأطرق أبى وهو ما زال يبطل كل ما يملك من جهد حتى لا بدع
الابتسالة تغلث من فوق شفتيه :

— أجل .. ستمر بسرعة كما مررت المرة الأولى .

ونظرت إلى صندوق الجبس المشطور الذى وسعت فيه سالى
وعدت أمال :

— أسيرمون الجبس ؟

وبدا التردد على وجه أبى .. وأصررت الابتسامة التي جاهد منذ
أن دخل الغرفة نى شددا إلى شفتيه نثر هاربة ورأيت يزدرد ريقه
وخزجت من صدره زفرة هارة حملها الكثير بما كان يصطفى نى

مجرد دعوة

بضحت برهة قبل أن يلتصق الطبيب حديثه مع أبى خارج العرفة ..
ولم استطع بالطبع أن أعرف تفاصيل ما دار بينهما .. ولكن من الطريفة
التي خرج بها الطبيب وسؤاله أبى أن يتبعه .. ومن بلامح « نى »
عندما أتى الحديث وأقبل على .. لم أتوقع كثيرا من الانتباه
الطيبة .

ولم يكن وجهه متجهيا .. ولا هائسا .. بل كان يضحك نى جنل
واغتباط .

ولم تكدعنى ضحكته بالطبع .. ولم يصعب على أن أدرك أنه
يسر بها لشئ لا تحت إلى الضحك بسلة .

وأدهشنى أنى لم أصر أبى تدخل وراءه تسالته قائلا :

— أين يلى ؟

وبدا عليه الارتباك وهو يجيب :

— أظنها نى الخارج مع لطيفة .

وأقرب منى وهو لا يزال يشد الابتسامة العريضة على شفتيه ،
وانحنى يتخسس شعرى ويريت خذى برفق وبدأ يلتصق بأول دلمعة
من ابتكائه التي يسرها بابتسامة ثقلا :

— يبدو أننا سيكت مدة أخرى .

ورغم كل ما كنت أحس به من شعور بالاستسلام .. رغم أنه لم

صدره .. ونظر إلى من ملأ شديدا وقال بلهجة حاول جهده أن يحلها
كل ما تبقى فيه من ثقة وإيمان :

— الحقيقة أننا سنحتاج إلى عملية أخرى .

لم يستطع أبي أن يحثي عن الحقيقة .. كان يتق بى دائما .

كان يتق بشجاعته .. بخبرتي على الفهم .. وبواجهة الواقع ..
والتسليم به .. والصبر عليه .

ولم أكن أجعل مدى ما يبرح نته من عبء الهزيمة والخذلان ،
ولا استطاع مظهره الصابر المتجمل أن يحدس ، عما يستتر من آلام
الصدمة والتعبير الهنس .

وكان خليقا بى .. وقد منحى الثقة وواجهنى بمراحة وشجاعة ..
أن أكون أهلا لثقته .. وأن ألم حطام نفسى وأواجهه بنفس الشجاعة
والصبر .

ويشهد الله .. أنى — من أجله — قد حاولت .

ولكن دعوى كانت أسبق من قدرتي على أى تطاهر بالسر وإدعاء
للشجاعة .

انتهرت العمرات من عيني فى صمت ثم استبعت من مشدات مشلات
وجهى وحلقتى وصدرى فى مشيخ عنيف عاصف .. تركتى أهتر أهتر
الوتر تحت شربة يد نظة تاسية .

وس خلال فتاوة الذمخ المعلق فى علقى .. أسررت « أبى » ..
وكان شيئا يشده إلى أسفل .. فيصلى حالته المنصوبة .. ويهمل كتيبه
المريضين .. ويطلقه رأسه المرفوع .

وبدا لى فى دمس الزجاج كأنه مودايل أو جدار منهار .

ودون أن ينس بكلمة .. أو يد إلى « بدا » .. تهاوى على المقعد
بجوار الفرائش .. وأستند برمق يسراه على حافة الحشبة ومال براسه
على كتفه .. فأغلى بها عينيه .

وأحسست بأنه يبكى .

ولا شيء يبرقنى بكلمته .

ومدحت يدي انحسسى بها كنه التى ألقى بها عينيه .

ومصت نثرة صبت قبل أن يتردد الذمخ الذى سقط من حلقه
ويرمخ جنبه من عيين محترئين ويرغر رمرة قصيرة حارة ثم يهتف بى
راحيا :

— لا أريحك لى تفكى .. سألعل كل ما تريد .

وبلهجة بخولة سألته :

— أريد أن أعود .

ومصت برعة ينكر ثم تصال فثلا وهو يغس يدي فى كنه برمق :
— ألا تهاول مرة أخرى ؟ !

ودفع إلى سؤاله .. بكل ما ألقته من آلام ومثاقب ، خلال رقتى
فى سجنى الموحش الكتيب .

مطر غمرة الحيليات المتفرع .. وآلام سألنى بعد المصلحة ..
وعطشى .. ولحم الذى ينسج من الجبس ليحرق الملاءة .. والليل
الموحش الطويل بكل ما فيه من مخاوف وأسماع .. والأيام البطيئة ..
تتلفها الوحدة والمثل .. والنساء القاتمة بسحبها المكتسبة السود ..
ويطرها المنهر كتموع التكللى .

كل شيء موحش .. يفيض .. ألهم .

وينير وهى .. اتلخ الذمخ إلى عيني مرة أخرى .. بشد وجهى
ويحتق حلقتى .

وصعط أبى كفى التى لم يرل يضيها فى يده وقال لى حرم :

— كفى .. سنعود .. ما دمت تريدون ذلك .. ولنفضل الله بنا
ما يشاء .

وأحسست بالعبء الثقيل ينراج من كاهلى .. وحيل إلى لى
لأول مرة استطاع أن انفس بحرية .. فأخذت شهباء طويلا تنظمه
دعوى الفتاة .. ولطفته زهيرا مريحا .

وسألت « أبى » فى لغة :

— سنعود إلى دمشق ؟ !

وهز : أبى : رأسه قفلا على شروء :

— أجل .

ولم يقل بالطبع .. إننا سنعود .. يكسورى الحطر .. خلتى
الرجاء .. نجر ورامنا ذبلا طويلا من خيبة الأمل ومرارة اليأس .

لم يقل هذا .. فقد كان أكرم من أن يضاهى به .

وإن كنت أحسست به على شروء بظرائفه .. واستسلام سبيلته .

وكان على أن أخلف عنه بدورى وأبرر له إصرارى على العودة
.. ورفض البدء لتجربة أخرى .

وقلت على رفق وهو :

— أنا سعيدة هكذا .. لم أشك أبدا من مالى .. إنها لا تضايقنى
.. هل تضايكنكم أتم ؟

وهز : أبى : رأسه وقال مؤكدا :

— أبدا يا حبيبتى .. إنك على خير ما يرام .. أنت ست التفتت
.. كل ما تصنعه .. ألا تقصر على جهد يمكن أن يجعلك أفضل .

ولقد علمنا كل ما نملك من جهد .. فما الذى يضايقنا ؟ !
وتضاحك : أبى : قفلا :

— لا شيء .. لقد حاولنا أن نكون أكثر صبرا .. وتجرب مرة أخرى
نقد ننحى مبدأ أحققنا فيه أول مرة .

وبدأت أحس بالضيق من مجرد ذكر التجربة الأخرى . ولحظ أبى
الضيق على وجهى فقال مهذبا :

— لا تضايقنى .. لقد وعدتك بالعودة .. ما كنت تريد ذلك .
ونظرت على وجه أبى محددة .. وتساوت عجاة :

— ماذا قال لك الطبيب ؟ .. قل بصراحة .

— بل سأقول بالحق ، لأنى أحب أن تعرفى كل شيء . كما سبق
عودتك .. لقد قال إن زرع وتر العضلة المشلوله لم تنجح .

— لم يستطع أن يحدد بالضبط .. فكري عدة أسباب . قال إن

بعضها أو كلها قد يكون سببا لعدم نجاح العملية .

— وهل طلب القيام بعملية أخرى ؟

— قال إنه يستطيع أن يحاول مرة أخرى .. فقد تنجح .

— أو تفشل .

— نرجو الله أن تنجح .

— لقد رجواناه فى المرة السابقة .

واحصست كائى أزوج بنفسى من شرك التجربة الأخرى . ولم يكن
قد مضى لى من رجاء فى شيء .. سوى العودة إلى دمشق .. فبرزت
راسى فى عنف وقلت على إصرار وبلى صوته اختناق بكاء :

— أبى أنتى .. أريد أن أمود . لو بقيت سيخفى على ..

وعاد أبى يقول مطمئنا :

— سنعود يا سهر .

ثم أطرق وقال كاتبا يحدث نفسه :

— ليتنى رغبته بالعملية الأولى .. التى اقترح بها أن تثبت بعمل
القدم .. وشيء خير من لا شيء .

ومعدت يدي أشبك أصابعى بأصابعه ثقلة .

— أنا سعيدة هكذا .. لا داعى للندم على أى شيء .. المهم أن نعود .
ونلى غيرة لهفتى على العودة سألته :

— أين مايا ؟ ! أريد أن أراها .

— عادت إلى البيت .

— قلت إنها تجلس مع لطيفة ؟ !

— لقد عادت بها لطيفة إلى البيت لأنها كانت مستطع منقادا إليها
الطبيب بأفئاق العملية .. وطلب منى الطبيب ألا ادعيا تدخل عليك
وهى بهالقتها تلك .. فذهبت بها لطيفة إلى الفندق .

وتلكتى الحزن على أبى الحبيبة المسكينة .. وكهرت نفسى ل
أسبب لها ولانى كل ما سببت لهما من متاعب .. وتنبوت أن أصيها

إلى صدري وأؤكد لها أنى فى حالة طيبة وأنى لم أتصابق قط لإخفاق
العملية .. وقلت لأمى :

— وندت لو أراها لأطمئنها على نفسى وأؤكد لها أنى محير .

— سأبذلها لك .

— لن نتزوج .

— وماذا تفكرين ؟ !

— نطلبها بالثقبون .

وربع « أبى » السبابة وطلب رقم الفندق .. وبعد برهة سمعت
أنا صوت « لطيفة » المرتفع يهتاف :

— آلو .

— أنا عبد الهادى .. أين غلطية ؟ !

— راقدة .

— كنت سير تريد الحديث معها .

— لقد أعطاه الطيب قرصاً بنوما .. والفضل أن آدمها
بمشرحة .

— كما تشائين .. كنت فقط أريد أن أطمئن عليها وأطمئنها .

— كيف حال سير ؟

— تريد العودة .

— وأنا أيضاً أتمنى ذلك .. عندما تسريح من العملية الأولى
يمكنكم أن تمودوا بها مرة أخرى .. تكون قد تماكنت شوها .. وتكونون
أتم فى حالة أهدأ .. ويكون الطقس أفضل .

— ليس ألباناً غير هذا .

— وهزيت رأسى فى عناد وقلة :

— لن أعود إلى هذا البلد ثانية .. مهما حدث .

— ووضع « أبى » السبابة .. وتنهت قتلاً :

— يحلها ريشا .. من يخرى .. لقد نطلبين أنت العودة ؟ !

— لن أنزل أبداً .

— وهكذا استمر الراى على العودة .

ولم يسألونى وتذكرك أى إحساس بالغبية أو الخذلان .

كأن كل ما فيه هو الحياة بجلدى .. من الليالى الموحشة التى
يمكن أن أجوس عمارها مرة أخرى وحيدة مرلاً فى هذا البلد الذى
الوجه القاتم والمظلم الكثيرة العابسة .

لقد بكت الحلاص من ردتى العاجزة حبيسة القفص الجبس لئبى
فى حد دانها .. طيمست ما عادها من ألبهات مسح لها الأمل الطو
أن نطلى برأسها جلسة فى لحظة تقاؤل قبل مجئ الطبيب وإعلان
الإحراق .

لم تمد تسألونى رغبة العدو أو الوئب ، ولا عدت أنفيل نفسى أخطو
من رشاقة واعتزاز .. كل ما كنت آمله .. هو العودة .. مجرد العودة .
ولست أنظر أبوى قد شاركنى مشاعرى .

حاول أبى أن يبدو قائماً راسياً بتضاء الله .. وشاركنى امتسانى
.. ومشروعنى المتواضع عبد العودة .. ولكنى كنت أصبغه من آونة
وأخرى منلبسا مشرود فى نظراته أو مبعوس فى مبياه .. يتضخلى
مدى إحساسه بالمرارة وغيبة الأمل .

ولم أكن أبك مقاومة إحساس الحزن الذى يتسرب إلى نفسى من
نفسه المحزونة البائسة وأسأله فى إشتاق :

— مالك ؟

ويهز رأسه وكأنه ينفض عنه يداً خفية تتسائل لئبىك بعنفه وقضيق
عليه الخنلق :

— لا شيء .

— واعتف به من أمبلى لملى أدفع إليه بها أحس به من رشا :

— أنا سميدة .. حقيقة ليس هناك ما يضايقنى .

ولست أظن أن هناك ما كان يمكن أن يندفع عنه الحزن . بل
قولى هذا .

كنت أرى وجهه يشرق وهو يضيئ ظيلا :

— الحيد .. الحيد .. على كل شيء .. أنا لا أريد أكثر من أن أراك راضية سعيدة .
كذلك كان « أبي » .

أما « أمي » .. فلا أنقلني استطعت أن أنتزع منها شبح انصاية . كانت صديقة الحياة أقوى من أن تغارها .. وتنبضت من رفقها في اليوم التالي .. وهي تتحرك كالشبح ، وتحقق فيها كالمأخوذة . لقد خدمها القدر .. ما في ذلك شك .

جبل شملت .. يبدو لها كالحقيقة المؤكدة .. وأطلق لها العنان في مروج أحلامها . غرات أن تجسد لنفسها الآياتي .. وتحقق الآياتي . وكنت أعلم جيدا .. ألفتها مبرها .

أنا .. كمروسي .. بكل ما أعنته لي من جهاز .. ورسنه من ترتيبات .

أنا .. مروسها الخطوة .. الرشيقه الأنيقة .. أخطو في طريق فرسته بكل ما تملك من حب وجهد وتجارب وآمال .. أخطو فيه .. برحة الخطا .. لا أجر فيه .. سلفا ملحزا .. ولا أطره بشد حديدي .. ساورتها ولا شك كل هذه الأحلام .. واستقرت في ذهنها .. استقرار الواثق الحق الذي لا لبس في وجوده ولا شك في تحقيقه . وفي غمضة عين مسحته كف قاسية كما تيسح الريم .. لتلقى به من سطح الوفاء .

وكنت وأني نعرف ما يمكن أن يصيب أمي فحاولنا أن نتعاون على التخفيف منها .

وقلت له وأنا أرى الحذاء الأنيق الذي أعنته لي لكي أخطو به أول خطواتي بعد الشتاء . ما زال يطل من موضعه الذي وضعته به « أمي » لكي أراه دائما .. ولكنه يخرج لسانه في سفرة :
— أخط الحذاء حتى لا تراه أمي فيثير لعناتها .

وأبسط به الأب ضاحكا .. محاولا ألا يكون أقل مني شجاعة ومبرها .

وقال وهو يخاطب الحذاء في مرح :

— سنبتلك إجازة مؤقتة .. لا نظن نفسك قد نجوت منا .. سنعود إليك مرة أخرى .. لنترج بك أرض العالم كله .. أصبر عليك قليلا .

وتلت « أمي » حوله بلحنا عن مكان يضيئ فيه الحذاء عن عيني أمي . وأحد يحوم حول الفراش قليلا في حيرة وهو يهر الحذاء في يده :
— أين نعليك .. أين نعليك ؟

وحدة رأيت يده في جيب المعطف .. ويتهد في ارتجاف :
— هنا لن تقع عليك مين ... ساهلك حتى أضحك في حقيقتي . وسالت « أمي » في حيرة :
— وإذا سكت عنه ؟ !

— لا أنظنها ستكون في حال تسمح لها بالتصميم على الإحتبة .
— أبدا .. أنا أعرفها جيدا .. أول لفتظه عند حضورها .. سيكون السؤال عنه .

ورفع « أمي » كفيه مستسلما وهو يخرج الحذاء من جيب المعطف ويعبده إلى موضعه .
— تترك لها ليعتقن .
وصيت قليلا ثم أرتد بضاحكا :
— على الحذاء .

وبهذا الأسلوب بدأت وأبي .. نتنزع الضمككت من جوف الآلام .. نستربها برارة الهزيمة وأرجاع الإخفاق .
ومرت بضعة أيام في العلاج الطبيعي والتدليك على ثني الركبة والسير .. حتى استطعت أن أغادر الفراش وأسير مبتكة على عسا . وغادرتنا المستشفى ، وبدأنا نعد الحدة للرحيل . ولم نعد لدينا إلا أيام القلائل التي سبقت الرحيل أي نوع من المتع .

كل الجوع معنا متخفا .. ونضع الجولات التي قمنا بها في عربة
« الدكتور هاشم » .. حول هابديبارك .. وريجننت بارك .. أدت لنا
كل شيء بمقرا أحرد .. تصممه الريح الباردة ، في ضيق وحرق ..
والناس يتدافعون في الطرقات كأنهم يفرّون من شيء ، أو يلاحقون
شيئا .. ولا يكاد يجد الإتساع دلالة على أن هناك من يستريح بشيء
.. بل كل شيء .. يمر من كل شيء .
وأخيرا حالت ساعة العودة .

ولست أفكر بها شيئا طيبا .. إلا إحساسا في بطننا بأنها تؤذي
لي بالعروب من سحر موحش مغمم ، وتمبذني إلى بقعة مؤنسة مشترقة .
وحلفنا عربة « الدكتور هاشم » و « الدكتور جيل » إلى المطار ،
وجلست وأمسى ولطيفة وبقية الأحقاء المودعين سطر أن تنتهي إجراءات
السفر من وزن ولحمص وتكسيات .
ولم يستطع أحد منا أن يتناول إحساس المرارة والخيبة الذي صلب
موقفنا .

ثرثرت « لطيفة » .. وشحك « الدكتور هاشم » وبابل « أبي »
صحكه بشحك .. وانطلقت مريحة من هنا ، وبكتة من هناك .. كل
هذا كرتين العملة الرائعة .

ولا يلبث الإحساس الحقيقي بحياة الرضاء أن يغلب كل هذه
المحاولات المتقطعة للروح .. وعجاة يسود الصمت ويبدو الشروع في
الأميين ، وتستغرق النظرات إلى نقطة أسفل القعد الذي استقررت عليه ،
وسرعان ما تنزع النظرات بعيدا .. حشبة الشمس بالعطف والثناء .
وأخيرا .. وقفنا للوداع .

وقبل أن تبد « لطيفة » ذراعيها لتعتصمني رأيتها تحلق في دهشة
وتبهك متسائلة :

— هدي ابن أخى .. ماذا أتى به إلى هنا ؟

ثم صلت :

— هدي .

والفقا حيث تشير .

واقبلت أنت علينا ، وقد ارتسبت الدهشة على محبك الحجول ،
وعادت خاتك « لطيفة » تسالك :

— ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا لم تشر علينا ؟

— لقد حضرت من « ولتشي » رأسا لاستئيل ريملا ناديا من
القاهرة .

ورأيك تسترق النظر إلى ساقى .. ولم تستطع أن تغطي الدهشة
وانت تراها لم ترل حبيسة المشد الحديدى .. وبنت عليك العبارة
ولم تحرف أبدا نقول .. وعطرت إلى « بمتسا » في رفق ثم قلت لأمي :

— كيف الحال ؟

وأحاذك أمي الإجابة التقليدية :

— الحمد لله .

ولم تقل أكثر من هذا .. لما كان هناك شيء يقال .. وما كان
الوقت يسمح بكثير من تحية وداع .

ولم تستطع أن تسمع نظرة إشفاف شيعتني بها .
وددت لو قلت لك أنني من غير حاجة إليها ، ولكني لم أملك
إلا أن اتفلقها منك كما كنت أقتل من الناس كل مظاهر الإشفاف .

وسرما وراء المسيفة وصعدنا السلم إلى قاعة الانتظار والفتنة
إليك بلوح لكم بأيدينا .

وكل هذا آخر ما رأيناه في رحلتنا المسائفة .

واستقر بنا المقام على مقام الطارقة .

وشدخت العرام .. ووضعيت قطعة الصلوى في عيني .. ثم
تلفست المسعداء .

أخيرا .. انتهى الكابوس .

وعدت كما أتيت .. وكلفت حبيبة تسري في أنني :

— لم يكن هناك داع لكل هذا التعب .. سيمحك الله التعب
منبأ يشاء في أي مكان .

وأردفت لنفسى فى شيء من التهمك :

— أو لا يمتعه .. فى أى مكان .

ونظرت من نافذة الطائرة .. لأرى ملامح المدينة الثانية تبتهت
رويدا رويدا .. بأسطحها الصخر المائلة .. وسارها الموصومة فى
خطوط منتظمة كأنها تمس الأطلال .

واختلت معالم المدينة وسط لكداس السحب السود الكثيرة .
وأمتلت الطائرة طبقات السحب .. وجاورتها إلى الشمس
المشرقة ، والسماء الصافية .

وانطلق ذهنى مع أطلالها .. إلى بلدى الحبيب .. إلى دمشق
الطيبة المأمنة .. حتى غلبنى التعلس .

ولم أبق كثيرا برحلة العودة .. تصبها بين طعام .. وقراءة ،
ونوم .

حتى سمعت المصيلة تهتف فى النهاية .. طالبة أن نشد الأحزمة
ونمتنع من التخصيص راجية أن يكون قد استمتعنا برحلة طيبة .. مع
الكئين .. الخ .. معلقة أننا نوشك أن نعيد فى مطار دمشق .

وأصصت بفرحة غامرة ، ولنا أرى دمشق قد لاحت من عل .
وبدا لى الجبل يحضن المدينة ، واستطعت أن أبصر خصرة النوبة

من بعيد ، مسيجة بتسطوة .. وبت لعبتى الطرقات والتدب ، وأسطح
الدور ، والشجار السرو الطويلة الجرد .. وتنبئت لو أجد ذرامى من
النافذة لأشم كل هذا وحاولت أن أرى بيتا ، لكن الطائرة استدارت
تبهت فى المطار .

ولحسست بطرقات عجلات الطائرة تمس الأرض ، ثم استقرت
بنا الطائرة أخيرا .

وفككت الحزام ، ونهضت أستاذ إلى فراغ « أبى » .

وبدأت أطلع من خلال النوافذ على أرى الأجزاء من مستقبلينا ،
ونجاة بلكنى إحساس بالضييق .

هنا سيكون وقع ينظرى عليهم وهم يروننى أجز سائى بالمشهد
المعديدي .

أى إحساس بالخفية سيبدو على وجوههم .. وأى نظرات رفاء
وإشفاق لك التى سيفترقنى طوياتها .

ونظرت إلى أبى كالى أستاذ به وهبت قلقة :

— سأغيب ألبهم .

وهز أبى رأسه وهو يحاول أن يتجلد ويبتلع آلامه :

— لقد أعطينهم فكرة .

— متى ؟

— كبيت إلى خالك « حفيظة » فى اليوم التالى .

وأصصت بقلب بنزاع من فوق كاطى .. لى أناجئهم بخفية
الرجاء .

لقد اتفخوا من حزنهم ورتائم وشفتهم ، وسجد كل منهم لوتت
الكالى لرسم الإنبسية على شفتيه وبعد كلمات الحمد والرضا .

وهبطت من سلم الطائرة ، وكان أول من وقع عليه بصرى .. الخلة
« حفيظة » وأنها حسن وزوجها ، ووراهم استطعت أن ألمح « سلمى »

تحاول أن تحد لرأسها الصغير متفذا بين الأجساد المحتشدة .

وكما توقعت .. استطاع كل منهم أن يرسم الانشابة على
شفتيه .

ولكن لم تك « حفيظة » تذبدها إلى « أبى » حتى اندفعت كلتاها
فى نوبة يكاء .

والثقت أنا إلى « سلمى » وضمتها إلى .. واستطاعت الصديقة
الطيبة أن تتبلك .

كبيت نيمها جيدا ، ونظرت إلى نثرلت ملأها الحب والمودة
وهتلت بى :

— العبد لله على السلامة .

وقلت لها فى فكر :

— أنا سعيدة بعودتى .. سعيدة بكل شيء .

وعاشت سلمى تغنى بشوق .

ولم تلتك طويلا حتى حبلتنا العربة إلى البيت .
 وعطت من العربة ولاحت لي الياشبية التي تطلو بلفظي والشجرة
 التي تطلل البيت ، ورايت المحبة كلها اسم الطريق الممتد أمام البيت
 في سطح الجبل .
 ومرة أخرى تسيت أن أمد ذراعي لصمها .. مكل ما فيها .. ناسها
 .. أشجارها .. بألونها .. بيلونها .
 تسيت أن أغم الجميع بين ذراعي ..
 ولكني لم أستطع أن أغم إلا « حنيئة » التي أملت تنعثر في
 بطنها .. وفي شوعها وهي تهلف بي بكية :
 — هذا لله على السلاية يا حبيبي .. هذا لله على السلاية .

الناس في الطريق

استقر في المقام من حديد في حجرتي المريحة ، ودارى المؤنسة ،
 وبلننى العنون المشرقة .

وعلمت فرحة العودة كل إحساسى ببرارة الحية . . وبدأت الألام
 تمر بنا مريحة هائلة .. ولأخذت حيلنا محراها الطليعى الذى تمودت
 أن تجرى فيه قل أن نساير إلى نفس . وانقشعت آثار الرحلة من
 نفوسنا ، وبذبت سحب القلق والتوتر والانتظار ، التي شددت أعصابنا
 وأرهقت نفوسنا ، وبدأنا نسترحى وما إحساس المرء براحة اليأس .

وشلكتنا لفترة ما .. غطت العائر من العتية بالإياب ، ولم أمد
 أحسى أن أبى يقتل الانشراح .. أو يرسم الانتسابية .. فقد بدا لي
 أنه سعيد حقاً .. بمجرد إحساسه أنى موحودة .. وأنه يرانى ويحدثنى
 ويضفى إلى صدره وقتما يشاء .. كأنما أئذرتة اللجربة المبررة في
 لندن .. بأنه قد يلقينى .. أو يعود بي وأنا أسوا حالا .. قعيدة ،
 أو طريحة الفراش .

كنت أرى في إقباله على .. فرحة دائية بأنى ما زلت كاتبة ..
 وكنت أحس في صيته ما يشبه صلاة حد صلقة .

ولم يكن هناك شك في أن مرحتى بالمودة ورصاى من كل ما صلحها
 قد حاولت في تخفيف آلام المحبة من نفس « أبى » ومن نفوسهم جميعا ..

إلا « ألى » التى كانت أكثر ارتباكاً بأحزانها الراسية فى أميائها بها
مفرأنا الطافية على سطح نفوسنا .

لم تستطع ألى فعل الخلاص من تنبذاتها المرة الموحمة ، ولا من
نظرها الشاردة بين هين وهين .

كانت تشرك الأهل والأصدقاء ، محباتهم . وكانت تنقسم فى وهى
.. ولكن لم تستطع قط على راحة البال .

لم تكن تحب أن تتصور .. كيف يمكن أن تكون عروسا حرجاء ..
كانت تنظر إلى « دانيا » بعين الأمل المقلقة . كانت تدعى ألى « أميائها » ..
فتضع على رأسى ناي العروس وتحيط وهى بالطرحة البيضاء .. وكانت
تأبى أن تدع المساقى المجاورة والمشد الحديدى .. فسدان جمال الأخت
وروعة الظلم .

استبد ألى رضاء من رضاء .. وس قضاة بالواقع الذى اعتبره
حيرا ما كان يحتل أن يحدث لى من مضاعفات .

واستمعى على لى الرضاء .. بواقع يلف حجر مرارة فى سبيل
ألى أميائها .
والباتون !!

حاولوا أن يخفوا أحزانهم بلباسات عريضة وصعكت برحة ..
ولقاء هاتى ماشى .. لم يحدث أحزانهم فلم تعد فى حاجة إلى الإحناء ..
ولم يمحوا يتكلمون شيئا فى لطفى .

أصبحت بحالتى تلك .. بسأتى العاجزة .. وبشدى الحديدى
شيئا طيبعا .. لا يثير شعورا يحتاج إلى إغناء .. وسلوا بى كما
يسلم المرء .. بزجاج بشروع أو رغبة مكسورة .. أمتاد رؤيتها كما
فى .. ولم يعد يذكر الشرخ أو الكسر الذى بها .

وواصلت خالى « حفيلة » تدابيرها فى مشروع زواجى بانها
« حسان » بلا امتياز لراى أى من طرفى المشروع ، أو حالته .

لم تعتبر الشرخ الذى بى يمكن أن يؤثر فى قبضى كعاهرة كريمة
.. ولم يلح لى من حنية الموضوع ما يجعلنى أتمنى فى محاولة إظهار

رأى فيه كعبت أمهات ووجع من أوجاعهن ، ولا وجدت فى محبة
« حسان » ما يوحى بأحسان أخذه لتدبيرات الأسرة بأخذ الجد الذى يجب
أن يتلوه .

وهكذا سار كل شيء إلى ما كان عليه بكل ما فيه من تأسف لا لظن
أن هناك ما يدور إلى إعادة سردها .

وانحد بكل شيء .. كل شيء فى حياتى الخاصة التى لا تتجول
حدودها بحب الأسرة .. بالأثرى والأصدقاء .

أما ألى من ذلك .. فى محيط البلدة كلها .. فأعتقد أن ثمة تنبيها
قد حدث يستحق أن يذكر .
لقد عدنا لنجد انقلابا قد وقع بالبد .

انقلبا أطاح بحاكمها القديم .. « الشيشكى » صاحب ثلث انقلاب
عاصر عمرى القصير .

ولن أحاول أن أدمى علما بما لم يكن لى به علم فى تلك الأمور
التي كانت تحدث وتتناقش .. بما كانت تطغى لى أكثر من حالة دهر ..
بصلى بها البيت كله .. لا سيما لى .. وامتداع عن الذهب إلى
المدرسة .. وتحذير من أن أخطر البيت .

ولست أظن الإحساس بالمطانية الثنية قد ملا نفوسنا منذ أن
وعيت فى هذه الحياة .. فقد كنت أحس دانيا بقلقى ألى علينا حتى
نعود .

ولم يكن ينتشع خوفا من الجنود الفرنسيين حتى حل محله خوف
من أحداث الانقلابات .

وبدأت أسبح أشياء الانقلاب الأخير من الروار المحتشدين فى دارنا
.. واتصت إلى الأحايث والمناقشات وانتسها من غير قصد .. ثم
أخذ الاستماع إنيما يستهوينى ، وبدأت أقرأ الصحف لأعرف ماذا يجرى
حولنا حتى أستطيع المشاركة فى الأحايث والمناقشات .

ولم تطل حالة الطوارئ التى فرضتها ألى على البيت نتيجة للأحداث

التي وقعت .. إذ لم يكن هناك ما يدعو إليها فقد استتب الأمن وسار كل شيء في مجرى الطبيعي بعد أن تم « الشيكني » استنائه — كما سمعت من الأحاديث الدائرة حولي — إلى رئيس مجلس الوزراء وغادر « سوريا » بعد أن انقضت تبة حلب — التي كانت تعارض حكمه — على قيادة دمشق .

وكان أول مظاهر استتاعي بحرية الانتقال خارج الدار ، هو زيارتي لبيت « سلمي » .. فقد ثقلت « سلمي » عصر يوم فسكني أن اتناول عشاء العشاء غدا وألقي طيلة اليوم في بيتها .

وقالت لها ضاحكة :

— « لم تأتي لي بعد بالخروج .. لأنها لم تته حالة الطوارئ .

— « ومنى سقنني ؟ !

— « عندما تنتهي المعارك الدائرة في الطرقات .

— « ولكن الطرقات حافلة .. والحوادث مفتوحة ، والناس يروحون

ويغدون إلى أعمالهم .. بلا وجل ولا خوف .

— « الناس مجائين مغابرون .. فقد يحدث انقلاب آخر .. وينطلق

الرحاس على رؤوسهم في أي وقت .. هكذا ترى أمي .

— « إذا في نظرها مغامرة محتونة ؟

— « طبعاً .. وهي تدعش كيف تتركك أبك نخس في الخربات

معرفة لأخطار الطريق .. ولقد هبت أول أمس باستنائك للبيت

هنا ، لولا أن سفر منها أبي وقال لها إن البلد هادي والطرقات

آمنة .

— « على أية حال سأحاول إقناعها .. فمن غير المعقول أن نظلي

جبهة الدار .. خوف حدوث انقلاب جديد .. قد لا يحدث أبدا .

وقلت لها مستسلة :

— « حاولي كما تشائين .

وافلتت أمي في تلك اللحظة .. ونهضت « سلمي » لتحببها قاعة

في شبه توسل :

— « ألا نادنين لسهر بالنداء متدنا غدا ؟ !

وابتسبت أمي وأجابت في رفق :

— « عندما تهذا الحالة .

— « الحالة قد هدأت نهائياً .. وستبقى يوماً لطيفاً .. فالتشمس

تسلع في شرفنا القبلية .. و ..

ولم تدعها أمي تواصل سرد حسنات بينهم فقد ريثت فراعها قاعة

في تسليم ظهر متفطر :

— « حسن .. متجيء إليك غدا .

وأهضت بالمعانة فسر « سلمي » وهي تشكر أمي قاعة :

— « « برسي يا بنت .. ستبقى يوماً جميلاً .

واتل « حسن » من العرفة المجاورة حيث كل يحس مع حالتي

وأبي يقول مازحاً :

— « أين ستقضون هذا اليوم الجليل ؟ !

وأجابت « سلمي » في حيلة :

— « في بيتنا .

وضحك « حسن » تقيلاً في سحرية :

— « وأي جميل في هذا ؟ !

وأجابت « سلمي » في حيلة :

— « ستقضي اليوم في الثمرة المشيمة التي نزل على بردي ..

وسيجلس في الأرجوحة .. ونقرقر القمق .. وتندحى .. لندا

لأنني للعشاء بمصا ؟ !

ولم يبد لي كل ما قالته « سلمي » أي شيء من الإغراء الحسن .

فقال مستعلاً :

— « سيكون أخوك ريفان حاضراً ؟ !

— « طبعاً .. فغداً يوم الجمعة .. اليوم الوحيد الذي يعاين فيه

التكاث ويقضيه بيتنا .

— ساكنى إذا .. لقد أوحشنى كثيرا .. لم أراه منذ أكثر من ثلاثة أشهر !

— لقد هين لى السويداء منذ أن تخرج لى الكلية ولم ينتقل إلى دمشق إلا منذ أسبوع .

— لم أراه إلا مرة واحدة بعد أن تخرج مباشرة .. لقد بدا وجبها لى حلة العسكرية .

وعصيت « حسان » هزيمة ثم أردف ضاحكا :

— كان المفروض أن تكون أنا لى الحلة العسكرية .. ويكون هو أنبيا .. ولكن القدر خطط أنبيا . لقد كنا نجلس متجاورين لى المدرسة الابتدائية .. وكنت لا أنسا أن رسم نفسى حينما يمسك المذبح ويحسد به الرعوس ، وكان هو يحيد الإتهام .. ويحفظ المحفوظات جيدا .. حتى كان المدرس يسأله دائما أن يلقبها بيما .. ورغم كل ذلك .. أصبح ضابطا .. وأصبحت أنا أنبيا .

ثم التفت لى لى حذر واستطرد يقول :

— لو على الأكل مشروع لنبيب .

ومسكته لى حيلسة :

— أين كنتك الذى قلت إنك سترسله لى لندن ، مسجيا طبيعه ؟ !

— أوشك طبيعه أن يتم .. وسأعزرك أول نسخة من المطبعة .. وأرجو أن يكون لديك الصبر على قرائته .

— لقد أصبحت أحب القراءة .. لم يكن أبامى سواها وأنا راغبة لى فرائى طول هذه المدة .

— ماذا قرأت ؟ !

— قرأت كل ما أعطيته لى .. قرأت كتاب بيخايل نعيمة « كرم على درب » وقرأت : الأيام ، وعودة الروح ، وقرأت قصة إحسان ، وعد الحليم ، وقرأت ديوان نازك الملائكة .

وقاطعتنى « حسان » بتساقلا لى دهشة :

— قرأت شعرا ؟ !

— أجل .

— وبمبته .. ؟

— طبعا .

ثم أردت بتساقلا لى سفرية :

— انتظنى اقرا بلا غم ؟

— شئتكن لا سيبن الشعر .. فقد كنت نأين الإنصت لى ما أترؤه عليك من شعري .

— كنت صغيرة .

— أم لعل الشعر كان سخيلا ؟

— أستطيع أن أجيبك إن قرائته على ثقافة .

ولم أكد أنتهى من قولى حتى بدا « حسان » يلقى تمسيدة وطنية ، ولم يكذ يلقى البيت الأول حتى لعلت أنه تصيح ضاحكة :

— يا حسان يا حبيبي .. هذا غير معقول أبدا .

وتوقف « حسان » عن الإلقاء بتساقلا :

— ما هو هذا الغير معقول ؟ !

— أن تؤدى اسباع النسيه بمثل هذا الصعر الذى طلبه . لم تعد هذه هى الطريقة المثلى للتعرف لى النساء لى ممرنا هذا .

وأجاب « حسان » ضاحكا :

— الظاهر أنك لا تعرفين شيئا عن نساء هذا العصر . إنها لى الى طلبت .

وقاطعته ابه بتساقلا لى دهشة :

— طلبت أن تتشدها تمسيدة ؟ !

— أجل .

— وطنية حيلسة ؟ !

— لم تعدد نوعها .. طلبت شعرا وكلى .

— إنش أنتشدها شعرا لى الغزل .. اليهم منك شيء سوى عدا الشعر المتشنج .

— ليس هذا وقت الفزل ، إنما مفاوضات معركة كبرى من أجل
المصير العربي .. من أجل الحرية والوحدة والبناء .
وبعد « خالتي » بدحا وجذبت « حسن » من ذراعه وهي تنسك
للحالة :

— دع البت في حالها ، لا تضيقها بمعاركك الموهومة يكنيها
ما يرت به من مقام .. إذا كنت لديك كلمة حلوة نقلها .. وإلا غادرها
لشأنها .

— واجلبها « حسن » متضاخكا في أسف :
— لا عاتدة يا أماء .. لا تريد أن نمهجي .. ولكني سلمتها
هي .. لأنها تصب أن تنهم .. ولأنها يجب أن تنهم .. إلى جيلها في
آخر غير جيلكم .

— وضحكت « خالتي » وقالت وهي تربت كتفه :
— لماذا تكرر وتعتل .. وتسكر في بيتك وأسررتك ولولادك ..
وحاجتك إلى تلبين الحياة لهم .. كما أن لك أبوك حيلكم .

— يجب أن يؤمن الحياة لوطننا كله .. وطننا العربي الكبير ..
— أينما لننسك أولا .
— والباقون ؟ !

— يؤمنونها لأنفسهم .
— لا يؤمن الناس حياتهم فرادى .. وإنما يؤمنونها متضامنين
متعاونين .

— وكانت « خالتي » قد وصلت إلى باب الخربة المجاورة .. وخرعت
فون أن ترد على « حسن » .. إما لأنها لا تعرف الرد .. أو لأنها لم
تتكلم لنفسها بشقة الرد عليه أو حتى الاستماع إليه .

— واستهزئت بطريقة « حسن » في المناشئة .. ووجدت في تفكير
أقرب إليه من إلى « خالتي » .
— ولم يحاول « حسن » أن يتم قصيده .
— وانكسر بيده بومدا قاتلا لسلي :

— سلحضر إليكم هذا .. لا تنسى أن تقول لي ليرتس .
— لن أنسى .. لأنني أعرف كم يسره لتذكرك .

— واستيقظت في اليوم التالي وإحساسا بفرسا يبلا جواتحي ..
— وكان يوم شتاء دافئا .. حجب فيه نهاره رواسب البرد عن ليله ..
— ونصفت شمس الساطعة بظلمة السحب المخلقة في سمائه .. وبدأ
كل شيء مشرقا نابضا بالحياة .

— ووقفت في الشرفة لتنظر مجيء السائق بالعربة كي يذهب
إلى دار سلمي .. وبدأ في طريق المهرجين الذي قام بيننا في آخره
على سطح الجبل وقد غص بالحرارة .. ووصلت إلى مسامعي أصوات
عربيت القرام وأبواق السيارات .

— ولصحت بنشوة وأنا ألتهم روائح الحياة الدائمة .. واستمع
إلى لشدائها الحلوة ، وأزقت المدينة تتطلى أمامي كأنها الهرة تتفرغ
في أشعة الشمس ، ولاحت التلألؤ والمآذن ، وأشجار الصرو العارية
كأنها الآلسنة تمتد لتزشف الأشعة الدافئة المتساقطة من السماء .

— وهبطت إلى العربة بعد أن رددتني « أمي » بقائمة النصائح التي
تؤين بها حياتي من سلسلة الأخطار التي تقوم تربصها بي .

— وانحدرت في العربة إلى طريق المهاجرين ولحت حشدا من العربات
يقطع أمام رئاسة الجمهورية ، وانحدرت العربة ببطء وبسرعة متحدرة إلى
الميدان المفتوح إلى الطريق العريض ثم اتجهت بيننا إلى الطريق المأجور
لبردي ، والمناظر تتوارى أمام عيني أليفة مؤسفة تملأ نفسي إحساسا
بالألم والطمأنينة ، كأنني أسير في دار أعرف كل شئ فيها ويعرفني كل
مخلوق يقطن بين حدرانها .. لا يتلكني فيها إحساس بضياع أو مخوف .

— ووصلنا إلى الساحة في آخر الطريق .. وسرنا بجوار بردي في
الطريق الضيق الممتد بعد الكوبري العريض أمام نفق سبراجيس ،
— ووقفت العربة أمام أحد المنازل المظلة على النهر .

— ولم أكد أنزل من العربة حتى وجدت « سلمي » تلقي أمامي منطلقة

الوجه ، وقد وقف وراءها اخوها « رياض » يرتدى ثيابا وصديريا
من الصوف .

وبحت سلمى يدها تشد على يدي في بودة خالصة وهي تقول
— أخى رياض مصر على حيك إلى شقتنا .

واجبتها واثا أنكري على يدها موجهة إلى باب البيت :
— أنا التي سأعطيه .. ماذا يظن نفسه .. قبضاي !
وصحكت رياض قهقرا :

— ابدا .. الطابق عال .. والسلم طويل ، وأخفى ان يرمحك
الصعود .

وقلت في تحد :

— سأريكما أنكما ستجلمان قبلى .

ويدأت أصعد السلم متكة على الحرايزين ، وأحسست واثا
أصعد كأن « رياض » يعضني يمينيه .. لقد كنت عيياء تنعاسني في
حرص واهتمام في كل نقلة من ثلاث قدسي .

كل كاشته « سلمى » .. رقبتي طيبا خجولا .. وكنا كلاهما
بضغائل سبابا من أختها الكبرى « مرة » التي كانت تترس لنا العلوم
في المدرسة ، والتي كانت تتميز عنهما بالطموح الذي يصعب في كثير
من الأحيان بالإنكارية .

ولم يكن هناك شك في أنها شديدة الذكاء ، صافية الدهن ، ريشة
ولكنها — كما أستنتجت من حديث « سلمى » عنها مجرد حديث عابر
لم تقصد به النقد أو الشكوى — كانت دائبة التعطيط لنفسها .. لمطامعها
.. لمستقلها .. باعتبارها هي الكاش الأول .. الذي يجب أن يدر من
أجله كل شيء .. بمصرف النظر عن يمشون معها ، ويرتطون بها .

وكانت « مرة » ناهضة دائما في كل ما تقوم به ، ناهضة كخرسة ،
ناجعة كماله في المجال العام .. سواء السياسي والاجتماعي ، ناهجة
في كل صلاتها مع الناس .. فقد كانت تعرف كيف تكسب ثقتهم ، بذكائها
وجهدتها .

ومع ذلك — ورغم إعجابي بها فقد كنت أكثر حبا لأختها وأكثر
تقديرًا لأختها .. بما فيها من بسطة قد تكون أقل تدرية على اجتذاب
الناس ، ولكنها أعين تأثيرا في البعض الذي قد تفلح في اجتذابه .

وذلت ثفة « سلمى » .. واستقبلت بفرح حار من كل أهلها ..
من أبها الطبيب الموقف بالداخلية ، وأما الهائلة الصنون التي تشبه
« لمى » في كثير من صفاتها .. ومن أختها « مرة » التي كانت قد
ارتقت بلايسها استعدادا للخروج .

وغسنتي أم سلمى إلى صدرها ثقلة :

— هذا له على السلامة يا حبيبتي .. كنت ادعو لك بالسلامة في
كل صلاة .. كال قلب مع أمك دائما .. كان الله في عونها .

وسألني مرة وهي تحمطني بقراها :

— ماذا فعلت في دروسك .. لعلك قد تكونين استفكرت ما حدثت
لك في الكتب .

وطلمت رأسي في شيء من الضحك وأجبتها :

— الحقيقة أنني لم أجد في نفسي القدرة على أن أقرأ شيئا من
دروسي .. كنت في حال من الضيق .

وقطعتي أبوها قهقرا :

— كل الله في عونك يا بنتي .. لقد رقدت أسبوعين كنت أجن
بعدها .. كيف تستذكركين وأنت في حالك تلك !

— وهجرة المستشفى موحشة يا ممي ، والجو مضى ، وكل شيء
يهمك على القوف .

وقل رياض في لهجة بشنة :

— غير معقول أن تندري على المذاكرة وأنت في رقدتك تلك ..
لو كنت مكانك لقلت بالكتب من النافذة .

وصحكت مرة ثقلة في سفري :

— لقد كنت دائما تغلف بكتبك من الباردة .. دون أن تكون في

مكاتها .. لا أذكر أبدا أنك استذكرت دروسك إلا قبل الامتحان
باسميوح .

وأجابها رياضي مستحقا :

— وماذا فعلت أنت باستذكارك .. مخرصة لا أكل ولا أكر !

وأجابته « عزة » في تحد وكبرياء :

— ستري قريبا هذه المخرصة .

— لمالك ستسمعين زعينة سياسية بنضايك إلى حرب البعث !

— ولهم !

— يا سلى .. يزائد زعيم سياسي .. ليس أكثر من الزعماء

السياسيين في هذا البلد .

— لا نتحدث عن الزعماء لأنك لا تفهم في السياسة .

— تركتها لك .

وأحس الأب أن المهارة السياسية بين أبنته وابنته لم تنتهي إلا إذا

وصح حد لمهايتها .. فقطع بأن يقوم هو بهذه المهمة مستعملا سلطتي

الأمر وهو يقول لها مائرا :

— انتهيا .. ليصبح كل منكبا ما يريد .. ولكن لا تقبلوا رعوينا

بمناقشتكم .

وتبينت الأم أنني ما رلت واحدة فقلت معتذرة :

— اجلسي يا حبيبتي .. ما أذكرك أنت في هذه المناقشة التي

لا تنتهي .

وبعد « عزة » فرأيتها غصيني إليها ثائلة قبل أن تغادر البيت :

— على أية حال سأراجع معك الدروس التي كانتك .. في جلسة

أو جلستين .. لا أظن أنه قد هناك الكثير .

وقالت سلى :

— لا .. لا .. وسأحاول أنا أن أذكرك ممها ما كانتا .. وإذا

استعصى علينا شيء .. نستلجأ إليك .

وبعدت سلى يدها إلى « نجرني » إلى الشرفة العريضة التي تطل على

النهر والتي ترشحت الشمس الساطعة أرضها وحجت جذرائها التسمية
الباردة فيلاً الدماء جوانبها .

وحلست على أريكة في ركنها وبعدت « سلى » يدها تسامعي لي

بك المشد الحديدي ثقالة :

— اجلسي على راحتك ، ومدى سافك .. لن ادع أحدا يزحجنا حتى

وقت الغداء .. ما راك في هذا المنظر وهذه الشمس ؟

وبدا يردى يمتد أيها ينساب من طعن الجبل في التبين وقد علت

فيه مياه الأمطار المتساقطة من الجبال والتي صيفته بلون أحمر ، وهو

يسير مبتهلا وسط المدينة .. وقد بدا الطريق العريض على يساره

والأسية المتعينة على يمينه ، وبدا في آخرها مبنى وزارة المعارف بلونه

الأحمر ، والصلاب البيض المجاورة له .. والأرض المضاء التي تكست

عينا عريات قديمة .

والساحة بعريتها المتلاحقة ، وجوانبها التي لا تهدأ حركتها ،

وعربات « أبو عمرو » ثقف بجوار الكوبري .. والسدى الذي تراجعت

الحركات الفاحرة سابه الزجاجي الحريش ، والسبينا التي علتها لائحة

كبيرة كتب عليها اسم فيلم مصري ورسم عليها صورة بضم بطلته .

والناس ..

الناس .. شيء آخر .

الناس المتراحمون على باب السبينا ، وعلى أرضية الطريق ،

وابام الهوانيت ، وحول عريات اليد .

الناس .. تحس من حركاتهم ونظراتهم .. أن كلا منهم يرى الآخر

ويحس به ويتحدث إليه .

الناس تحس هنا أن بينهم تعارف وتضام وتآلف .. وأن لديهم وقتا

للحديث والنظر والإعجاب والمزاح .

لبسوا أبدا كلباس هناك .. ينطلقون في الطرقات ملاحقين ..

بطاردهم البرد ويطارد بعضهم البعض .. ولا يبعد البعض من البعض

سوى الظهور والأضواء .. لا تبتل ولا التفت .

البرد هناك يجعل طرقهم معبرا للالتقال .. مجرد طريق لسباق
النساء ، لا تلح العين فيها ، على وقفة حياة .. لا ضحكة ، ولا لفتة ،
ولا تحية .

لا أثر لتلك الحياة التي وجدتها تشيع بين الناس ، وأنا أرتب الساحة
والطريق من جلستي في الشرفة .

وفلت علينا السيدة الطيبة ، تعمل كل مظاهر المحبة والكرم
مرصومة في أطباق .. طوى وفاكة وفستق ويندق ولوز ، وكل
ما لديهم في البيت من وسائل التسلية .

وتركنا لتبشر إمداد الغداء .

وجلست أفضحك وسلى كعادتنا .. وقصصت عليها كل ما لفتني
في لندن ، منذ أن دعت حتى عدت ، ولم أنس أن أذكر لها ضرس
ما ذكرت الخلسط المصري الذي يدرس اللغوية في وولتشي .. والمسمى
.. « حيدى ابن أختي » .

قصصت عليها كيف لف بنا لندن في عرسته .. وكيف ذهب بنا
إلى صمر بكنهمهم وميدان ترافالغار ، وكيف عبطت الحسابة على
رأسه .

حكيت لها كل شيء منك كعزء من رحلتنا ، ولتتهبت من كلامي هناك
بأنني اكتشفت أنك لطيف حبيب الدم .. بعد أن رجع بيننا حجاب الكلمة
.. ولم تعد تنكف تسليتنا وتقدم الدعابات واداء واجب الشيفاة بالمبالاة
من خالطك « لطيلة » ..

والصحت لها عن الإحساس المتوارى بالفرحة الذي لم اصبح عنه
حتى لتفسي ، وأنا أراك في المطار تنظر صاحبك وتقبل على وداعنا ،
وتسرق إلى سائتي نظرة طفف .

وأفصل ريانس بشاركتنا جلستنا ، وقصص علينا بعض الأخبار
التي صادفها في المدة التي غيبها على الحفود الجوية .. كيف أطلق
اليهود المدافع عليهم ، وكيف ردوا الطلقات بأشد منها .

وبعد برهة ، أقبل علينا شكيب « ابن خالة سلسي » .. حتى

حبيب أصغر الشعر ، أصغر الوجه ، أصغر الملامح والخصال ، وكنت
تد لفتته في بيت سلسي بضع مرات من قبل .. وإلى كل مرة رأيته يبدو
كأنه ضائق بشيء .. ساخط على شيء ، وبقدر ما كانت تلؤني نظرات
ريانس بالإحساس بقيتي ، وبغية الدنيا من حولي ، بقدر ما كانت
تلؤني نظرات شكيب إحسانا بضياع قبتي ونفاة كل شيء من
حولي .

وجذب شكيب مقعدا واستقر في الشرفة بجوارنا .. بعد أن
سلم علي ..

وبدل أن يوجه إليّ الجمل التظلية التي كنت أسمعها من الناس
« حيد الله على السلامة » أو يخبرني بأنه « كل دائما يدمو لي » أو أي
شيء من هذا القبيل .

رأيت به ينظر إلى سائتي ويبر رأسه وينفخ في صيق خيل بالفسفرة
تتلا :

— لم تلح عيلتك .. بشوار على الفلفي .

وبدا الضيق على وجهي « سلسي » و « ريانس » ونظرت إليه
« سلسي » في غيظ قلقة :

— لقد عادت إلينا بالسلامة .. وهي في خير حال والحمد لله .

وأردف ريانس قتلا :

— المرفوس أن يبذل الإنسال جهده .. والشقاء من عند الله .
وهك شكيب فثقة بمسبلته ، وهو يبر رأسه قتلا كأنه يحدث
نفسه :

— ما دامت التتود موجودة .. على قفا من يشعل .. لماذا
لا تصرف ؟

ووجدت ريانس يعض على نواجذه .. ولم يستطع أن يكتم فبثله
فقال لشكيب في لهجة متفردة :

— يبدو أنك في حاجة إلى طريقة التأديب التي عودتها لك في

المدرسة .. كان هسان يجيد منكشك .. ولكنى كنت أعرف أن طريقة واحدة هي التي تردك .

وضحك شكيب وأجلب مازحا :

— لا داعى .. يجب أن تكون لدينا حرية المناقشة .

— هذه وقاحة وقلة ادب .

وماد شكيب يجيب غامعا :

— اشكرك .

وللتفت إلى رينى قائلا :

— لا تفضلى يا سهير .. إنه حمار لا يعرف كيف يتحدث كرجل مهذب .

ونظر إلى شكيب قائلا :

— بتأسف إن كنت غافيتك .

وأبتسمت قليلة :

— أبدا .. أنا شخصيا لم أكن أود الذهاب .. وأنا راضية تملأ بحافى تلك .

وقبل أن يجيب ، دق جرس الباب ثقبة ولتلت « مرة » وورادها « حسان » تتبعها الأم قائلا :

— هيا إلى الطعام قبل أن يبرد .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

قوة مجهولة

انتهيا من الطعام وعرضا إلى الشرقة ثقية .

كثت الشمس قد بدأت تميل إلى الأفق الخرى ووجنت أشعتها وعلقت ظلالها ، وأخت نسمة باردة نسرى همة وراء همة كلى الهواء بحركة برحة فى يد كسول لم تقو على طرد ما اختزنه الشرقة من حرارة الطيرة .

وانحطت مجلسى فى ركن الأريكة حيث كثت اتع قبل الطعام .. وبدأت أعد نفسى لمعودة الحلوة الضاحكة مع « سلمى » .. لا سيما وقد مبحثنا جلسة الغداء رويدا طيبا من التندر على جلسائنا من مختلف الأتارب الذين كنا ندموهم بالصف لما محد فيهم .. فى شخصياتهم .. وأحاديثهم وتصرفاتهم وآرائهم .. مادة لا تنفذ لمكاهتنا المشتركة .

ولقد كثت و « سلمى » قادرين على الضحك من أى شيء ، ومن لا شيء .. لم يكن هناك أسهل من أن نلتقط شخصا ما ونخلقه .. ونطقه .. ولنصور ما يمكن أن يفعله .. لو وجد فى موقف معين .. ونقول ما يمكن أن يقول ونفعل ما يمكن أن يفعل .. لم ننتقل فى الضحك عليه من أصابع قلوبنا .

ولست أشك فى أن القدرة على الإنشك ، أو ما يسمونها بصفة الدم .. مسألة نسبية .. لما يشكنا من شخص .. قد لا يشكنا من غيره .. وما يشكنا فى ظرف .. قد لا يفوى على انزعاج مجرد نسمة فى

طرف آخر .. وما يصحكن في سر .. قد يثقل علينا عندما نتجاوزها
إلى سن أكبر .

وعندما أتذكر الآن ماذا كان يطلق من شفاهها كل تلك المصكبات ،
وماذا كان يثير فيها كل هذا المرح والابتهاج ، لا أستطيع أن أجد فيه
سوى تفاهاك وسفاهات .

ولم أذكر أحد يسمى و « سلمي » لاستمرارى التحف التي تناولت
بها المعلم من أثارها وأثارى .. حتى بدأت التحف دائها تشغل
إلى الشريعة لنشركنا الجلسة وتطلع علينا السبيل إلى السحرية منها
والضحك عليها .

واتحدوا بمقاهم يستريحون في أشبه الشمس الهابطة ، يرتشقون
القهوة في استمتاع تملأه الرشفة الطويلة والعيون المسلة والنبهه
الطويلة عقب ازدياد الرشفة وأثراتها من الحلق إلى البلعوم واستقرارها
بين حنايا المعدة مع الوجمة الشبيهة في هدوء واسترخاء .

وانتد « أبو سلمي » بضعفة إنسانية .. لم يجسر بقية الأولاد ..
« رينس » وأبن خالته « شكيب » .. وأبن خالتي « حسن » .. على
مشاركتهم فيها .. وهي جنب نفس طويل من موسم الحظوظ الممتد إلى
الآباء الزحاجي المثلث بالياه والذي تغلو مفرته حبرات مرموصة
نوق أوراق الطباقي .

وأطلق « أبو سلمي » ما جنبه من نفس طويل من الموسم من حلقات
تعاقت حتى سلكه الشرقة وانتشرت لرائحة البيض بين خطوط الأشعة .
وبدا الجيب من حولي كأنهم يستريحون من عناء معركة ، وقد بك
البعض الزرار بأنهم والبعض أحزمتهم حتى يبنحوا أعناقهم ويطونهم
هربة الاسترخاء بلا شيق ولا فسد .

وبدا النوم أكثر الأشياء إليهم وهم في جلستهم تلك المسترخية ..
وخيل إلي أن بعضهم يتناول هيماته .. حتى طرق أحدهم — وأثنى
شكيب — باب السياسة قاعا وهو يضع فتجان القهوة جاتمه .

— حلمنا من دكتاتورية الشيشكي .
وأجابه حسن :

— حلمنا من نساء حكيم .. لو أنه كان مسلما لاحتلناه على
العين والرأس .
وأجاب « أبو سلمي » وهو يندح فحان الشيشة ويهز رأسه في
أسف :

— بدأ بداية طيبة .. كان انقلابه ثالث انقلاب في بضعه أشهر في
الانقلابات عام ١٩٤٩ الذي بدأ بانقلاب حسني الزعيم في مارس ،
ولم يستمر سوى بضعه أشهر عندما أطاح به الحناوي في أغسطس .
وقاطعته « عزة » قفلة :

— في سستير على ما أظن .
ورد أبوها بدهنيا في ثقة :

— في ١٤ أغسطس بالتحديد لم يكن قد مضى سوى بضعه أيام
على انتقال من الملكية إلى الداليمية .. كل عبر أمك وتنداك ..
وقاطعته « أم سلمي » ضاحكة :

— مالك ولعمري .. يستشهد به وتفضني في كل وقت .
وشحكننا جميعا ورد « حسن » مأزحا :

— من فرط معزتك عنده .
واشاحت السيدة الطيبة برأسها قفلة :

— لا أريد هذه المرأة .
واستطرد الأب قاعا :

— في ١٤ أغسطس — كما أذكر جيدا — قلم الحناوي بالانقلاب
الثاني .

وقال « رينس » مقاطعا :

— لم يكن الحناوي أكثر من أداة في يد بعض الضباط .

— على أية حال .. هو أو غيره سواء .. لقد قضى على حسني
الزعيم ، وأجريت انتخابات عامة أعادت حزب الإغلبية إلى الحكم الذي

دعا إلى اوثق العلاقات مع العراق وطالب بتنفيذ مشروع الاتحاد القومي السوري .

وقال « حسان » في هضبي :

— وكان الشيشكلي هو الذي حال دون تنفيذ مشروع الاتحاد .
ولم يدع الأب لحسان فرصة هزمته من استعراض قوة ذاكرته التاريخية فاستمر يقول دون أن يلبه لمخالطة حسان :

— وفي ١٩ ديسمبر قام الشيشكلي بالانقلاب الثالث فاطاح بالحدودي وافضى على مشروع الاتحاد وانتهت الجمعية التأسيسية بعد ذلك من وضع دستور ١٩٥٠ وتحولت إلى مجلس يهيئ انتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وعين ناظم القدسي رئيساً للوزارة .

وبدأت أشعر بالملل من سلسلة المطولمت وللواريج التي يمر الأب على سردها علياً .. ونبذت و « سلمى » نلرات الطلق عندما سمعت « شكيب » يقول في لهجته أنشاققة كل شيء :

— لم يعمل الشيشكلي أبداً على استقرار الحكم الدستوري ..
فقد كفت القيادة العسكرية تعرض رأيها على سياسة البلد .. وتدخل الشيشكلي في تشكيل الوزراء ، واطاح بالوزارة ثلث الوزراء ، واعتما يئس من المدنيين فلم يلتفله الرابع .

ولم يدع الأب الفرصة تقلت منه فتدخل بصرمة قتالا :

— وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٥١ استولى على الحكم واطار هاشم الأتاسي .

وسأله « شكيب » شاحكا :

— كم كان عبر حالتى وقتذاك ؟

وهضك الأب قتلا :

— رينا أمر بالستر .

واستطرد « شكيب » قتلا :

— وادعى الشيشكلي أنه يهدف للحكم التثبيتي لمصدر قرارا عسكريا لأن يتولى فوزى سلو مهام السلطة التشريعية والتنفيذية ويمارس سلطات

رئيس مجلس الوزراء حتى تعود الحياة المدنية إلى البلاد .. ثم انس الانحزاب وانتهى الفترة الانتقالية بإعلان دستور ١٩٥٢ ، الذي يمس على قيام الجمهورية الرئاسية .

وهز الأب رأسه قتلا في سحره ، وهو يهض الميمس جانبا :

— ولم يمر العام حتى طار .. هو وجمهوريته الرئاسية .

وقالت « هزة » في شيء من الدهشة :

— كان يمكن أن يبقى أكثر من هذا .. كن يمكن أن يقاوم ، ولكنه كان يحنى في قصره .. ليسمح من أعوانه ما يرمد برائثه .. كنت لظنه أكثر من هذا شجاعة .. لقد قضى عليه الخوف .

ورد « حسان » قتلا :

— قضى عليه الفساد ، والاستبداد ، وشهوة الحكم ، والمصلح الداتبة .. مصلح الأسرة والمعارف والأصفاء .. كانت سوريا تمكم بمجموعة من الضباط الأصاغر ..

وقال الأب في لهجة إشدائق :

— لقد قام ببعض الإصلاحات .. شق الشوارع .

وتناطحه « شكيب » في حق حلقه :

— أعمال تنهية .. إن البلد في حاجة إلى إصلاح جنرى .

ورد الأب فيها يشبه الدعاء :

— عسى أن يقوم به الحكم الجديد .. رينا يهديهم إلى ما فيه الخير .

وتلفح « شكيب » من لفه لفحة ساشرة .. وأجاب مقتسلا :

— إصلاح جنرى يقوم به هؤلاء الحكام الإكابر المرمسوس .. الإصلاح الحنرى لا يقوم به إلا انقلاب جنرى يقلب أسفل البلد أملاها ، وأعلها أسفلها .

وصيت برهة ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— لن يصلح هذا البلد سوى الشيوعية .. وهي آتية لا ريب فيها .

واجاب الاب في شيء من الجرع :
- قال انه ولا ملك .

واجابت « عزة » وهي تتسائل في ابسالة مسخرة :
- اهذه آخر تعليمات يوسكو ؟

ورد عليها « شكيب » في استهتار :
- ومن اين تظنن تعليماتك انت ؟

واجابت « عزة » في حياسة :
- من ديشق .. من هلك ..

- دعي ديشق تنفك .. ماذا تظننن حزب البعث يتسادر ان
يفعل ؟

- عندما نضع ايدينا على مقاليد الحكم .. سترى ماذا نفعل .
- لن ثروا هذه الفرصة .

- إنها آتية لا ريب فيها .
وشحك الاب .. وشحكنا جميعا ..

وقال الاب ساهرا :
- بمرارة على الحكم بين الصغار .

ورد شكيب :
- الصغار سيكبرون .

واجابت « عزة » في اعتداد :
- الصغار قد كبروا فعلا .

وهز « حسان » رأسه في اسي ثقلا :
- شيء محير .. إلى المسألة ليست مشكلة بلدنا وحدها إنما

مشكلة الوطن العربي كله .. الذي يحتاج إلى انتفاضة كبرى ، تنفض
عنه قيود الاستعمار والاستغلال والاحتكار وتطلقه متضلعا في وحدة
كبرى يقيم بنائه للشايخ وسط عالم تتعالى فيه القمم .

ورد شكيب في شيء من التحدى :
- يحتاج إلى انتفاضة شيوعية .

ورد عليه « حسان » في حياسة :

- يحتاج إلى انتفاضة من داخله .. انتفاضة لا تستبدل نفودا
خارجيا بنفوذ خارجي .. بل تمتعه قوة ذاتية .. نابذة من نفسه ..
من قدرته ، وميكناته ، وطائفته التي تراكم فوقها الغبار .

وتسائل ريلفس في شيء من الحيرة :
- كيف ؟

واجابت « عزة » في ثقة :
- بوسلطتنا نحن .. نحن الذين سنمنحه الانتفاضة البعث .

ورد عليها ريلفس في شيء من الاستغفاب :
- انت ؟ اأنتك كثيرا .

وقالت « عزة » ضاحكة :
- شاعر الحق لا يسليه .

واجاب ريلفس في سحرية .
- شاعر الحق .. غيبا يبدو . لا يهتم إلا بنفسه .. ماذا يصيح

هو ، وماذا سيميد هو .. شاعر الحق كما أمرته من يقين ، لا يحطط
إلا لدانته ، شاعر الحق انتهى كبير .

وصحكنا جميعا وبدا كل ريلفس قد عبر عنا جميعا غيبا براء في
« عزة » ولا تجرؤ على التصريح لها به .

واحمر وجهها قليلا ، ولكنها سرعان ما ضلكت وقالت في تحد :
- قل ما تشاء ، وسأريك ما نفل في الفد القريب .

وقال حسان في تشكك :
- لست أرى ما يليه بشيء في الفد القريب .. إنما نحتاج إلى

قوة من نوع آخر .. قوة مؤنس بها .. وقوس بنا .. قوة لا تصدع
ولا تضلل .. قوة تلم قواا المبعثرة .. وفكرنا المشتت ، ونضاض
على الرساد ، لنطلقنا كالقدية ، لملق بركب العالم المتحضر ، وننخذ
مكاننا اللائق بين سوانا من البشر ، نهمل إليهم الخير لا الفمل .

ولم أنهم ماذا يتحد « حسان » ، فقد بدأ كلامه لعالمنا بأشياء غير
كثثة ، لا يبدو هناك احتمال لوجودها .

ولم يبد أن هناك أحدا من الموجودين قد أخذ كلامه بأحد الحد .
وعبر ريفي عن أحاسيسنا بقوله :

— بنى إن تكن هنا .. تكن أحسن الخي .

وهز شكيب بقوله في شيء من الحرارة :

— لا نريد أن نعيش بها لهذا رغدا ، نريد واقعا .. لا إلهي ،
ولا أحلام .. نريد ناسا نضرب ، لا كما ندعو .

وانتهت المناقشة .. مناقيع نفس بها كل منهم عما في باطنه ،
وعبر بها عما يكت في إلهي ورغبات .

ولا شيء أكثر من هذا .

واحبست بالنسبة الباردة التي تحسركها مروحة من السماء
العریضة متدفع بها إلى الشرفة حمة وراء حمة .. قد لشتحت قوتها ،
وازدادت بروعتها .

واحبست « أم سلمى » بشتتاضتي غنضت ثالثة :

— مرد الجو يا أولاد .. هيا بنا إلى الداخل .

ووقف حسان قاتلا وهو ينظر إلى الساعة :

— جرى الوقت بنا .. الساعة جاوزت الرابعة .

وردت السيدة مؤكدة :

— بفرى .

واجاب حسان ضاحكا :

— بفرى من مبرك يا خالتي .

وخجعت و « سلمى » على رد « حسان » النشائي .

واجابه « أم سلمى » في حبور وحلل كائنا تدامع منه في مسهرينا
بقوله :

— أبهر ، ولستاه كالسكره .

واستطردت تقول وهي تنظر إلى من طرف خفي :

— حلال عليها .. العروس التي سبتم الله عليها به .

وكتت أرد عليها قائلا « لنشبع به » .. أو أي شيء آخر
انمع به من نفس تهمة رواجه ، ولكني لم أجد ما يرير ردي إلا أن أكون
أنا عروسته المربعة ، وأكون كالمربيع يقول خلوني .

وكانت السيدة الطيبة تكس من أن يصح في مراحها بالكثر مما
قلته ، فتركت المسألة تبر ، وقلت وأنا انهض عن الأريكة مستندة إلى
دراع « سلمى » :

— لظن أنا أيضا أعود ، قبل أن تطلق إلهي .

— إن تطلق إلهك وهي تعلم أنك هنا .

— قد تظني أصبت في الطريق .

— بعد الشر ، سألها في التليفون لطمئنتها عليك ..

وقالت « سلمى » ضاحكة :

— انظري أنها كانت تسكت علينا حتى الآن لو أصابها الطلق !

ولم تنك « سلمى » تنهي من قولها حتى دق حرس التليفون ..
مفترت « سلمى » من مكاتها وانفجعت لترد على المسائل .. حائلة وهي
تحسك :

— لابد أنها هي .

وقال حسان :

— غير معقول أن تنتظر أكثر من هذا .. بغير قلق .

ولم يصعب على أن أبير من كلمات « سلمى » التي كتت ترد بها
على التليفون أن المسائل هو « أمي » .

واسترسلت « سلمى » تقول في التليفون راجية :

— سبقي للمشاء معنا .

واستنجت من استمرار توسلها أن « أمي » غير موافقة وأن الحرية
في طريقها إلى لصيحتي إلى البيت .

وعدت إلى البيت والقبض على وشكة المنصب .. وفي ذهني أكثر

باعثة لمناقشة الشرفة .. لم تكن اشك في ان الالهام كنبلة طمس ما تبقى من محالها .

ولكن الالهام والاشهر والاشين التي مرت بعد ذلك .. رسمت في نفس المرء من المعالم .. فقد بدأ ذهني يتضح للمناقشة السياسية ، وبدأت اقبل على قراءة الصحف والكتب .

واخذ اقبالي على القراءة يزداد يوما بعد يوم ، واهتمت في السنوات التالية وقتا لير من عمري برحلة الطفل ، ان سألني المراجعة حبيسة المشد الحديدي مثل مطرا من مظاهر النفس الذي يحول بيني وبين الانطلاق في ميدان الاثوثه .. فاهجيت من غوصه ، واخذت احول ما كان يمكن ان اقبله من اهتمامي بظهوري .. شمري ، ووجهي .. ومسيرات جسدي ، وما يلائس من نيل ، إلى اهتمامي بكتبات اخرى .. كل اهم ما فيها القراءة وحس المعرفة .

ولا لفتني استطاع ان اترك .. شعور المراجعة الذي كل يتناسى احبها .. صديا احس ما في " من نفس يمشي من التناهي بأحب ما يمكن ان تتناهي به فتاة .. بجملها وقدرتها على حثب اهتمام الغير .. بالإعجاب ، لا بالمصطف لو الرقاء .

وبدأت ادرك سبب جزع " أبي " على " ارتعاع " أبي " ، عنفيا لم تنجح الصلابة ، ولهاجتا على القيام بعملية اخرى . ولم احاول ملطع ان ابدي ما ينم عن مشاعري الحديدية ، ولا ان اسمح لنفسي بالانغماس على عدم القيام بتعبئة اخرى .

على القمص .. لقد حذيت على ان اروض نفسي على ما اساسي .. ترويض المعلم به ، الراسخ له ، الصابر عليه .. ولم يكن هناك مد والامر كذلك .. ان احول نفسي الطلعة المتطوعة المتطلعة ، إلى بدل .. لا احس فيه بالنقص ، او بالتخلف .

واستطعت بذلك ان افرأ وانهم اشياء ما كنت لامرغها لو لم اجد في القراءة والمعرفة محالا احول إليه اهتمامي واهل فيه ما املك من فتاة وجهه .

ولم ترهني امي عن هذا .. مما اضلها بشتت قط من تحقيق حلمها ، في عروسها الرشيدة الحبيبة ، ولم يصبني امي بقتل على القراءة والمعرفة ، فقد كان يرضي بكل ما يريهني ويسبب لي اي نوع من السعادة ، ولم يحاول كبني ان يحصر امله في صورة واحدة ، هي صورة العروسي .. بل كان يسمد بكل صورة يراني عليها ، وما كنت انا سعيدة بها .

ولم يكف " حالي " من الاسمرار في تفسير مشروع رواجي " * * * * * " ، إذ لم تجد في قط ما يحشني قبلي كعروس مثالية لإنهاء ، واستمر إعجابها بي كما هو .. شكلا وموسما .

ولم اعدت اسبع كثيرا حبيبها من هذا الزواج .. فقد باتت مسجي لا يحتل مثل هذا الحديث الذي لم يرد في اعتباري ايدا ، في اي مرحلة من مراحل العمر .. على انه مزاح .

وبعد ذلك لم احاول ان اظهر شيئا ما يعبر عن شعوري بالضييق حتى لا اخرج بمشاعر " حالي " ، ولا سيما انني كنت اتقن ان كل ما فعلته وما نقوله لا يصدر - لولا وآخر - إلا عن حب لي وإعجاب بي .

ولم تكن استطاع ايدا ان ارد حب إنسان وتقديره ، باستحقاق او عدم تقدير .

ومن اجل ذلك .. كان علي ان اقبل كل ما يقال في صميم واستسلام .

وبدأت من خلال قرائتي اتبع الامور في ملدي مزيد من الاهتمام ، وبدأت بمناقشة الشرفة تتلور في ذهني مع الالهام .

بدأت اعرف شيئا عن القوة التي تنسب إليها " عزة " ، والقوة التي يتحسس لها " شكيب " ، والقوة التطبيقية التي تتنازع الحكم في الداد ، والتي لا يرى امي وابو سلمي من قوى شرعية حاكمة للبلد سواها ، والتي تحس أرضهم ، وتتمش تحاريمهم وتعبير عن أفكارهم ، وقوة اخرى اكتشفناها لم يعبر عنها احدهم ، وهي القوة التي تريد ان تحكم بالدين او تتدين للحكم .

بدأت أعراف بعض ما لتلك القوى وما عليها .. ووجدتني نهدت
بمهما حثرة ، يحذيتني إليها بعض ما لها .. ويغري بها كل ما عليها
.. شبة قوة كل بها بريق أحاد في ذهني ، دور أن أعرف عنها أكثر
بما قاله « حسان » ، كانت اسمه بالسحر ، تؤخذ به دور أن شميه ،
القوة التي تؤمن بها .. بطاقتنا ، بقدراتنا ، بأصاقتنا كشعب عربي
مريق ، قوة لا تمدد ولا تصل ، ظم قواها الممتدة ، وأفكارنا المشتتة
وتطلقنا ككثيثة ، تحمل الخير لا الدمار .

قوة أخادة ساهرة .. لم أعرف من أين تأتي ولا كيف ، ولكني
احسست بها تساور النفوس العاترة .. الضائعة ، التي تريد أن
تطلق ، ولا تعرف .. من يتيقن الذاتوس وبني يدقه .. ولا من يك
الإسار وبني يلكه .

وكتبت لنا حين الجهاري .. صغيرة عرجاء .. لا ليلك شيئا ولكني
أعرف الكثير وأحس بالكثير .

أعجب مرة بعض الوقت .. وبشكيب بعض الوقت .. ولكني
لم أحس بشيء من الاستقرار الفكري مع أي منهما ، وأنا أحد القوة
الجهولة الأحادية التي تحدث عنها حسبل نهر مصري .. وتسطر
على تكتيري .

لم أستطع أن أعجب إعجابا كاملا بأحد .. وأنا أحاول أن أطابق
بمه وبين نموذج من ذهني .. رسمه في حبالى حديث حسبل مند
مناقشة الشرفة .

حتى قرأت ذات يوم ما ما سيبويه منسك من بحر « بصفة
الأسلحة » .

أتعرف كيف ظم الخطوط المشوشة .. لتور معالم صورة ؟

أتعرف كيف تتحج كل الصلصال .. لتظهر معالم تبتال ؟

أتعرف الدحل الذي يتساعد من التيقم مبنيا بحروح ملرد ؟

لقد كانت الصفة التي نكت تيد التهمة وأعلنت عن لبتاكتنا

الحقيقي لحرية الحركة .. وحلاصنا من الإحساس بأننا ذيل بحر
.. أو تابع يفضع .. وقاصر يتبع .

كانت تلك الصفة هي الدحل الذي تتساعد من التيقم ليميه
عن شروج المارد .

وانطلق المارد من أرضكم في صيف ١٩٥٦ .. ليهرما بقوته ..
بحقيقة وجوده .. ويحسد لنا وهما .. ويحقق لنا حلما .. وليجزم
بنا أن القوة التي تتحدث عنها .. كابتية ساهرة .. تبهرنا دور أن
نعرف كيف تتحقق أو متى .. قد أصبحت حقيقة واقعة .. مفهومة
واضحة .

ومن الميث أن أصف لك .. كيف كنا بعد تليم فنناكم .. ولا كيف
أصبح « حبال » في نفوسنا .

كنا شطعة تتأجج من أجلكم .

وإذا كنتم تخبون « حبال » .. فقد كنا نعبده .

وإذا كالي بالمنسبة لكم تائدا .. فقد أضحي بالمنسبة لنا أسطورة .
ما من جدار .. أو مغب .. في ساحة أو طريق أو دار لم يحذر
صورته ..

كانت صورته الملونة التي يميل فيها برأسه بأسما .. تبالا حوائط
المباني والشوارع والحداري .

وأنمقد مؤثر الإلهام في دمشق في ذلك الوقت .

ولست من هواة حفظ التاريخ كابي « سلسي » حتى أذكر لك تاريخ
انعتاده بالمصيط .. ولكني أذكر أن « حسبل » أقبل على دارنا ذات
يوم خلال ذلك الصيف بعد بمسعة أسابيع من إعلان التليم وتقال لي من
حياسة وفرحة :

« حبل ألك ميس يحملك تريس كل هؤلاء الكتاب الذين تقرئين لهم ؟

وكتبت أعراف أن موهبة « حسان » الأدبية التي لم أشك في وجوده

منحنا قرات ما نشر له من تمسح وتصلد خلال إقبالي على القراءة .

كنت أعرف أن تلك المؤهبة .. لم تطمس بعد معالم العبد والطيبة
والجبل إلى البشر المتأصلة في نفسه بعد المعسر . فقلت في سخرية .
— لقد رأيت صورهم .

— يا غبية .. أسالك هل تريد أن تريهم شخصيا ، وتسلمي
عليهم وتتعلمي بهم .

— كذب .. ؟

— الليلة في افتتاح مؤتمر الأدباء .

— ومن يذهب بي إلى هناك ؟

— أنا .

— ومن يذهب بك أنت ؟

ونظر إليّ في غيظ وأجاب :

— أنا مدرّس في الجامعة .. والافتتاح في مسرح الجامعة .

— هل يبيع لك هذا .. التسلل إلى حفل الافتتاح ؟

— اتصل ؟ .. أنا يدمو .. كذّيب .

— وأنا ؟

— ضيفي .

وكنت أقول له : « إنهم » ولكني خشيت أن أخرج حساسته وكبريائه
فقلت له وأنا أهرأسي :

— لا أستطيع أن أذهب بمفظة .

— قلت لك ستذهبين معي .

— أنا لم أعد بعد طفلة تجرني بيك من يدي .. أنا الآن في
السادسة عشرة .

— من قال لي سأجرك بي يدك .. إن معي لك بطاقة دعوة .

— أين هي ؟

ومد يده في جيبيه فأخرج بطاقة دعوة سلمها إليّ قائلا :

— ها هي .

— هذه بقلتك ؟

— سأحصل على غيرها لنفسي .

ولمست بالبطانة في امتشاط وأنا أتصور نفسي جلّسة وسط كل
هؤلاء الذين ترات لهم ، وسألته :

— من سيكون هناك ؟

— كلهم .

وعثت في فرجة :

— كل الكتاب والشعراء ؟

— طبعاً .

— مثل من ؟

— ميخائيل نعيمة ، وسهيل إدريس ، ونازك الملائكة ، وإبنة
السعيد ، وراسي ، وإجسل عبد القدوس ، وعبد الحليم عبد الله ،
يوسف إدريس ، وأتيس بنصور .

وحيت « حسن » وقد بدا على وجهه الفخر .. كأنه صاحب كل
هؤلاء .

وعدت أنا التماسل في فرجة :

— سأرى كل هؤلاء ؟

— طبعاً .

— وطه حسين ؟

— المفروض أن يأتي .. ولكنه لم يصل بعد .. على أية حال
إذا لم يحضر الليلة .. سأحذك إليّ بلودان لتريه .. فالمفروض أن
يأتي هناك معافرة .

ولمأت السعادة بمعي وأنا أحس أنني لو شك أن اتقي أيليا لطيفة ..
سأرى هؤلاء الكتاب الذين ترات لهم .. وسأحدث معهم ، وأحصل
على توصياتهم في الأوتوجراف واستهديهم صورهم .. وسأذهب إلى
بلودان .

وتبل أن يستشير « حسن » للاصراف قال مؤكداً :

— مستعجرون ؟

— طبعاً .

— سأنتظر هناك .

وقبل أن يصل إلى باب الحرفة صحت به فجأة في لمجة خذلان :

— حسن .

واستدار إلى متساعدا :

— ماذا حدث ؟

— لقد تذكرت أنني على موعد الثليلة للذهاب إلى المعرض —

سلمى :

— اعتدري لها .

— لا أستطيع .. لقد رحوتها أنا .. وجملتها تحتتر من الذهاب

إلى السيئنا مع أسرنا .

— إذن هاتيها معك .

— وكيف تحفل .. وليس معنا سوى تذكرة واحدة ؟ !

— ساكون وأنا على الباب لإذظلكا ، لا تحلى هما .

وخرج « حسن » .. وأمسكت بالظيفون أحتف بسلمى :

— سلمى . ساجطك اليوم ترين كل الكتب المشاهير .

ولم تبد عليها أية حياسة لقولى وتساطت ببساطة :

— في المعرض ؟ !

— لا .. في مؤثر الكتب .

ولم بذلك « سلمى » إلا أن تسلم بها انخرعت عليها ، رغم أنها

كانت تفضل المعرض على الاستماع إلى محاضرات مبتلة في مؤثر .

البقاء للأصلح

لم اثنا أن أخلل « سلمى » فيما سبق أن التفتنا عليه من زيارة المعرض قبل أن يدعوس « حصى » لمضور امتتاح مؤثر الكتاب ، لا سيما وأنا أراها قد صليت بذهابنا إلى المؤثر في شيء من الأسف ، مظلبتها في الهاتف صباح اليوم التالي وقلت لها :

— ما رأيك في أن نذهب إلى المعرض قبل الذهاب إلى المؤثر ؟

وأجبت « سلمى » في رنة نرح :

— فكرة مدهشة .. إذا لم نكنك مشقة أو تسبب لك تعباً .

— بالمرّة .

— كيف ستلتقي ؟

— سأبر عليك في الساعة الرابعة .. ونسكت في المعرض حتى

يحين موعد افتتاح المؤثر بعد ذلك .

وصبت « سلمى » تفكر برهة ثم نساطت :

— متى يبدأ افتتاح المؤثر ؟

— في السادسة .. ولكن المفروض أن نكون هناك قبل الموعد بنصف

ساعة .

— وعنى سيئتي ؟

— لا اظنه سيستغرق اكثر من ساعتين .

— لماذا لا نذهب إلى المعرض بعد انتهائه ؟

وتكررت قليلا .. لم تكن احدى إلى متى يمكن أن يستمر المؤتمر بالضغط ، ولا كنت اعرف إلى متى يمكن أن يسبح لي بالسر .. حتىه اس لم اعد صغيرة ، وانى كنت استطيع ان اذهب إلى بعض الزيارات وحدي ، ولكن الذهاب إلى المعرض ليلا .. في موعد لا استطيع تعديده ، متوقف على ساعة انتهاء المؤتمر .. بمسألة كنت تحتاج إلى تنكير واستئذان .

ولحت « ابي » يهر بالحجرة باحثا في شيء .. وقد سبق لى استأذنت منه ويس والى فى الذهاب إلى المؤتمر ، فالتفت مرحبه وجوده واتا اعرف انه دائما يحاول تشجيعى على الخروج والسير ، وعلى عدم الإحساس بما فى من نقص مسئلة ثقلة :

— هل استطيع ان اذهب إلى المعرض مع سلمى بعد انتهاء المؤتمر ؟

ولجاب « أبى » ببساطة :

— « ولیم » .. !

— انشى ان يتأخر المؤتمر .

ومحك « أبى » وقال بنفس البساطة :

— إذا تأخر .. لا فذهبي .

قلت استوضحه وما رالت « سلمى » محقة على الجانب الآخر من الهاتف :

— إذا تأخرت إلى متى ؟ ..

— كم من الوقت تظنين لى تكفى فى المعرض ؟

— يتوقف على وقت انتهاء المؤتمر .

— اسمى لا تحيرى .. لا تتأخرى من الماشرة .. فى المعرض

أو المؤتمر .. أبكتيك هذا .. ؟

— أجل .

ثم وضعت شفتى فى الساعة وقلت لى سلمى :

— كما تشائين .. سمدعب إلى المؤتمر ثم المعرض . أمانا حتى

المباشرة .. الا بكى ذلك ؟

— كناية جدا .

وفى العاصفة والصلب كنت اقف بالعربة بين « سلمى » وضبط التسلق « الكلاكسى » ، ولم تثبت « سلمى » أن أطلقت من الشرفة مسلحة :

— حالا .

وانفذت « سلمى » بقمعها بجوارى ، وادار التسلق العربة ، ثم عبر الكوبرى المعرض القاتم فى الساحة فوق النهر .. وسار بشق طريقته بين المريكبات المتراصة أمام مبنى « سيميراميس » وحشود المتفرجين أمام باب السينما والمتحججين إلى المعرض ، وبنت النافورات متناثرة فى بحرى « بردى » تنفخ منها المياه فى أشكال هندسية محظمة ، واصططعت عربات اللور الأخضر والذرة الملوك .. على سور النهر بالقرب من السلحة .

واتجهت العربة يسارا بعد المنسوق متحذة طريقها إلى مبنى الجامعة .

وبدا الجنى نظيفا اتبع موق الربوة تحيط به الحدائق الخضرة .. وحيطنا من العربة ، وصعدنا درجعت السلم العريض المنفض إلى الباب الرئيسى وبدا رجال الشرطة يسطون بالياب ، وكانت « سلمى » نلى إلا ان نمضى ذراعها لأكى عليها رغم انى كنت استطيع ان ارفع سائى بالشد العبيدى دون حاجة إلى محاولة .

ووجدنا باليهو المسمى إلى المدرج خليطا من كبار المستبشرين الذين وقفوا فى انتظار « رئيس الجمهورية » .. والجمهور الذى أخذ يتنقل إلى المدرج الرئيسى ، وكانت احتفط بالبطانة فى يدى .. ولكن لم اجد الجرد من الباب يحتاج إليها .. فقد كالى الكل ينفلون دوى أن يبرز أحد سلطانته .. ولحت « هسان » خلف على مقربة من الباب وهو يثقت

حوله كثيرا يبحث من شيء ، ولم يكذب برأى حتى هرع إلى وتلدن
و « سلمى » إلى داخل المخرج وحقته قد شمل ثلاثة مقاعد في الصفوف
الجانبية الحقيقية وبيضا كتب أحرجها من داخل الحقيقة ورمها على
المقعدبين الآخرين .

وكانت أشعر بشيء من الرهبة وأما اتخذ طريقتي وسط المقاعد لجر
سائتي ، وحيل إلى أن الأنظار كلها تحدد في فلم أحول أن انظر إلى
أحد ، وثبت نظري في قفا « حسال » الذي سار أمامي بمسح لي الطريق
ويؤنونا إلى المقاعد التي حجزها .

وجلست .. وأحسنت بشيء من الطمأنينة عندما أهدت استغرق
النظر حولي فلم أجد أحدا يحلني بي .. أو يلتفت إلي .

كانت الأنصار تتطلع إلى الخمسة وإلى الصفوف الأولى حيث جلس
الكتاب الصيوف ، وسجعت الألسنة تنهال بالاسماء التي أعرفها والتي
كانت رؤيتها أكثر ما أستوأنني للحضور .

وبدأت انتقل البصر بينهم محاولة أن ليز من أستطيع معرفته منهم .
وبدا « حسال » يقوم بخور المرشد .. ويستعرض قدرته على
معرهم .. ويؤكد معرفته الوثيقة بالكثيرين منهم عندما رار القاهرة
للتحير للكتورة .

ومر على الوجوه يثلثي عليها واحدا بعد واحد .. هذا تحرب
به في الإذاعة المصرية ، وهذه لغتها في المصور ، وذلك دعاء إلى
بداي القصة .

وبدأت انتقل البصر بينهم في فرحة .. وتثبتت لو استطعت أن
أذهب إليهم وأصالحهم .. فلم يكن أحد منهم غريبا علي .. وبدأ لي
أنهم لابد أن يعرفوني من طرف ما عرفت عنهم من كتاباتهم .

ولاح لي بين الوجوه المصطفة للكتاب وجه لم يبد عريبا علي .
ولكنني لم أعرف من يكون .. ولا أحول « حسال » أن يعرفني به .
ومع ذلك انظر إلى الوجه .. وجه نقاد يقارب عمرها مير « مرة »

أخت « سلمى » .. وبدأ الوجه مسحا لطيفا .. غير غريب علي .
ولم أشك في أنني قد رأيت صورتها منشورة من قبل .. ودلعت
« حسال » ببرفتي الفت بطرف الذي بدا بشد إلى جانب يتربعا حمور
رئيس الجمهورية .. وقال لي دون أن يلتفت إلي :

— ها ..

— من تفكر هذه ؟

وكل لابد أن يلتفت إلي حتى يعرف من أعني .. وأثرت بأصمعي ..
مهدف بي زاجرا :

— لا تشيرى هكذا بأصمعيك .. قول لي من تعين ؟ !

وبدأت أمد المقاعد .. وكنت ببطء :

— الرابعة على اليمين من الصف الأول .

واحد « حسال » ير بعصره من جديد على مقاعد الصف الأول حتى
استقر على المقعد الرابع وبدأ ينحس الوجه الذي أعنيته .. وأخيرا
هز رأسه في حيرة .. وعاد يرتقب اليل نقلا :

— لا أعرف .. قد تكون زوجة أحد الكتاب المصريين .. وقد
تكون كاتبة جديدة لا أعرفها .. السمت تعين تلك التي تجلس بين رأسي
وأبنة السعيد !

— أجل .

— ولماذا تسألين عنها ؟

— لأن وجهها غير غريب من ههنا .

— سأسأل لك عنها .. بعد افتتاح المؤتمر .

وبدأتنا سمع جلبة في الخارج . وبعد برهة فطل الرئيس « شكري
الثوئي » .. وسجعت « حسال » بهمس إلي :

— الذي علي يمينه ميد الوهاب حمود وزير المعارف ، والذي
علي يساره

ولم أسمع هيسلته بين مسجج التصليق الذي دوى مدخول رئيس الجمهورية .

ومضت برهة قبل أن يبدأ الجمهور .. ثم أعلن افتتاح المؤتمر ، وأنحه الرئيس إلى المنصة العريضة المرسفة بالمسند وقد سلطت عليها الأسواء وتوسطتها عدة مكبرات للصوت ووضع عليها كوب ودورق مليء بالماء وانتسب وراءها العلم السوري ، أيسك حطابه ببسراء ووضع بيناه وراء ظهره ثم أخذ في إلقاء كلمته .

واعترت القاعة بالتصليق عندما أكد « رئيس الجمهورية » أنها في طريقنا إلى وحدة عربية شاملة لا نكف إيمانها عقبة ولن نتثيا من زمينا لمدة .. ثم تحدث عن المؤتمر الشعبي لتوحيد النضال القومي في هذه الظروف الحساسة التي تحيط بالعالم العربي .

وقالت بعد ذلك كلمات الغلود فتحدث أصحابها عن الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية والأحداث العنيفة التي مرت بها ، وموجات الظلم والنصف والكره التي تقتس على مصر والحرائر ، وعن المرحلة الحاسمة التي يحتارها العالم في تاريخه الحديث حيث بدأ عهد مساواة بين الشعوب بعد أن اخطلت موازينها وسادت السيطرة والاستعمار والاستغلال ، وظالت رهاية بعض الشعوب على حسب حرمين البعض الآخر من أدنى درجات القوت .

وأكدت الاتحادية ثقة الشعب العربي بسمه .. بطائاته الذهبية وقواه المادية ، وإيمانه بأهدافه ، ومقدرته على الحصول على حقه الكامل في حياة كريمة وسط عالم يسوده الرخاء والسلام .

كلام طيب كثير سمعته في الحفل يلأني بالثقة والحياسة ، وأعاد إلى ذهني مبادئ الثمرة وحديث « هسان » الذي بدأ لي بيبا غابشا كأصمات أهلام .. من مشكلة الوطن العربي الذي يحتاج إلى انتفاضة كبرى تسمى به قيود الاستعمار والاحتكار ، وتطلعه منضاميا في وحدة كبرى يقيم بنائه الشايخ وسط عالم تتعالى فيه الأمم ، استفاضة تابعة من نفسه ، من قدرته .. وس طائفاته التي تراكم موتها التمار .

وفي جلساتي تلك أشرب بعيني وانطلق بعيني إلى المصبة المشيئة ، سوالي عليها الشفاء اللطيفة بناتينا المؤينة بوحدتنا وتقدرتنا وحنا .. بنت لي أهلام « حسان » وكأنها قد نصصت وانسحت حقيقة واقعه .. وكأني بالقاعة الصغيرة قد لت عالمنا العربي الكبير لتستع ثوبا يتناسكا .

وانتهى الحفل وأخذت الجماهير في الانصراف ، وهروول بي « هسان » محاولا اللحاق بالآفاد حتى ينهي جمعة رؤيتهم عن شرب والتحدث معهم .

وفي اليوم الخارجي استطعنا اللحاق براسي وأبيسة المسجد وصاحبتنا التي لم أعرف من تكون رغم أن وجهها لم يكن غريبا عن عيني .

وانضم « حسان » الطريق إليهم .. وببسلطة وطيبة قلبه مد يده يشد على أيديهم بحب في حياصة ومرحة قائلا :

— شرفتم استاذ راسي .. البلاد نورت يا دكتورة أبيتة .

ونظر إلى ثالثهما في حيرة ثم استقرسل يقول :

— أهلا وسهلا استاذة .

ورد عليه الثلاثة بحياصة لا تتل عن حياسته . ثم استمرسل « حسان » بذكرهم بنفسه وبزيارته للقاهرة ، موجها الحديث إلى راسي :

— لقد التفتيا في مسرح الأزيكية ليلة حفل أم كلثوم ، عندما أفت « هجرتك يمكن أنسي هواك » .

وانبسطت أسلير « راسي » وأكد له أنه يذكر لقاءهما نايما .. وإن كنت واثقة أنه لا يذكر عن اللقاء شيئا .. وأن استماعه إلى « أم كلثوم » وهي تغني « هجرتك » في حفلها الشهري في مسرح الأزيكية لا يمكن أن يكون حدثا ميمزا .. بل لابد أن يكون صلا يستمرأ في حياته .

واتأأ أبيتة المسجد التي أصر على سمها لقب دكتورة ، كيف التقى

بها في المصور ، واكدت له بما لا يقبل الشك تذكرها لي .

وسميت « حسلى » في عمرة حباسته بأصقلته الأدباء .. وكان على « أن أعمل شيئا أقدم به نفسي .. ولم يكن ليأمن سوى « الأوتوجراف » لتقدم به للتوقيع كوسيلة للتعريف .

وقبل أن أبدأ بي .. قدم « راس » زميلته إلينا بعد أن أحس أن « حسلى » لا يعرف عنها ما يمكنه من منها الفرحيب اللائق . قال « راس » مشيرا إليها :

— الأستاذة نادية عبد المناج .. الأديبة والناقدة المعروفة .

واندفع إليها « حسلى » مهللا في حباسة :

— أستاذة نادية .. أهلا وسهلا .. لقد قرأت لك كتابك عن الرومانسية في الأدب الحديث ، وقرأت لك

وأخذ « حسلى » يجهد دونه محاولا أن يتذكر ما قرأه لها ، وارتسمت على شفيتها ابتسامة رفيعة شاكرة .

وفي لمح البصر ، استطعت أن أبهر من تكون

لقد استطعت أن أري ابتسامتك على شفيتها .

كانت أختك « نادية » ، الأديبة التي حدثتنا عنها خلال جولتك العائرة منا في لندن قبل العملية .

والتي جاءت من راسي في زوايا سحيقة من السيل ، فلم يدمع بها إلى الذكرة غير سميتها التي استطعت أن أجبر فيها سميتك ، والتي جعلتني أدرك سبب ما توهنته من سابق يعرفني بها .

ولم أجد هناك ما يبرر استعالي الأوتوجراف .. فقد كنت أنت .. وسيلة كافية للعبور إليها ، وإلى أصحابها المشهورين ، فطويته في يدي ، وانضمت إليها بمنسالة في حباسة :

— أستاذة نادية .. أخت حمدي ؟

وبدا عليها شيء من الدهشة ، سرعان ما حذفتها ابتسامة عريضة أبدلت على بها وهي تيسر كلها برحمة بعد أن أخت سلتى ، ودا عليها أنها قد علمت شيئا عنى .. وقالت في لهجة رفيعة :

— أهلا وسهلا .. لقد كتبت إلى خالتي عنك . وكنت أحول أن أحرف منذ وصلت كيف اتصل بك ؟

وتسأل « حسلى » في فرحة :

— حقيقة إذن لن ندعك حتى تشرعنوا بالزيارة .

ثم التفت إلى الماتين مؤكدا دعوته :

— تزورنا القليلة للعشاء ؟

واعترض « راس » مؤكدا ارتباطه بسوء سابق ، وكانت « أديبة السعيد » قد تشاغلنا عنا بآخرين .

وقبل أن تنفج « نادية » شفيتها بالاعتذار ، أضلت عليها الدول راجية :

— ستسر ما كثيرا عندما تراك .. هذه فرصة طيبة تزورينا بها ، ملا أظننا سنستطيع العثور عليك بعد ذلك .

وعصمت نادية ثقلة :

— كل المروض أن نرور المعرض بعد حفل الإنتاج .

وهنا حسلى في حباسة :

— نحن أيضا سنقوم بحولة في المعرض .

واردمت أنتم حديثه ثقلة :

— مذهب سويا إلى المعرض ، ثم نعود إلى البيت للعشاء معا .

ولجأت نادية بمسئلية :

— أبركا .

وأستأذنت من صاحبيها ثم سارت معا .

وكانت « سلسى » طوال الوقت قد وقفت جانباً نرقبنا في هدوء ، لمقبتها إلى « نادية » ثقلة :

— سلسى .. صديقتى .

وحيتها نادية في رقة ، وانحنوا جميعا إلى اليا ، وحبطنا الدرج العريض متجهين إلى المعرض ، نائدين إليه من الباب الخلفى القريب من باب الجامعة ، بعد أن ساءلت السائق أن ينتظروا صد الباب الرئيسي .

وكان الزحائم على أشده ، ربات .. يحل التلس ويفرجون ،
وعريت الأطمه نك على الطريق الجاور للهر ، والأكدام المتزاجة
تثير فيار الطريق ، وتطأ الأوراق المبرقة المحتلطة منشور الفاكهة التي
ملأت الأرض .

ودلفنا من الباب وسط الأجساد المتلاصقة المشورة بالخل ،
وعبرنا المر إلى أرض المعرض المسبعة .. وجدت لنا النافورة الكبرى
التي تقوس للفناء وقد انمكتت الأنوار الملوثة على مياهها الهادرة .

وبدا المعرض يتدحنا بالحياة .. صلع مفلومة ، وآلات برصوصه ،
والناس تتفرج على الناس .. عيون تعلق في عيون ، وأقدام تطوى
الأرض ملا طل ، تروح وتمحو ، يلاحق بمصها البعض ، كاتبة طوابير
تستعرض طوابير ، وشاه ومطاعم شلا رحاب المعرض . وانواء تسمع
وازوار تطلع ، والحياة تارس في حراسة .. وكثر أصعبها يلحقون
بآخر زادهم .

واخذنا نتنقل من معنى إلى معنى ، مع مالات والبصائع ، ونحدث
في الناس ونحدث فينا الناس .. يثرثر « حصل » يا ترأ وما كتب
وما يموى أن يقرأ ويكتب ، واثرثر بأ حرمات عن أخوها وما فعلته لنا
خالفنا ، وتثرثر في با حدث في مصر ، عقب التأخير ، وتفتت لنا
« سلمى » فلسفة راضية .

ولاح معنى الاتحاد السوفييتي في أرض المعرض شخبا مسيحا ،
وبجواره معنى تشيكوسلوفاكيا ، والصين ، وبعض الدول الشيوعية
.. وقال « حسن » مملتا وهو يفسك :

— الكتلة الشعبية تستعرض عضلاتها ..

وأجابته نادية :

— دعها تستعرض ، ما دامت تعاوننا في الخلاص من قيسمة
الغرب .

— من أجل الواقع في قيسمتها ؟!

— أحدث هذا ؟!

— نحن متهمون به .

— أمو حقيقة ؟

— ليس بعد .

— أيسر أن يصيح حقيقة ؟

— لو تعاوننا عنه .

— إلى علينا أن نجل العون في حذر .

— دون أن ندفع الترس ؟

— دون أن ندفع لنا مينيا من حريتنا ، علينا أن نصالح اليد
المحدودة لنا ، دون أن نستريح في قيسمتها .. لقد حررنا صفة
السلاح من قبضة الغرب ، دون أن نجعل منها قصة على أماننا ..
لقد أيقظنا بحركة « الصاعدة » على ما يمكن أن نخطه بنا إسرائيل ،
إذا استمر بنا الحل عزلا من السلاح الذي يتدفق علينا من الغرب ..
مكان علينا أن نؤمن أنفسنا .
وأحاب حصل في لغة :

— لقد ألتزم الوطن العربي كله .. لم يعد بيننا أحد ينظر لمر على
لها حزم مستقل من الوطن العربي .. كلما منا نحصن أن الوطن العربي
جسد واحد .. لم يكن في أي وقت أكثر إحساسا بالوحدة الشاملة
ورغبة فيها منا الآن .. إلى هذا إيساسي الشعب كله .

— بكل ما فيه من اتجاهات وبيول ؟

وتردد حسن قبل أن يجيبها على سؤالها ، وكنا قد وصلنا إلى
مقهى قريب من الباب فقال حسن :

« نجلس لتشرب شيئا ، ثم نعود إلى البيت ؟

ولمحت نادية وأجابت في خنة دم بحرية :

— هذه عزومة ديمقراطية .

وسألنا ضاحكة :

— ما هي العزومة الديمقراطية ؟

— يدموك الديمقراطي إلى بيته ، وتقل الضياء يسلك .. انعش

أم تلاميذ حنيئة أنسل ، ولا تجذب إليك سوى أن تحتاذي العرص
الأنسل ، وتوثرى له العشاء .

ثم نظرت إلى « حسان » قللة :

— نذهب إلى البيت لنصل لجيك .

وقبله « حسان » قللا :

— لا والله لم أقصد .. لقد خشيت أن أصحبكم من العشاء .

وتذكرت أتى سألني، لم يدعوه « نادية » على العشاء ، وتمسرت
بدي ما يمكن أن يسبه لها من إزعاج بهذه الدعوة المفاجئة .. وحاولت
أن أفكر ماذا تفديت ، وهل يمكن أن يكون قد تنقى لدينا ما يصلح للتعبير
بلغة عشاء مناسبة .

ثم خطر ببالي أن أذهب لأحدث « لمى » في أقرب تليفون وألجأها
للدعوة ، ولكني لم أجد من الوقت ما يمكن أن يسحبها منعة تفسير شيء ،
وخشيت أن تلبسني بلن الفى دعوتى ولأجلها إلى العد .

ولم أجد مفرأ من أن أطرد المشكلة من ذهنى .. وأتركها هـ ،
يعاون لمى على حلها .

ولتحضنا إلى الباب ، وعبرنا التهر ، ولاحت التوافير في محراء ..
تتدفق صياحها تحت الأصواء اللونة بطريفة احدة ، وشت في الجانب
الأخر من الطريق ساحة الملاهي امزقتها الأصواء وفلا منها صعب
وشعيج ودخان وتراب ولاحت بمصر امهزتها متحركة في الهواء ،
وكانت الساعة قد بلغت التاسعة .

وتسائل حسان ، ونص نعيم الطريق إلى العربة :

— اتجهون أن نذهب إلى الملاهي ؟

وعزت سلمى رأسها مائس ، فقد كتبت ترغص الذعساب إلى
الملاهي لحد إحساسها بأنها تشعرنى بمصر المعز في الاستمتاع
لمعابها .

وقلت وأنا أنظر إلى الساعة :

— إن الوقت قد حلل للعودة .

وحطما في العربة .. « حسان » حوار السائق .. وأنا وبليدة
وسلمى في المقعد الخلفى ، وقبل أن تتحرك العربة تالت سلمى :

— أيمكن أن توصلنى إلى البيت ؟

ولجبتها راجية :

— بعد أن تتأولى العشاء معنا .

— الوقت متأخر .. وميا سستفشل على .

— سأحدها في التليفون .

— ولكن ...

وتاطمتها نادية قللة في رقة :

— من أجل صيمك الحديدة .

وأجبر وجه « سلمى » وأجابت ضاحكة :

— حاضر .

وانطلقنا إلى البيت .. ودارت بما لعمرة صاعدة الطريق إلى
سمح الحبل .. وتوقفت أمام باب البيت .. وحيطنا للدخول .

وقبل أن تدخل « نادية » البيت وقتت تطلب البصر في أنوار المدينة
المتناثرة أمبل الحبل .. وأنوار الجبل التي رصعت سمعه .. وقالت
في إعجاب :

— مذهش .. انتهى لو عشت هنا .

وقال حسان في حرارة :

— ولهم لا .. هنا بلدك .. والقاهرة بلدى .

وعزت نادية رأسها قللة في إخلاص :

— حقيقة لم أجس من بلد نى لم أعدر القاهرة .. كما أحسست
هنا .. كل شيء عنكم يلا نفس إحساسا بوطنى .. التناوارع ولافتت
الهوايت .. والناس في الطرقات .. وأحاسيس المحبة التي تعمرنى
كلما جلست معكم .

ونظر إليها حسان مأخوذاً .. نظر إليها بطريقة شعرت منها أن شيئاً ما قد ثبت في نفسه .

وكان محذورا .. فقد كانت « نادية » مخلوتا يحب . ولست أعرف حتى الآن سر جاذبيتها .

لقد ثقت بنفسى في بعض الأحيان إن جاذبيتها كانت — بالنسبة لى — في شبيها الشديد بك .. ولكن بالنسبة لغيرى .. ما سرها ! !
أحى بسينها الحلوة .. أم تسماتها الرفيعة .. أم ذكائها المفرط .. وقدرتها الفاتحة في الحديث ؟ !
لم كل هذا بما ؟ !

على أى حال .. لقد حان لثراها واضحا في تصرفات « حسان » .. في أنبها .. وإتباعه .. وفرحته .

وكان واضحا في « سلمى » .. عندما عرفنا منها أنها تعمل بالتدريس ، فهنت سلمى :

— ليك تدريس لنا ؟

ولحننت نادية ضاحكة :

— أنا مدرسة قاسية ..

ورددت عليها :

— غير محقول .. لابد أنك تكلمين تلميذاتك .

— إلى كمهن .

— ولابد أنهن يحببنك ؟ !

— جائز .

وفعلنا البيت .

ودعشت « أسى » عندما وجدت مصربة ممي .. ويئت عليها مظاهر الضيق بفاجأتى .. ولكنها لم تكد تطم لها ابنة أخت « لمليدة » حتى غلبت فرحتها بها ضيقتها بالمفاجأة .

والقبل « أبى » مهلا .

رحب بها .. كثرية « للطفة » .. صاحبة الفضل الذى لا ينساه في محنته .

بمرة .. تكلمنى حلوة .

وأنا أعرف أبى جيدا .

مائل .. مائل .. مقلن .. مقلن .. ولكن مقله واترائه لم يحولا بدا .. بينه وبين الاشرار بوحود الضيفة الحلوة ، والابتهاج بحبانتها .

وسألت أسى « نادية » عن خلقها .

ودعت نادية في الأحاديث النسيبة نفس القفرة التى أبهتتها في المناقشة السياسية .

وببارى « حسان » و « أبى » في إكرام « نادية » .. وفي الحديث معها .

واستطاع « حسان » في النهاية أن يحتلب « نادية » مرة أخرى إلى مناقشته الأولى .. عنينا سلكها قائلا :

— كنت تصالين .. هل يحسن جميع الشعب برغبة في الوحدة العربية بكافة ميوله واتجاهاته ؟

والفتت إليه « نادية » في شيء من الإهتمام :

— لجل .. سالكه ولم يجب .

وبدا التفكير على وجه « حسان » ثم أجاب في بطة :

— الواقع أن الإجابة .. هي نعم .. بكل ميوله واتجاهاته .. ولكن لماذا ؟ وإلى أى مدى ؟ ! ذلك هي المشكلة .

وهزت نادية رأسها بمسائلة :

— ماذا تصي ؟

— أعنى أن الشيوعيين يؤيدون القومية العربية والوحدة العربية .. والوحدة العربية .. والبعثيون يؤيدونها ، والرجعيون أيضا يؤيدونها .. ولكن .. لماذا يؤيدوا كل هؤلاء .. وإلى أى مدى يمكن أن يسيروا

واصبر أيديهم في أيدي الجبابرة التي تطلب الوحدة في أمماتها ..
تلك هي المشكلة ؟ !

وابصمت نادية وقالت :

— مطلوب تفسير .. لقد فسرنا الماء .

وأكل أبي ضامكا :

— بعد الجهد بالماء .. تلك هي عاقبة .

ورد حسان وقد بنت عليه معالم التفكير :

— أعتقد أن الكل يحس أنه في حاجة إلى التعاون مع القومية
للعربية .. من أجل المحافظة على كيانه .. والتضامن على خصم مشترك
.. هو الاستعمار .. وعتما يقضى على الاستعمار .. يثبت كل
منهم قدمه ويستتير ليقتفى على الآخرين .

ونظر إليه أبي ضامكا وقال :

— هكذا ؟ !

— أجل .

وقالت نادية :

— ألا تبذل في سوء الظن ؟

— أنا أمرهم جيدا .

— على أية حال .. كل من يعاون في القضاء على الخصم المشترك
في هذه المرحلة .. يجب أن تقبل معونته .

وضحك حسان قائلا :

— على العين والראس .

وردت نادية :

— والبقاء بعد ذلك للأصلح .

وكانت أم تدبر معركة إنتفاذ ما يمكن إنفاذه من بقايا الفساد ،
لتجهيز مادة غذاء لا يفتنوا أمام الضيقة المصرية .

واقبلت علينا تتعثر من الحجل وهي تقول :

— نفضلوا .. نأكل لقمة .. على ما قسم .

وضحكت نادية وهي ترى المقدمة مكتظة بالأطعمة .. وقالت :

— على ما قسم .. كثير .. أكثر مما يجب .

وتجيت لى بعظرة :

— غدا .. مستنفذين معنا .

ولجأت نادية في رقة :

— حاضر .

النهر والجبل

انتهى مؤتمر الإدياب .. وكنت ألقى « نادية » خلاله في كل يوم من أيامه إياها في بلودان وإياها هنا في دمشق .. وتوطعت أواخر الصداقة بيننا وأهسسنا ونحن نودعها بأننا نودع صديقا مريبا طالت صحبتنا له .

وولنا نلوح لها وهي تسير تجاه الطقرة وظلت إلينا بين آونة وأخرى .

وهفت بها حسنا :

— مستعدين نكبة ؟

— طبعاً .

وعانت تظلت إلينا ملوحة بيدها وهي تهف :

— وسأنتظركم في القاهرة .

وأكد « حسنا » في حياصة :

— قريبا جدا .

ورحلت منا نادية .. ولم نستطع أن نلقى بوعفنا لها .. فقد كان المدون الأثم القرب إلى مصر بنا ، ولم تبقي بضعة أسابيع حتى انتقلت قوى الطغيان على مصر تملس أحق أعمال البربرية الطائشة في القرن العشرين .

ولست في حاجة إلى أن أشرح لك أحاسيسا تحوكم وقتذاك .. لقد جسد المدون عليكم .. الصلة الموهومة التي كل يتحدث عنها « حسنا » وغيره من الشباب المنحصر ، صلة التومية العربية .. صلة الآية الواحدة .. أو الأسرة الواحدة .. أو الحسد الواحد .. الذي يشك أصبعه فصرخ شفتاه .

كان المدون عليكم ، مدونا لنا .. نزلت الفرية بكم .. وصدرت الأعات من شفتاه .

وأقبل علينا « حسنا » يوداك وصدره يظلي بالنصب قائلا في مزج :

— لقد قررت التطوع .

ورفعت خلفي « حفيظة » حاجبيها بتسائلة في دهشة :

— تطوع ؟

— أجل .. سأذهب للفداح عن بورسعيد .

وهزت « خلفي » رأسها في ضيق :

— كفى حيلة يا حسنا .. ماذا تفعل أنت لبورسعيد .

— يا يفعل أهلها .. سأشارك في صد الإنجليز والفرسيين ..

سأخذ بشارنا من الاستعمار الفرنسي .

ورد عليه أبوه قائلا متؤدة :

— هذه الأمور لا تؤخذ بمثل هذا الهوس .. كيف تذهب وكيف

تحارب .. نحن كلنا نشعر بأن قلوبنا معهم .

ولجئ « حسنا » في انفعال :

— قلوبنا لا تكفي .. يجب أن تكون بسواعفنا .. وبرعونا ..

واعتاننا .

وترك « حسنا » الفرقة في ضيق .

ولم يكن « ريان » أخو « سلمى » أقل منه حياصة ... ولكنه

كل أكثر قدرة ونفعا .. وكان يتحدث كمسكري يحرف عن القتل أكثر

بما يعرف « حسنا » .

وستفت انفيج البترول .. وتطلعت علاقتنا مع دول العدوان .
وهبت سوريا كلها .. وقد اشتعلت حياسة .

وعينتم للمركة ، وارنطيت سكين العدوان التي هالت ارعكم
قطعة زيد .. يصغر مقاومتكم .

ووقت تاذكم يواجه بارد الاستعمار في صلابة وإصرار لم ينحس
.. ولم يهن .. ولم تثن قتاله .

وهزم إيمانته بحته .. كل اسلحة الباطل واليهل .. وبهرت
صلانته وصلاتكم المعلم كله ، وبطر إليكم مشعوها مأخودا .. واتهارت
اسطورة القوة البربرية الفاشية .. وبرر مكانها الحق الذي يعلو القوة ،
والطفيان ، والسلاح .

ولم تطل وقفة التمس مثلسا بحريته طويلا في ارعكم بعد ان وقمن
في وجهه .. ونفختم عدوانه .. وكسنتم اسلطيته .

جرر اذيال الحية .. وعاد مطاطي الراس مهبس الجناح .

ووقتتم انتم تنفضون غبار المعركة وتلعثون جراحها . ويدات
اواصر تشد تربطنا بكم .. واحاسيس اقوى .. تشدا وإياكم .. لند
وجد كل منا في صاحبه سنده في الشدة .. وملاذه في الصراء .

ويداننا نحن نعانى الشدة .. لم تكن شدة صريحة .. واضمة
حاسية كالشدة التي مرت بكم ، ولكنها كانت صراعا طويلا مريرا .

وبلغ الصراع اتسده في اواخر المعلم الذي انتهت فيه معركتكم عام
١٩٥٧ .

وبدا الصراع بين الشرق والغرب يتخذ أرضنا ميدانا لمركته ...
واحس العرب ان الشرق قد كسب أرضا لا بد من طرده منها وحصل
على نفوذ لا بد من سلبه إياه .

وبدا التسبب كله يستمد لمركة المصير .. وابتلات مصكرات
القدامة الشعبية بالتطوعين .

ولم نشعر قط أننا نخوض معركة المصير وحفنا .

كما نحس ان المشاعر التي تنفقت منا إليكم في معركتكم عالت
تتدفق منكم إلينا في معركتنا .

ووقتت القوات التركية تهددنا على الحدود الشمالية .

وراح الأسطول الأمريكي يحرس عضلانه منظرنا أمام بيروت .

وفي نفس الوقت وصل حوذكم إلينا ليهوضوا معنا معركة الدفاع
.. وليندوا مع حوذكنا جنبا إلى جنب في الشمال والجنوب .. ليتشاركوا
الجراح .. ويتبادلوا الضياء المرقلة من أجل أرضنا الحرة الطيبة .

وفي تلك الوقت حالت لي أول فرصة لزيارة مصر .

بدلت الفرصة بصر قراء أبي في إحدى النصح المصرية ، واخذ
يردده بصوت يرتفع كأنه يحاول أن يلقبه في ذهنه .

ولم يكن لشأ حلة بالصراع الذي يحوصه أو القوات التركية
المحتشدة على الحدود .. أو الأسطول الأمريكي المتختر في مياه البحر
الأيبي .

مل كلى القخير مجرد سطور ثلاث عن زيارة أحد بشاهير أطباء
العظام في المعلم للقاهرة خلال الأسابيع القليلة للقيام ببعض العمليات
الجراحية والاستشارات الطبية .

وكل الوقت قبيل العشاء ، ولبي تتسائل مع « حبيبة » بترتيب
المدة وكانت حائلي « حبيطة » تحس أمام مخاض كهربائية جديدة أحضرها
أبي قد وضعت فيها ما يشبه الحبرات في داخلها ، وعلى مقربة منا
جلس « حسن » يقلب كتابا في يده .

وكل أكتوبر تد أبل وجر معه بواكر الشتاء .

ووجدت « أبي » ذرعف سمعها إلى الطير الذي قراء لي بصوت
عال ، ثم تذب بالقصيدة على المنسدة بجواره .

واستدارت « أبي » ثم أقيلت تعاضنا وقالت « لأبي » ببساطة :

— وددت لو سنحت لنا الفرصة لزيارة مصر .. لقد وعظني دائما
بأن تأخذني إلى هناك .

ونظرت إليها مطرب مبتى عند استطلعت بسهولة أن أعرف ما بدور
 بذمها ، وتلت لها بتسائلة في شيء من المسطرة :
 — لمرى طبيب اعظام ؟ !
 — ولم ؟ ! : فرصة طيبة .. لعله يشير علينا برأى .
 ونسألت في ضيق :
 — راي في ماذا ؟
 ولم يحر أحد منهم جوابا .. ولكن أجراهم على أبي فقال :
 — لا شبر أبدا من الاستشارة .
 واجبت في عناد :
 — قلت لكم إني راضية بحالتي .
 — نحن أيضا راضون برضاك .. ونسأل الله المريد منه .
 — علام الاستشارة إذن ؟
 — قد يكون له رأي جديد في ...
 وقلت محاولا أن أفسح حدا للمناقشة :
 — جديد أم قديم ، لقد قلت لكم إني لم أحاول أبدا تكرار التجربة
 التي مرت بها في لندن .
 وتسلطت « خالتي » في دهشة :
 — يا سيدي .. لم لا تحاول ؟
 — ولم أحاول ؟
 — لكي .. لكي .. أمني لكي تحصى أنت أنك أفضل .
 — لمست أريد أن أكون أفضل مما أنا .
 — ولكننا نص نريد .
 وحاولت « خالتي » أن تدخل المناقشة في جو من المرح فأردت
 ضاحكة :
 — لا تنسى أنني هناك ، ولي عليك حق زوجة الأب .
 وزاد مزاحها من إحساسها بالضيق فقلت في شيء من الحدة :
 — أنا لا أحب الحديث في هذا الموضوع .

واستمرت « خالتي » تقول في لهجتها المرحمة المرححة :
 — ابدات تضجين منه ؟
 — ليس خجلا .
 — لماذا إذن ؟
 — لا أحب المزاح في مثل هذه الأثناء .
 وتجمعت « خالتي » ضاحكة وردت ثالثة :
 — هذا ليس بمزاح .. إنه جد .. لن أتناول أبدا من زواحك من
 حسان .
 وكثرت الاسترسال في الموضوع ، فقلت في لهجة أصرار لكي
 أضح حدا لأي محاولة لطرفة ثالثة :
 — أنا لا أريد الزواج .. لن أتزوج .
 ولم يكن « حسان » قد نيس بكلمة .
 بسقه « أبي » ضاحكا :
 — وأنت يا حسان ! ما رأيك في حديث أمك ؟
 وقال « حسان » يستخف :
 — لعب أمهات .. ليس عندها غير حديث الزواج في وحالتي ..
 أنا أيضا لا أفكر في الزواج أبدا .
 واجلب « أبي » وهو يمز رأسه بشبا :
 — معك حق .. تريخ نفسك .
 ونظرت « أمي » إني « أبي » في عيط بتسائلة :
 — ولماذا لم ترح أنت نفسك ؟ !
 — بكرك أخذك .. لا بطل .
 — ومن أكرهك ؟
 — سواد عينيك .
 وانفثرت إليه « أمي » شذرا ثم عادت لتتسائل :
 — متى ستذهب بنا إلى مصر ؟

وأحست أننا قبل أن يحجب هو :

— إذا كان من أجل الطبيب فلن أذهب .

ورد حسلى :

— نذهب لزيارة نادية وأخيها ، ونحضر مؤتمر الإذياء الثالث الذى سيعقد فى القاهرة فى الشهر القادم .

وأجبت على الفور :

— موافقة .. بشرط ألا أذهب لهذا الطبيب .

وردت « أمى » فى حدة :

— يا هذا العناد .. لماذا لا نذهبين إليه ؟

— قلت لكم إن أميل مبلية .

وتدخل « أبى » تقالا :

— لا ضرورة لحلية .. فقد يشور علينا بأى نوع من العلاج ..

تدليك بالكهرباء .. علاج حليمى .

وقال « حسلى » فى إلحاح :

— وانقضى يا حبيبة .. نذهب وبطلها رننا هناك .. لقد وعدنا

ناعية أن نروها .. وغرصة طيبة أن نحضر المؤتمر ومراها .

ونظرت حلاتى « حنيفة » إلى اسمها وقلبت فى سحرية :

— لماذا كل هذا الاهتمام بالنسب نادية ؟ !

وأجاب « حسلى » بنفسى المسفرة :

— ريملى فى الإذهب .

— نطق ؟

وأجاب « أبى » ضاحكا :

— ودعها حليف .

وردت « حلاتى » وهى تهز رأسها فى غيظ :

— أكلت مظلم ؟ !

وقلت ادافع من نادية :

— إنها حقيقة لطيفة يا حلاتى .

ونظرت إلى من عبط ذللة :

— من لطيفه .. وثنت حبيطة .

وفهمت ما تمنى « حلاتى » . وادركت أنها بما زالت نصر على أنى

روجه « حسلى » ، وأنى حبيطة « لانى تركت » نادية « ناكل عقل

روحى .. ولم أرد عليها ، وادعيت أنى لم أتهم حتى لا تدخل فى مناقشة

جديدة حول الزواج المزعوم .

وانتهى الحديث من السفر إلى القاهرة لينتدك .. ومرت بشمعة

أيام جلست فيها أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، حتى دخل أبى ذات

يوم قبل الظهيرة وقبل أن يستقر بجوارنا على المائدة قال :

— حجربا على الطفرة المسطرة لهذا إلى القاهرة .

ونظرت إليه من دهشة :

— استفسر حقا ؟

وقال لى ضاحكا :

— ألم تتفق ؟

ولم يكن قد انتفخا على شيء ، ولكنى أدركت أنه اتفق مع « أمى »

التي استقر من دهبها حصر الطبيب العالمى للمعظم الذى سيعبر القاهرة

.. فغاص لها بصيصا من الأمل ، فلم تسترح حتى التقت مع « أبى »

ودرا معا زيارتنا للقاهرة .

ومى اليوم التالي كنا نجلس فى البهو الضيق للبطار على المقعد

الطلدى الطويل ، وكانت « حلاتى حنيفة » قد قررت أن نصحنا مع

« حسلى » .. وجلست بينهما وبين « أمى » وقد شرد ذهنى فيها تركته

ورائى فى حشيق وما أوشك أن ألقاه فى القاهرة .

ولم تكن الزيارة الأولى لبلدنا مصر ، فقد كانت لا نفقا تشهز

الدرسى حتى تطير إلى هناك لتزور معارفها من الأسر المصرية وتعد

ملاات جديدة مع معارف حدد وتوثق الروابط بين الجمعيات المسائية

التي تشترك فيها والجمعيات المشابهة فى القاهرة .

وقالت « حلاتى » نثرثر لنضيق الوقت حتى ينهى « حسلى »

و « أيا » من إجراءات السفر في الجبرك وفي الجوارات :
— لو كان الوقت حقا لذهبت نكم إلى الإسكندرية ، ولربكم
بحرها الجبل .

وقلت بمسألة أشاركها في الفرء :

— ولماذا لا يذهب الآن ؟ !

— أغلب المصدين قد غادروها إلى القاهرة .. وسنجد الشواطئ
خالية .

وكنت أعي مبيد ذهني كل البعد عما تحدثت به .. كانت تذكر
في أمور أهم بالنسبة إليها من الإسكندرية وشواطئها الحالية وبحرها
الجبل .

وسألها « خالتي » محاولة انتزاعها من شرودها :

— اتعنين الذهاب إلى الإسكندرية يا عاتمة ؟

وأجبت « أيا » بسؤال أعمد ما يكون من موضوع الحديث ثالثة :
— انتظينا سجد الطبيب ما زال في القاهرة ؟ !

وسطرت إليها في عيظ ، وقلت لها :

— قلت لكم أنني لا أذهب للطبيب .

ولم تغلق « أيا » على فولي واستمرت تسأل خالتي بقولها :

— انتظنين أنا سألن به هناك ؟ !

ولجأت « خالتي » بمطئنة إياها :

— طبعاً .. فالمفروض أنه سيترك حسب قول الصحف بصمة
أسلح و لم يمس أسبوع على اليوم الذي قرأنا فيه الخبر .

وعاشت أيا في شرودها ، وأقبل أيا ووراء « حسن » وصوت
الميكروفون يملأ مؤننا بقول الطفرة :

وحلفت بنا الطفرة وأجبت دور دمشق وقضايا التي تقع في حوض
الجبل تتشابه . وبعد لنا حضرة الفوطنة مسيجة ببسطه .. وانجحت
الطفرة إلى بيروت وركبت الجبال الصفر المحاطة بالمرار المترامية في

الوديان حول بحاري المياه وأخذت الخشرة تنكو السهوح والقمم ،
وسرعى ما بدأ السهل الأخضر الذي يسط حتى حال لتل التي علت
تبها الطلج البهش كأنها رغاوي الطيب .

وبدت بيوت بيروت تبتد وراء السطح الآخر من الجبال .. ثم أخذت
نلك كله لتبدو أسفنا رقعة زرقاء مجمدة تحجبها تلك من السحب
البهش لتلاقي على وجهها هنا وهناك .

ولم أجد جديدا لرتبه من نافذة الطفرة .. فمحت استرخي في
مقعدى ، الكوك قطعة من الطلوي وأقلب المجلات التي امتصها في
الطلي .

ورقع بصرى وأنا ألقب الصنعاك على صورة فمحت إلى شفتي
مسيحة مرح ومحت يدي بالحلة إلى « حسن » الذي اتخذ مجلسه
محاربي وقلت له :

— انظر .

وارتست على شفتي « حسن » ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى
الصورة واحتفظت المجلة من يدي وأقبل على شراعتها في لهلة .

وعرت خالتي رأسها بمسئلة :

ماجتها صائكة :

— صورة ثانية .

وقلت « خالتي » شفتي السفلى وركعت حاجبها مبقية دهشتها
وسفريتها من كل هذا الاهتمام الذي تلقاه « ثانية » منا .

ولم يكن هناك شك في أن « خالتي » قد اندركت بإحساس المرأة
أن « ثانية » قد استرعت اهتمام الرجل في « حسن » ولها قد
أثارت في مشاهره شيئا لم أبلغ أنا قط في إثارته .

ولم يرعها هذا بالطبع .. ولم يرعها أكثر منه أن أشجعها أنا
على الاهتمام بها وأعاون على دفعه نحوه .. بطريقة تؤكد تعاليا أيا
لا أكاد أشعر بل « حسن » بنفسى ، أو أن هناك أي احتمال لأن أحس

محوه باى إحسانى يمكن أن يخلصنى إلى محاولة الاحتفاظ به أو لعبرد عليه .

ورغم أن « حلتى » كانت تعتبر أن هذا النصب لم يكن إلا مظهرا من مظاهر عدم النسخ ، أو على حد قولها « النصب » فقد وجدته يثير قلقها وغيبها ، وأحسست بأنه ظل من قدر الحياصة الذي كان مبروصا أن تلقى « نادية » به باعتبارها قريبة صديقتها العزيزة « لطيفة » . التي كانت هي نفسها السبب في معرفتنا بها .

ولم ألق بالآ إلى صديق « حلتى » .. فقد كنت أعثر مشروعه لزوجنا وهما كانا .. لى ثلث هي نفسها أن نكتشف أن في الميت الإصرار على التفكير فيه .. والتدبير له .

وعندت أشرد في شؤون السبلة الخاصة والعامة .. المدرسة و « سلمى » .. والرمة التي ساورتنا في الاشتراك في محسرات المقلوبة الشعبية .. ورفضها فكرة الاشتراك .. حشيه أن تكون سافى عتية في سبيل اشراكي فخصايق .. ولكنى كنت أمر على الاشتراك مؤكدة أن سافى لا تخرس في أى شيء .. التلم إلا من مظاهر الجبل والرشاقة التي استطعت أن أروى نفسي على شلبيها .. والاستماع عنهما .

واستدعاني من شرودى صوت المصبة تهلق :

— نمر الطائرة الآن ببورسعيد .

واسرعت أطل من النافذة في لمة .. لأرى المدينة الأسطورية .. التي أملت أصابع المستعمر . ووجدت وهم المستعبدين فيه . وقدمت للمناضلين من أجل حريتهم المرمية التي هرت طوده وحلحلت حدوره وقللت قواعده .

وجدت المدينة من تلك تقع في أحضان البحر ، ولقد شريط الفناء التي هزت غدير العالم عنفما حالت إلى أصحابها بقوة الحق والإيمان به والإصرار عليه .

واحدث انظر إلى المزارع الحصر التي أبسطت على مدى البحر . وقد تلتفتت فيها القري الرمادية .

وعاد صوت المسيلة يستلنا ربط الأهزمة والكث من التحسين .. ويمثلنا ألما على وشك التهبوط إلى القاهرة .

وبعد لنا الدور والظرفلت .. والطائرة تلف لتهبط إلى المطار . واستقرت بنا الطائرة أخيرا على أرضكم .

ولقينا في المطار بعض من لا أعرفهم من استقاء « أبى » ومحارف « حلتى » حبيطة . ولم يطل بنا الختام في المطار حتى استقرنا في إحدى العربات تشق بنا طرقت القاهرة .. من مصر الجديدة ببناها الأنينة إلى اسعانية ببناها العسقة . إلى قلب القاهرة بأزدهاله وصحه حتى قلنا أخيرا بباب سبوراميس .

ووقفت في شرفة إحدى حجرات الصباح الذي حيزه أبى .. أطل على الليل العريس من إعجاب وفرحة ، وقد بدأ الكوبري الذي تبع الأسدان إلمه .. وأبدت الحيل والأشجار على شاطئه المقابل . ومي اللامع المسح .. وراء شريط الأنينة بدت الأهرام الثلاثة كما يحدث أن أراها في الصور .

وهتفت بألى مرحة .

— حيا .. أرايت الأهرام ؟

وكانت أبى بمهجة كمانتها في رص اللباس في الدواليب وكل من الصمت أن أثير أنباها لأى شيء وهي مدحجة في مبيتها الحظيرة .. فلم أهد سوى « أبى » أجره إلى الشرفة ، وأشركة في إعجابى بها أراء . وشاركى أبى الإعجاب مجللا ، إذ لم يكن المطر غريبا عليه .. فقد أعجب به في سابق زيارته وانتوى . ومع ذلك وقف يشير إلى النيل العريس المنسبط وإلى النافورة القانية في عرشه قتلا .

— ينظر رائع .

وكانت الشمس قد بدأت في الهبوط إلى الأفق وانهمكت انحدما

الوردية تصبح حوائى السحب المنزلة بلون العبر . وانعكست صور .
الائق المضيء لى النهر العريض مدا كانه لوحة رائعة .
ولم تطل مشاركة لى لى لى الاسمتاع بالنظر الرائع .. وسرعان
ما عاد إلى حجرته .

ودعيت ابحت عن « حساب » .. فقد كاث هير من يصير على مثل
هذا الإعجاب الشامرى بساطر الطبيعة .. بالفروب والشفق والنهر
العريض .

ولم أجد له أثرا .. فقد اختلى الخفاء تابا .. حتى ابصره يبرون
لى عجلة ، وقد بدا عليه الإثراج وهو يهتف فرحا :

— نائية نائية إلينا .. هى وألوحها حمدي .

وتسائلت لى دهشة :

— حقيقة ؟ !

— أجل .

— كيف عرفت ؟

— اتصلت بهما لى التليفون .. وقلت لهما إلنا هنا .

— ومذا قالت لك ؟ !

— فرحت جدا .. تصورى لقد عرفت صوتى قبل أن أقول لهما
من أنا .

وبدت رنة الفرحة لى بيرانه وهو يقول إنها عرفت صوته .. ولم
يستطع « خالتي حليظة » أن تكتم عظمها به ، من تسرعه لى الاتصال
بها ، وس لرحته بمعرفتها بصوته .

وقبل أن يستمر « هسان » لى حديثه المبتهج تاطمئنه « خالتي »
تأثلا لى سفرية :

— طبعاً تعرفك .. هل نظمتها معذاة كل يوم على لهجتك السورية ..
ورد عليها هسان لى عذال :

— لقد مزجت صوتى ، ولست لهجتي .

وسألت خالتي باللهجة المصرية التى كانت تجيد الحديث بها :

— هل كلمتها باللهجة المصرية ؟

— لا طبعاً .

— هل طبعها تعرف سوريين عجرك ؟

وهر حس رأسه لى كبرياء أحق يفتى من « نادية » أنها تعرف
سوريين غيره قتلا :

— لا أشي .

— إذن .. فليس هناك لمابة لى أن تعرفك ؟ !

ولم يبادل هسان أن يسلم باللهوية بسهولة ، فنظر إلى أمه لى
عماد غيبي قتلا .

— أنا واللق من أبها بيرت صوتى .. لاني ميرت صوتها .

وهرت أمه رأسها بسلسلة بسعائنه وتركنا ومضت إلى الشرمة .
وعاد هسان يقول :

— لقد صيبت أن تدمونا على العشاء .

— الليلة ؟

— أجل .. كلنا ..

— لا أظن الأهل سيسلمون بالدعوة بسهولة .. لى ستنام ..
وليك ستذهب لزيارة معارفها .. وللى سيقابل أصحابه .

— إذن نذهب نحن معها .

وقلت له لى استسلام :

— بطلها رينا علما يخفرائى .

ولم نتمثل وسدل ملابسنا وستريح برهة حتى نق جرس التليفون
وسمعت صوت نادية :

— سهير ؟ !

وهتكت بها برهة لى فرحة :

— أهلاً وسهلاً .. كيف حالك يا اسنادة نادية ؟ لقد أوحشتنا .

وسحكت « نادية » وأجابت تعترض لى اللقب الذى مضتها إياه :

— ما حكاية اسفاده هذه ؟ يبدو أنك نسيته !

واجبتها ضاحكة :

كيف .. إني لم أت إلا لأراك .

— إنك ضللتني سمادة تقولك هذا .. كيف حال ماما وباب ..

وحالتك حبيبة ؟ !

— يسلمون عليك ، وهم جميعا هنا .

— إتنا في انتظاركم في البهو .. حمدي يريد أن يسلم عليك .

وسمعت صوتك يرحب بي في غير ذلك .. كان بيننا معرفة وثيقة :

— أهلا سيير .. وحشتنا جدا .. كيف حال ماما وبابا ؟ !

— الجيد .. كيف حالك أنت ؟ متى رحلت من لندن ؟

— منذ علم .

— أبا زال الحمام يلتقط الحب من فوق رأسك ؟ !

— أبا زلت تذكرين ؟

وكني حسنا يتف تلقا وهو ينتظر أن انتهى الحديث حتى يمسك للقلبيهم .

لم يكن هناك من شك .. في أن « نادية » قد ماتت تمنى في نفسه

شيئا .

ولم يكن هناك من شك .. في أنه قد أصيب بمبادئ حب ، ولم

تحاول أنه أن تجاهل لهفته وخلقه .. نهزت رأسها بمتعة في

صمت .

وحطنا إلى البهو .

ورايك لأول مرة بعد لقائنا في لندن .

وأجسست بلافة نهوك .. وأطبلتان إليك .

وانبل كل منا على الآخر إقبال سخيقي .. طالت بينهما المرفة ،

ثم « بوبوا » الانقضاء .

ولحدا تبدل تذكيرات السامات الغائل التي قضيناها معا في

أندس تتحول منا في معاملها قل أن ادخل المستشفى .

وانتهك حسلي ونادية في الحديث عن الأكل والنقد وأشباه كثيرة

ماتت تأثير اهتمامها بها ، وتربط أكلها سويا .

وأضينا النساء في البهو .

وعلمنا استقلنا فكريات لندن ، رحت حفتني عن أشياء تحمك

وجفتني أمتت إليهما في اهتمام ، وحشتك من أشياء تصمتني

استجعت إليهما في غير مل ولا سلم .

واعتلنا من النساء في تلك الليلة .

ولكننا قضينا معا نحن الأربعة معظم وقتنا في القاهرة ودموتنا في

اليوم التالي لصعود المقطم حيث استقرت بطايرتك على قمة الجبل ،

بجوار البيت وحوش المساحة الذي حذر في الصخر ، ووقفت لطل

على القاهرة وهي تحت أملي بدورها وقيلها ورحت أنت تشير إلى

معالمها قللا :

— هذا مبنى المجمع ، وهناك الأهرام .

وكررت وقفت على سطح تاسيون وشقي ببساطة أملي وقتك

في سعادة :

— ما اقرب القاهرة إلى دمشق .

وليت « نادية » تقول بيذة من رأسها قللا :

— لجل .. كم تذكرني وقتي بجبل المقطم .. يومتي يقشون .

وقال حسان مازحا وهو يثنت حوله بشيرا إلى المقطم :

— اتعجبون المقطم جبلا ؟

ونظرت نادية إلى النيل العريض المبسط في الوادي أسفل الجبل

وقالت ضاحكة وهي تمارن بينه وبين بردى :

— أو تعجبون بردى نهرا ؟

وحشكنا جميعا وقال « حسان » :

— سنعتبر بقطبكم جبلا ، وتعجبون بردانا نهرا .. اتقنا ؟

وأجابت نادية ضاحكة :

— اتقنا .

ولفطنا في الحل بعد ذلك بحرينك ، ثم هبطت بنا إلى حايح

١- زمة الذي بدت لنا مجموعة شابه وماذنه على رهوة أسفل الحبل ..
وللنا من الباب القلبي ونشرت لنا إلى برج مهدم على البهيم فقلنا تنفس
"لهجة التي كتبت تفرح لنا بها معالم لندن :

— هنا بئر يوسف .. كانت المياه ترمع إلى القلعة من النيل عند
دم الطليح وتسير في قناة فوق السور الذي رأيناه قلما على الأكواس
التي أبدت طوال الطريق الذي جئنا منه .

ووقلت العربة في الفناء الممتد أمام العايح وصعدنا بضع درجات
ووضعا الحف في أقدامنا فوق الأحذية ورحنا نجول في ساحة الجنب
حول الكشك الرخاس للبهاء .. ثم دخلنا الجناح الفسيح المثلج
مثيرات والقفوش الملونة .

ودعنا سا إلى قصر العورة .. تريبا نقايا الأسرة المالكة بعد
عهد محمد علي ، وإلى المتحف العربي ، تفرح لنا بما لا نعرفه عن
"السلطة .

ومرت سا الأيالم وأنت تقوم لنا مهمة الدليل .. التي أصبحت
تجدها .

واستمتع « حسن » بصحبة « نادية » .. في جولاتنا .. وفي
مؤثر الأبناء ، وفي دهوات الغداء والعشاء المتبادلة .

« رمدات نادية تستمتع بصحبة « حسن » ، لقد كن « حسن »
يحتاج دائما لبعض الوقت لكي يكتشف الإتصال نواحيه الطيبة وعلاجه
الجميلة ويهول الغيرة .

ولست أنكر أنني استمتعت بوقتي في القاهرة خير استمتاع ..
استمتعت بكل شيء .. بما فيه أنت .. دليلا لللطيف ، مير المتكلف ،
لطفا ، ولا ودا .. بل يندعها بيسر لأنها أشباه تفرح بها لنفسه .

ولست أظن مشاربي لك قد زادت في ذلك الحين عن ذلك الحد ..
استطاع والثة ، وبودة ، لإنسبل لطيف .. ألوف ، ودود ، شعور

• طبعي جدا .

والتت ؟ !

لست أدري بالصبط كيف كانت مشاربك وتذاك .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه .. هو أنك لم تزل صديقا فلا أنفك
كنت تستطيع أن تقتر نفسك على صحبة لا تجد فيها ما لا يريحك .

فأنت قد استرحت إينها .. وإلى أنا بلاذات .

لماذا ! لست أدري .

أهي شغلة ! ! استطاع ! ! إعجاب !

يعلم الله .. أي شيء في " قد جعلك تفرح إلى " ، وتصر على
صحتي طوال تلك المدة .

ورحنا عنكم ، ويودي لو طالت الصحبة .

ومرت في الأيام في حلق ، وأنا أتحدث عنك كثيرا حديثا لا هجل
منه . إذ لم أكن أحس في خاطري شيء يدعمني إلى الحزن والحنن .

وأحدث تجربتك من ذهبي . ومن لستني .. الأحداث التي كانت
تعمف بنا في سوريا ، والصراع الذي اشتد حتى بلغت وطننا كلته
الركب في عاصمة حواء .

ووسط العاصفة .. لم يلج للرئاسة الذين امسكوا برلمان السفينة ..
سوى الرما الذي ينطلق إليه الركاب ويتشتتون به .. ويظهرون في
إصرار ..

مرقا الوجهه مع مصر .

وبسرعة البرق ووسط العاصفة الهوجاء التي تعصف بمركبنا
' دعنا إليك منتج لأرغيا لمضيك في مناق حر .. ولدينا وهدتنا في
عزم وإصرار وإيمان .

موازين خاصة

سيت بنينا الوحدة .. وعلمنا أمور بذاكرنى الآن إلى تلك الأيام
أحس كل واحدنا ككث أشبه بزواج حب ملتصق مختلف ، دفع إليه
الطلب ، دون أن يدع فرصة للذهن أن يشع له من عراقل الترتيبات
والإمدادات ما قد يؤخره أو يحول دونه ، وكل شئنا حبيل أحسا
حاجة كل منهما إلى الآخر .. لنطلقا يتصليسا العراقل ليعتدا
تربتهما ، ويمسنا أسرتهما أمام امر واقع .. وبهما التمه من نفسيهما
ويشاعرهما وآبألهما ومن الإبهل ماله ويقرض من أن يندرا صيرعها
الموحد ، ومستقبلها المشترك .

وانتهت نشوة الزفاف .. بكل ما فيها من انواء وأغاريذ وطبول
وبزامير .. وبدأ كل فرد في الأسرة يتخصص موضع تدمه .

أين نكلته .. في الشركة الجديدة ؟

والناس قد تدعهم الحماة المكنهة ولشاعر المشتركة إلى عين
موحد ، ولكن قبية هذا العمل لا تنكذ من نفس كل منهم إلا نتيجة انعكاس
هذا العمل على شخصه ، ومدى تأثيره هو بالوضع الناتج من هذا
العمل .

ونحس .. ناسي .. دفعنا .. كب قلت لك — أنواء الفلق ولحوب
والصبي بكثرة ما نعانى في حياتنا من اضطراب وهتزاز ، واللبنة على
جهد يمسح الأمن المريح والاستقرار المعنى .. إلى الانتماع إلى مرف
الوحدة .

واندفعنا إليها جميعا .

الذين وجدوا في المرفأ ملجأهم ومستقرهم .

والذين وجدوا فيه نكاة لوثبة أخرى يحققون بها أمتهم الخاصة .

وبذا كل واحد بنا يزن المرفأ الجديد ميزاته الطفس .. ماذا

ممنه من أرباح .. وبماذا حقق له من نرس ؟

وكل أول من دخل فيه ، غير الذين انشأ بعضهم أن ناس ونستقر
وسحق لأنفسنا حياة أفضل على حساب مطالبهم غنا واستقلالهم لنا .

كل أول من دخل في المرفأ بعد الطابعين غينا .. هم المهندسون
بوحدتنا .. أعنى الشيوعيين أصحاب شكيب .. بعد أن أطاحت الوحدة
بطريقة مائة .. بالأحزاب السياسية التي ككت فوس أسباب التفرجج
والاضطراب وعرقلتنا عن السير إلى حياة أفضل .

وطار رئيسهم ومعه رأسه يؤمته بين أصحاب النفوذ عليه .

ولم يجد لنفسه مأبنا بين شعب آبن .. فطار هاربا .. بعد أن
أحس أن الوحدة لن تكون بحال من الأحوال تخلصه من سطوة السلطان .
أو حراسة تمهد له السيل إلى كرسي الحكم يسلك فيه برلمان البلد
ليسليه إلى قادة الشيوعية ، ويستبدل مقودا احتيا مفودا أحتنى .

ككت الشيوعية هي أول من جلب أمله في الوحدة .

طار رأس الحزب ، وحرب الزعيم بجلده .

وبنى سبما « شكيب » .. لينفذ المريد من حقدده وسخطه ويروج

المريد من الشكفلة والأراجيف .. يلتقى في ذلك مع أصداده وخسوه

.. من أعدائنا .. الذين كان يلق في صفنا ليحاربهم قبل الوحدة .

وسمعت أول بولدر ضيقه ذات مساء وقد فسنا حفل في مطعم
الشرق ألقته حائتي « حنيفة » لأصاحب إحدى الجمعيات القيرية التي
تشارك فيها .

ركب على .. أبن .. أن يسمي في الحفل بشراء نصف ما باعت من تذاكر

.. ورحت أترق ما أفذه « أبن » منها على الأترياء والأصدقاء .

جلسنا حول مائدة العشاء نرقب المشاهد والاستعراضات ونستمع

إلى الموسيقى .. وكان الصيف قد هبت سائجه والأشجار قد كساها
لُورق الأحمر .. وتفتح في براعمها الرهور ، وكنت أشعر بالسعادة
.. سعادة الرضا والقناعة بالأشياء الجميلة التي منحها الله لي .

وكنا جيبا هناك .. أبي وأمي وخالتي وروجه وحسار وسلي
ومرة ورياني وشكيب .. و .. و .. وكل من استطاعت التذكار
المجيشة .. التي ذهبت نقرتها بعد أن دفع « أبي » ثمنها — إعرافهم
بالحضور .

وكان الحديث ينور بناثرا .. كلمة من هنا .. وكلمة من هناك ..
والأعين معلقة بقرنص والأذان تنصي إلى الموسيقى والشمام ترتشف
والأسنان تمشغ .

وقلب شكيب البصر حوله ثم هز رأسه قائلا في سخرية :
— لا جديد على ظهر الأرض .

وقبيري حسان يرد عليه في شيء من التعدي :
— ولماذا لا تأتي أنت بجديد ؟

ورد عليه شكيب مستورا في سخريته :
— البركة في الوحدة .

وراد حسان في تحديه قائلا :
— يا لها الوحدة !

— كنا نظنها سعمل شيئا .. ولكن كأنها يا بدر لا رحن ولا حينا .

— لو أبقت الحزب الشيوعي .. لكنت قد فعلت شيئا .. اليس
كذلك ؟ !

— طبعاً .. كانت على الأكل قد احتفظت لنا بالديمقراطية .

— الديمقراطية حتى ظلموا الحكم .. وظلموا السلطان .. ثم
ظلموا أنفسهم أناس أنواع الديكتاتورية ؟ !

— بل حتى تحلق المساواة بين الناس .. ولا تترك واحدا يملك
الملايين وآخر لا يجد لقمة العيش .

— الوحدة مستعمل جدا .

ويرد شكيب في عناد وإصرار :

— الوحدة لي فعل شيئا .. حتى نقول الإصلاح الزراعي الذي
طبق في مصر .. ما زلنا نتردد في تطبيقه هنا .

ولم تكن المناقشة حتى ذلك الحين قد نعدتها .. وكنت أتقبل
الأخريين قد انهمكوا في المسخ أو المراتبة أو الاستعاضة دون أن يسيروا
المناقشة الدائرة أي التبتت .. ولكني موجئت بأبي يرد في تودة عنما
وصل « شكيب » إلى الحديث من الإصلاح الزراعي :

— لا أظن منك ضرورة لتطبيقه هنا .. ليس صفنا أزمة أراضي ..
الأراضي هنا لا يحد من برعمها ، واحتياج إلى تفرة كبيرة لاستثمارها ..
عل معتقد أن قطعة أرض الجريرة التي أملكها والتي نحتاج إلى كل تلك
التكثورات والتكاليف الباهظة يستطيع الفلاحون لو جرئت عليهم أن
يقوموا باستثمارها ؟

وأجاب شكيب في عهد :

— لم ؟ لا .. يمكن استثمارها بطريقة المزارع الجماعية .

— نعمي التجميعات التعاونية ؟ !

— بل أسمى التكمين .. يملك الأرض للحكومة ويأخذ كل فرد يعمل
فيها حسب حالته .. يقدم له المأكل والملبس ويعلم أولاده وتؤس
شجوقه ، نظير العمل الذي يقوم به .
ورد ريلس ضاحكا :

— كأي عسكري في الجيش .. أي تجد الناس مدى الحياه ،
وتسبح البلدة كلها بمسكن مستعدين ؟ !

وهز أبي رأسه وسأل في حرارة :

— أهذه هي الحرية التي تريدها للناس ؟ !

— أريد لهم اللعبة أولا .

— اللعبة منمنا مكتولة .. ليس منمنا ين يشكو شظف العيش ..
لسنا في حاجة إلى مزارعكم الجماعية ولا إلى إصلاحكم الزراعي ..

الناس هنا راضون وفرحة الفقر والحاجة أقل بكثير منها في مصر .

ويدأ زوج خالتي يدخل في المناقشة قتلا :

— لا يمكن أن نطبق هنا كل ما يطبق في مصر .. الأحوال هنا تختلف عنها هناك ؛ وكل بلد له ما يلائمه .

وقاطعه حسن :

— لقد اصحنا بلدا واحدا .. ويجب أن نطبق القوانين في كل مكان من البلد .. نحن شعب واحد .. يجب ألا نترق القوانين بيننا .

ورد أبوه ناعرا :

— كلام فارغ .. كل ما له نظروه .. نحن بلد تجار .. وغير معقول أن نطبق علينا القيود الموجودة في مصر .

وهز شكيب رأسه في شيء من التسلية .. وهو يرى الضمير في الآراء وقال في سخرية :

— وحدة !!

ورد عليه حسن في تحد وإصرار :

— أجل وحدة .

— إن تعطل الوحدة شيئا .

— بل مستعمل كل شيء .. إلا أن نترك لكم الفرصة للتسلل والسيطرة .. ستحقق لنا الكفيلة .. والعدالة .. والمساواة .. مصر حاجة لمبدأكم المستورده .. سرسوم نحن لانفت السبل إلى حياء افضل .

— إنها تخشى أن تطبق الإصلاح الزراعي .

ورد حسن في عناد صهياني :

— بل سلطيقه .

ويدأ أبي يضيف بالمناقشة فقال لحسان :

— انتبهنا .. دعونا من هذا الجدل .

ولم تثنى ضجة أشهر على هذا الحديث .. حتى صدر قانون

الإصلاح الزراعي .. ولست اتقنى كنت ملقية إليه بالا .. لولا أنني احسست به داخل بيتنا .

وجدت آثاره مرسومة بوضوح على وجه أعز الناس لدى ، على وجه أبي .

وكما قلت لك نحن لا نزر الأشياء إلا بوارثتنا الخاصة ولا نلبه بالأوضاع إلا بالقرن الذي تنس به حياتنا الخاصة . ولا نكاد نفهم أي قبل إلا بما يفهمنا منه ، وما يسيينا من آثاره من خير أو شر .

ولقد نسيت أن أذكر لك مدى تقوي الوحدة .

ربما لاني أشعر أن عرجاء صغيرة .. لا نستطيع أن نقوم حدثا كبيرا مثل الوحدة .. وإن يكون لتقويها أثر ينكر .

بم أنك أبطل نجاحها معبا .. يمكن أن يكون لتغييره أثر إيجابي لها أو عليها .. معها أو ضدّها .

كنت واحدة من الملايين التي تكوّن هذا الشعب المتحس المخلص الذي اتنفع إلى احسانكم ليكون الوحدة معكم .

والملايين قد لا تقوم .. ولا ترى .. ولكنها تشعر وتتمتع ، وتدفع حارثة أملها كل ما يتهدى مشاعرها وانتمالها .. ثم تسير البوينا بعد ذلك .. كل يعني بنفسه .. حتى يتحدى بشاعرها .. ويشير انتمالها عليل جديد .. فتتكل لتدفع وتجرب ما أملها .

لم أشا أن أذكر رأيي في الوحدة .. لاني لم أشعر بقيمة هذا الرأي . بعد أن استقر الحال ، وراح كل منا يطمس طريقه ويتحسس موضعه .

ولم أشا أيضا أن أذكره .. لأن الوحدة لم تكن ذات أثر خاص على شخصي ، ولا كان لها انعكاس محين في حياتي .

ليس أكثر من لرحمة عامة بشيء جديد .. وحياسني مع الملايين لبدء انطلاقه كبرى نحو مستقبل مشرق .

ونشوة صهيانية .. بأن بلدي صار أكبر ، وأنا بنتا وشعبي

الذى يحبه بكل ما فيه من عذابات ميرة .. مثلكم وكتابكم شمسنا
واحدًا ، وإن تضرركم صار ناصرنا .

ولست أظننى تركت فرصة واحدة من دون أن أخرج لثقافته ،
عندما كان يروينا .. وكفى أبى يعشى على من أرحامه فكان أبى أبى
يتركنى أغادر العربة . وكان « الأسطى على » يخرج من منكر ليفسح
العربة من موقع من طريقته يكتفى من رؤيته وسط الملايين التى تهتف
له .. دون أن أفكر العربة .

لم يكن أبى أبى رأى خاص من الوحدة .. لا أنا ولا أحد من حولى
.. اللهم إلا « مرة » أخت « سلمى » التى انتقلت من المدرسة إلى
وزارة الإرشاد .. لفراس أحد أصدقاءها ، وتشارك أبى مع حذور
السيطرة الطبيعية من الجهاز الحكومى .

كانت « مرة » .. تحس أن الوحدة .. وحدها هى .. لا وحدتنا
جميعا - أبى من حقها أن تتخذ منا موقف ولى الأمر صاحب السلطان .
وبدا إحسانها عدا يثير بيننا من بعض الأحيان حسدا بها .. وبأنه
الذى يبرتها .. ويضعها حقا على السلطان حريته الآخرين .

ومينا عدا استغل « مرة » وأصلحها بفرص الحكم .. وحرمان
الآخرين منها .. وهو أمر لم يكن هناك ما يجعل للوحدة قيمة خاصة
من مؤسسا .. أكثر من القيمة العامة لها .

حتى صدر قانون قانون الإصلاح الزراعى .

ولم يرح به حسنى كائنصار أتصفه على « شكيب » الذى كان يؤكد
أنه لم يصد .

وكانت الفرح به .. حتى عاد أبى ظهيرة ذلك اليوم .

وأفكر أنه كان أحد ألبام مستعمر ، وكانت أوراني قد شئت من
الحامية .. وقد تملكى يومذاك إحساس بالفرحة والزهو بأبى أصبحت
إنسانة مسئولة أبك حق المشاركة فى الحياة العامة والماتشات

السياسية وإن أنزل كل ما فعله الكبار بطريقة مشروعة لا بطريقة
الاستثناء والمجفلة .

وسمعت وقع خطوات أبى على السلم .

لم تكن سريعة بثوبة .. تطرق الدرجات بقوة .. كما عودنا
دائما .. على الرغم من أنه لم يعد صبيبا ولا شابا .

ولسرعت إلى الباب أزد له نأ تقولى من كلية الآداب ، وحدثت به ،
وهو يعبر الباب محاولا المزاح :

— اعتذر إليك عما فعلت بك اليوم .

وهز رأسه متسكلا وقد لاح عليه الإعياء :

— ماذا فعلت ؟

— أفسدت عليك الشرب .

ولم يفهم ما أفهم ما أعنيه .. هز رأسه متسكلا دون أن تدور عليه

تعلية للمزاح :

— كف ؟

واسرعت أزد إليه النبا حتى لا أنزل عليه بعد أن تبثت عدم

استعداده للمزاح :

— قبلت من الجامعة .

ورسم اتسابة على شفاهه .. وحدثت بصوت لم أستطع أن أميز
فيه شيئا من حياسته الطبيعية التى كانت أتوقعها لمثل هذا النبا :

— هذا ؟ أوبروك .. عتبال الدبلوم .

ثم تقدم ليستطرد جسده على كرسى كبير .. ماذا سألته أياه

ملقيا برأسه إلى الوراء .

ولم أشك من أن شيئا يتعبه أو يشغله فقلت به :

— ما بك يا أبى ؟

وهز رأسه ، وهو مازال ملقيا به على ظهر المقعد قائلا :

— لا شيء .

— بل بك شيء .. لست أنا الذى تستطيع خداعها .

واكتفت أبنى على سؤالي وقد بدا عليها الجرع وأمسكت بيده نجس
حرارته تتسائل :

— يا بك ؟

وسحب أبنى يده من يدها وهو يقول في جهرم :

— قلت لكم لا شيء .

واكتفت أبنى من جس يده أنه لا يوجد به ما يمسك على الخلق ..
وانصرفت تتم إعداد المائدة وهي تتسائل :

— أتناكل الآن .. أم نغير ملائيك ؟

وأجاب « أبنى » في لهجة مقتنبة :

— كلوا انتم .

— وانت ؟ !

— لا أحس برغبة في الأكل .

وعادت « أبنى » أدراجها إليه وتناقلت في تلق

— قل لي ما بك ؟ !

ورد عليها أبنى في ضيق :

— قلت لا شيء .

وحررت أبنى بقعدا وجلست بجواره متسائلة :

— ماذا تعنى بلا شيء ؟ تجلس هكذا في ضيق .. ونأى الطعام ..

ثم تقول لا شيء ؟ !

وكانت أعرف أن بأبنى شيئا .. شيئا مقلقا .. أكثر مما تحتمل
قدرته على إخماء المنابع في بطنه وجبسا بين شلوعه . ولم يكن
هناك مفر من أن يفضي إلينا ما به .. إذ لم يكن من المقبول أن تجلس
إلى المائدة بدون .. فقلت بهفوة :

— إذا لم تأكل .. فلن أكل .

وأطلق أبنى تنهيدة .. ثم لم ساقبه وزم شفتيه وفقد إلينا ما كنا
في كلمات مقتنبة قتلا :

— سيحدثون الأرض .

ونصرت أبنى فأها في دهشة وصاغت :

— من هم ؟

— الحكوة .

— لماذا ؟

— لتعلمها للفلاحين .

ولم تكن أبنى تصدق الكثير من السهولة .. ولم يفر
بخلها قط أن هناك شيئا اسمه الإصلاح الزراعي .. نعمت تساقه
في دهشة :

— تعلى أراضينا لهم .. قرا ؟ !

— مالفاتون .

— أي قانون ؟

— الإصلاح الزراعي .

— بلا نبي ؟

— بسطات .

— وماذا يفعل بالسندات ؟

— نبيع شئنا بعد عشرين عاما .

وحررت أبنى رأسها غير مصققة وعادت تتسائل .

— أنسى انهم سيأخذون أرضنا ليعطوها للفلاحين ويعطوننا اثنين

بعد عشرين عاما ؟

— أجل .

— ومن أين نأكل نحن خلال العشرين عاما ؟

— سيبيعون لنا ماثلين لعدان من الأرض المروية أو ٧٥ من أرض

الأطلس .

وتناظرت أنا بهيمنة :

— ألا يتبين هذا يا أبنى ؟ !

وتعامل « أبنى » سؤالي واسترسل يقول :

— وسيأخذون منا ما يقرب من الألفى عدان .
ونظرت لى إليه كالماخوذة ، وقالت كأنها بعدت نفسها .

— لماذا لا تشكو ؟

ورد لى فى مرارة :

— تشكو من ؟

ولم تعرف لى كيف تجيب .. وبنت لها المسألة كالتفاه الذى لا راد له .. ونظرت إلى لى فى إشتاق واحسست مدى ما يسفوره من لى فبهتت فى إخلاص :

— فذلك يا لى .

وقالت له « لى » :

— فذلك يا عد الهادى .. الحمد لله ان جاءت لى الأرض .. وليست لى أحدا .

وأقبلت عليه تربت كتفه فى حنان وهى ترفف ذليلة :

— تم أغير ملابسك ، وأجلس معنا لتأكل .. الحمد لله على كل ما منحنا .. الحمد لله على الصحة .. ما كنت يوما مكل شيء بهن .

وهكذا انعكست عليها أول نتائج الوحدة .. صبرة قاسية لاسى سلبته أعز ما يملك — بعدى وأنى — سلمته لرسه التى كل يبعج بينها كل ما له ويبتذل من أطلها العرق والجهد والثنى ركن فيها كل آماله فى الحياة .. ومصعب فادح لاسى جعلها تحب الله على مجرد الصحة والمانية .

لها بالانسية لى .. فليست لظنى كنت حيرا منها .. على الأثر لبعض الوقت .

ولا أظنى أستطيع أن أنكر إحساس الفقدان والمرارة الذى أصابى من الوحدة .. وأقول للوحدة لأن كل ما كان يصنفنا بعدها كنا نرجعه إليها بلا وعى ولا تفكير .. حتى انقطاع المطر الذى لا يمكن أن يكون لغبر الله مرجعه .

ولم تكن المرارة ناتجة عن أى إحساس بالحرمان من مال أو أرض

أو إرث منتظر .. فقد كلى هذا كله أمد ما يكون من تفكيرى .. فلا أظنى احسست يوما بقيمة ما يملك « لى » .. وما يمكن أن لفته أيا منه ، ولا أظنتنى تط كنت اشعر بقيمة المال لى .. فقد كلى يكتينى منه التثبل جدا .. وكنت أكره مظاهره التى قد تجعلنى أبدو مميزة عن غيرى .. ولا أظنى أباليح إذا ما قلت لك لنى كنت أفضل منها .

كنت أفضل أن أمدو منية بترفة ، وكنت أفضل دائما أن أكون كمجبرى من البهائم لى كل شيء .

ومن أجل ذلك أستطيع أن أؤكد ان المسألة لى هد ذاتها لم تكن لخصت لى أى إحساس بالضييق .. ولا كنت اعتبرها شيئا يفضنى .. لولا ما احسست به من انعكاسها على نفس « لى » .

كنت أحب لى إلى درجة أتى أكره كل ما يصابته ومن يصابته .. ووحضى من غمر وعى أكل إلى حاقه واتحد موقفا عدائيا من الوحدة ونتائجها .

ولم يكن لى يحس بما أصابنا من الضيق لصيقه .. حتى بدأ التهم بخره على ما أصابه من ضعف وبدأ يتماكب ويتحلد ونظر إلى وقد بدا على "الحرن وتضاكك تقالا" .

— بسيطة .. الحمد لله على الصحة كما قالت أمك .

ثم صبت برقة واسترسل يقول من هزم :

— ساربهوم ماذا أعمل بالسبحمجة عدان التى سيتركونها لى وسارى ماذا سيفعلون بالأرض التى أخذوها .

واحسست بالضيق يتقد من نفسى .. وأنا أرى لى يستعيد قواه مثل هذه السرعة .. وأرى الأبل يدب لى نفسه .. وسألته لى حياصة :

— أسيتركون لنا أرض الفوطه ؟ ؟

— طبعا .. سيتركون لنا الفهار فيها نريد أن نعتظ به من

أرض .

وراد إحساسى بالفرة وحضت :

— هذا حس .. مستحفظ بأرض الفوطه والبيت وكل شيء بها .
 وبدا اني بعدد ما يموى اختياره من الأرض .. وكنت اعلم ان ما به
 من مرارة والم .. لا يمكن ان يبعد مثل هذه السهولة ، وكنت ولتنة
 انه يبدل كل ما يملك بيمسك برام نفسه ويسيطر على اعماله ..
 وحاولت جهدي ان اعلونه وان ابدله الحديث بحياة .
 وقبما إلى المائدة وانركت من الطريقة التي كان ياكل بها انه ياكل
 ليطنن ابي ويربطني .
 وانهبما من الطعام ولوى إلى حجرته .
 وتبعته إلى هناك .. فقد كنت لحس بشيء من نفسي يتحتم ان
 اتقوله .
 كنت احس ان مدت الأرض .. لم يضاهيني في قليل ولا كثير ..
 وتبيت لو استطعت ان انقل إليه هذا الإحساس .. وان اقنعه انه لاند له
 ان يعبر أسلوبه في التفكير .
 ولم أكن أعرف هل استطيع ان اتعلم .
 هل تستطيع التي لم تجاور الثامنة عشرة .. ان تعبر طريقته في
 التفكير بعد كل هذه السنين الطوال التي عاشها ؟
 بكل كنت لتسائل .. لو كنت مكانه .. صاحبة الأرض الطويلة
 العريضة التي كانت فيها كل هذه السنين .. أكان يسهل عليّ ان
 أسلم بضياعها .. يمثل هذه السهولة التي سلمت انا بها !!
 ولم أكنر طويلا في الرد على هذه الأسئلة .
 وفصلت إلى حجرته .. ووجدته جالسا على مقعد مريح يدهن من
 شروود .
 وجلست على مقعد صغير قبالة ونظر إلى محاول الانسحاب .
 وسألته في رفق :
 — لما زلت متضايقا ؟
 وهز رأسه بالنفي .
 وقلت متضايكة

— لا تكذب عليّ .. من غير المقول ان يكون قد ذهب الضيق
 عنك بطل هذه السرعة ؟
 ونفسي رمدت السجارة من مطقوفة بجواره وقلت مؤكدا :
 — إذا لم يكن قد ذهب .. فسيذهب .. على الأمل من احلك ..
 مايا اكزه ان أصليتك بضيقي .. إنها أزمة لا تثبت ان تنجلي .
 وأحدثت انظر إلى وجهه الذي لم يستطع بعد كل ما بطل من جهدي
 ان ينفض عنه سيماء الحرارة .
 وعدت احاوره :
 — ما الذي سبب لك الضيق .. انك لمعدت أرضا .. أم انك
 أضعت عليّ إرثا ؟
 ورفض حاجبيه في دهشة من سؤالي واخذ يحرق في برهة بحلولا
 ان يستشف ما أعني من وراء سؤالي .
 وقلت استحثته على الإجابة :
 — لماذا لا تحبب ؟
 ومرعه اطلق زفرة وأجاب :
 — الانتنان .
 — اتنا لا يعنينا قط .. ان لرت أرضا ، ولا مالا .. إلى استطيع
 ان احيا كما يحيا غيري من لم يورثهم أبائهم أرضا أو مالا .. كل
 ما يعنينا أنت ورفاك وسعافتك .
 وحاول ان يقلوم ما أقره في نفسه بكلماتي من ضعف وحذل 4
 ورد في غدا صبياني :
 — وتقدي الأرض ؟
 — ألم ينق لك سمعائة وخمسون لدا ؟ ! الا يتكفيك هذا ..
 على الأمل لتخلص من كل هذا الإرهاق والجهد .. ولترارك وقتا أطول
 .. ما آخر كل هذا العمل .. وما آخر كل هذا المآل ؟ !
 ونظر إلى « أبي » نظرة طويلة .. وعدت على شفتيه ابتسامة

حاول جده أن يتأولها .. ثم تحولت ابتسامة إلى ضحكة والضحكة إلى تهمة .

وسألته في دهشة :

— ماذا يفهمك ؟ !

ولجاب وهو يهز رأسه :

— عشت حتى أراك تسوقين إلى التصح ، وتغنمينتي به .

— أليس علي حق ؟ !

— كل الحق .

— أن تدع للضيق سبيلا إلى نفسك .

— أبدا .

— ألا يكفي أن تكون معا وفي صحة جيدة .. ألا سعيد الله على

ذلك ؟ !

وفي لحظة خاطفة نظر إلى سالي وأفرغ ريقه .. لقد أدهشه

ولا شك أنه اعتبر نفسه في صحة جيدة .

ولكنني كنت اعتقد ذلك .. ولم أكن أحمد الله بداراة بل عن يقين

وإيمان وثقة .

وقال « أبي هو هو يفسني إليه :

— يا حبيبتي .. الصمد له .. كل شيء يهون ما دمت أنت

راضية .

وهكذا استطعنا أن ننقل الصحة الأولى لنتائج الوحدة .

لقد كنت لثا نفسي ببساطتها .. أولا .

ثم استطعت أن ألق بها « أس » .. وكان علي أبي « أن أكتنع بمجرد

أن تراه راضيا .

ولم تك الأيام شر .. حتى راد اقتنامي بها يحدث .. لا كصاحب

لا من من أحتاله ، بل كمدالة يتمتع وجودها .

وكان اقتنامي نتيجة لتعكاس الحدث نفسه علي شخص آخر ..

لم يكن علي بعيد .

دات يوم اتبلت « حنية » تحمل إلى رسالة من أخيها وتطلب مني تراضا .

وقرات الرسالة .

كلن أخوها « عبد الدائم » ينهنا بأسلوبه الساذج أنه قد أضحى

من اصحاب الأيلاك ، وأنه تسلط خمسة أمانة منذ بضعة أيام ..

وأخذ يذكر لها كيف سيرعها .. ومادا ينوي أن يرسل إليها .

كانت الرسالة تنفي بيطساس صلب من الرضا والسعادة .

واحبست أنا ما قرأته في الصفح منذ أيام أن سيمعانة وخمسين

الف رجل كعبد الدائم يمكن أن تنظر، نفوسهم بالرضا والسعادة عندما

يتسلطون ثلاثة ملايين ونصف مليون لغان .

وبدا لي الحادث الذي انعكس علينا بالمرارة والحذلان قد انعكس

على بنات الآلاف بالرضا والسعادة .. وتحول اثره في نفسي كصاحب

فروض النفس على أحتاله .. إلى ضرورة .. كان لابد من حدوثها .

وبرحت أؤكد رأيي في مناقشة دارت في بيت « سلى » مدامها

« شكيب » بسؤاله سافرا :

— لطشوا من أريك أركه ؟ !

وقلت له في إخلاص :

— بل حقوا بها عدالة كل لابد أن تحقق .

وكانت ذهنتي شديدة عندما وجته يقول :

— هذا كلام يشعكون به على العقول .

ونظرت إليه كالمأخوذة وأنا اتحيل أنه يجب أن يكون أول المتعجبين

لمشور تائون الإصلاح الزراعي ، وقلت له :

— ولكمهم وزعوا الأرض فعلا على الفلاحين .. عبد الدائم أخو

حنيفة كتب إليها ليؤكد لها أنه تسلم أرضه .

— طريقة يذرون بها الرماء في العيون .. وممكن ينعونه للشعب

لأجلهم عن الاشتراكية الأميلة والعدالة الحقيقية والمساواة المطلقة .

وذهلت بما قال .. واحسست انه يمرر على الحقد وعلى التشكيك
في كل شيء .

وهبت بل اجيبه ، ولكن « رياس » نظر إلى مهدنا وهو يقول .

— لا تحذلقه .. إنه بطر .. محاذع .. لا يرضيه إلا أن ينضم
الحزب الشيوعي الحكم .. أؤكد لك أننا لو طلقنا الشيوعية دون أن
ينحوا هم لرمسة الحكم .. لا نهمونا بأننا لا نعرف شيئا من الشيوعية .
وأن شيوعيتنا باطلة وشيوعيتهم أصيلة .. لا تحاذلقه فأنا امره جيدا
.. إنه قد يؤيد الإطعام ورأس المال إذا وجد فيها نكأة للوسول .

ولم أحاول أن أجابله .

ولم أستطع أن أمتنع نفسي من الصيغ بقداحه وتشكيكه وحلده .

ولكني وجدت في إحساننا — ومن أول المصائب من تطبيق أعدائه
— بالرغم .. كثيرا من العزاء ، وأن العمل الطيب .. لا يمكن أن يهدر ..
وأن الوحدة .. انطلاقا إلى مستقبل أفضل لم تحلقنا ولم تحيب إلينا .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

موعدنا غدا

ذات عامي الأول في الجامعة .. وبرغم فرحتي التي هدنتك منها
سجرت فتولي ، وإحساسي أنني أصبحت شيئا ما . أكثر من مجرد
سبحة تنلف إلى المعرفة ، ومنس انفسها في مناقشات الكثر .

مرم هذا الإحساس بالكبرياء .. فقد كالي على أن أجتاز مرحلة
من الخوف والوجل والحب .. عندما بذلت أمارس حياتي الجديدة عملا .

كأن علي أن أروم مجتمعي الجديد في الكلية .. من ريلات
ورملاء - وأسادة وعراشيين ، على حافتي التي استكانت إليها خرسني
المحدودة الهائلة الطبية .. والتي بت — ساقى حبيسة المشد —
جزءا من علائجه المبررة كشجرة الحور الصحة في سثها والرأس الذي
مأله البيضاء على كتفي ناظرتها .

كل علي أن أروم نفسي من جديد على نظرات الإشفاق ،
والهيسات واللغات ، كلما طرقت ساقى أرض الفصل ، أو جبطت
أجول في الحديقة .

وزاد من واهي وهشوني .. اهتلاف نوع النظرات إلى .. كانت
عيون الطلبة ترتعني وبها شيء جديد علي .. ليس مجرد إشفاق ..
أو رشاء ، أو مطلق .. ولكنه شيء أكثر من ذلك .. كل بها اختبل
لا توثني التي طالما حاولت تجاهلها ، وإنكارها .. تجنبنا لحوادث ميدان
أحس فيه بمعجز من غولس قماره .

ولم يعد هناك بد من المرور بمرحلة الانتفال تلك .. واجتياز ما بها من شيق كان يبعثني أكثر من مرة على التكرس على عقب .. والالتواء في البيت .

وأخيرا .. استطعت اجتياز مرحلة الوجع والخوف .. ساعدني على اجتيازها .. وجود « سلمى » إلى جاني دائما .. في قاعة المحاضرات وفي الفناء وفي الطريق .. كنت أحس بها ألزم من المشد الذي يشد سالي .. كنت تشد نفسي .. وتبطنني للقدرة على الصمود في مجنسى الجنيد دون أن أشعر أنني وحدى أواجه نظرات الفحص والمطاف والإشفاق والراء .

وساعدني على مقاومته شعور الغربة في الوسط الجامعي وجود « حسان » كدرسي في كليتنا .

لم يكن بالطبع يلزمي « كسلمى » .. ولكن مجرد الإحساس بأنه هناك .. كإنسان له قيمة .. وله بعض السلطان .. ينجني إحسان بالثقة صاعدا من تدريسي على اجتياز مرحلة الانتفال .. وأخيرا .. وجود « نادية » أخذك .. كدرسة في الجامعة .. كانت مفاجأة عجيبة .. لم يكن هناك ما يشير بها أو يهدها لها .

ذات صباح عقب المحاضرة الأولى اتبل على « حسان » باسم الغفر ، برج القسيك .. وجلستني من يدي قفلا :

— تعالى .

ولم يكن من صائته أن يبرج معي داخل الكلية .. كان يحاول دائما أن يتخذ مني موقف المدرس ، وكنت أعرف أنه يحدث حيلة ، فلم أحاول قط أن أرفع الكلفة بيننا .. وكنت ألتزم كل مظاهر الاحترام التي ألتزمها غيره من المدرسين والاستاذة .

وادمشتني طريفته في الإقبال على « وفي محادثتي ، وفي الكلية التي جرتني بها من يدي للسير بجوارها .

ونلت اتصالا في دهشة :

— يا الحكاية !

— تعالى .

— إلى أين ؟

— إلى غرقتي .

وأنا أعرب من « حسان » ثروات العبط . ولكني لم أوقع منه أبدا أن يسمح لها بالانفلات لتضيق عليه ما يمنحه إياه مركزه الجامعي من مظاهر الاحترام والتبجيل .

وقلت له وأنا أتلوم جره إياي و « سلمى » تحاول اللحاق به — قل لي أولا .. ماذا حدث ؟

وكنا قد قاربنا حجرات المدرسين .. فاجاب وهو مستر في سيره :

— لحظة واحدة .. سترين بنفسك .

ودخلت العمرة وراءه .. فإذا بي أمام « نادية » تلف أبسي وقد علت ثغرها ابتسامة سعيدة موحية .

وفهمني « حسان » إليها وتل ضاحكا :

— ها هي سبيرة .. أسترحت ؟

وهتلت في نبرة سعيدة .

— نادية !!

وقاطعني « حسان » قائلا :

— دكتورة نادية .

وبعدت « نادية » ذراعيها تصنني إلى صدرها في لجة وهي تقول :

— أنت أول من حرصت على أن أراه هنا .

وأنهالت الأسئلة تتدافع من شفتي محاولا أن أعرف سر هذه المفاجأة :

— متى حضرت ؟ وإلى متى تبقي ؟ .. و ..

واجاب « حسان » مشيرا وهو يقلق بيننا وقد غمرته السعادة :

— حضرت بالأسس .. وسبقني معفا دائما .. لقد انتقلت للتدريس في الجامعة .. يا رايك ؟

والحسنت بفرحة شديدة ، وكان الكلية قد أصبحت كليتها .. وثقت
بمسئلة :

— استفسرين لنا ؟

وأجابت نادية :

— لم أعرف بعد .

وعقدت سلسي وهي تنظر إلى « نادية » في إعجاب :

— ليكن تدرسين لنا .

وأقبلت نادية تبهيبها في حرارة وهي تقول :

— على أية حال سأكون معكم دائما .

وأهبطنا « بنادية » في دمشق .. استقبلناها كلنا بترحيب حار ،
ولهمة مخلص . .. اللهم إلا « خالتي حليمة » .. فقد كانت أحسن دائما
لأنها تتحفظ في مشاعرها لنادية .. وكنت أمهم جيدا سبب هذا التحفظ
.. فقد كانت تكره الدفء « حسان » نهوها .. وتخصي بلثها قد
تصبح — أو هي أصبحت فعلا — ذات خطر يهدد مشروعها الحظير الذي
حان الوقت لكي تنقله من مرحلة الآمال إلى مرحلة التنفيذ .

وفي وجهة نظرنا لتي .. كانت على حق في إحساسها بالحظر
الذي تشكله « نادية » على مشروعها الذي كانت تحلم به .. فقد بدا
« حسان » يتصرف .. من حيث لا يدرى .. وبوحى في مشاعره المظلمة
.. وكان نادية أهم ما في حياته .. وبدا — من حيث لا يقصد أيضا —
يمسح نفسه حقا عليها ويمنحها حقا عليه .

ولم يكن هناك شك في أن انتدائها لدمشق .. الذي كلى مناجاة
للجميع بما فهم أنا .. لم يكن قط مناجاة لحسان .. بل لقد نصبت
من بعض المبالغات التي دارت بينهما — بعد ذلك — بأنه كان شيئا
متفقا عليه وأن الرسائل بينهما لم تنقطع قط ، وإن كلا منهما قد سمى
إليه .

وكان وانحسا .. أن كلا منهما يحمل لصاحبه من المشاعر ما يحزم
بأنه قد أغشى شيئا هائبا في حياة الآخر .. برغم أنه لم يبد بينهما قط

ما قد يكون موضع لوم أو مؤاخذة .. كان مظهر الارتباط بينهما علاقت
بسيطة صريحة واضحة ، يصبها إطار الزينة والدراسة والترف ،
والنزاهات المشتركة مع الغير .

واستقرت نادية مع والدك في بيت سعى المزرعة في آخر شارع
الشهسندر .. ولم يكن البيت بعيد كثيرا عن بيتنا ، أو بيت « حسان » في
برماته .. وأذكر أول زيارة لها وقد ذهبت أنا وحسان وليس قبل الغروب
وكان الشتاء قد قرب الانتهاء ، ومشاعر الربيع قد أطلقت من البراعم
الخضر التي سبقت في الانفصال على طول الطريق ، والباس قد أطلقت
من الموائد تنفش عنها انكماش الشتاء ، وتستهدي النسمة الدافئة .

وصعدنا الدرجات القلائل التي تنحني إلى الطابق الصغير الذي
استقرت به « نادية » وأما ، وضعت « حسان » الحرس وسرعان
ما أطلقت « نادية » من الباب فتفتحه برحبة .

ولقيتنا أمك بالباشاشة والترحيب وأحبتها كما أحببت نادية ، لنفس
الأسباب ، لأنها طيبة ، ولأن بقسماتها شيئا منك ، جعلني أحسن لها
باللغة والطبائفة .

وبدا حسان بالاعتذار عن عدم مجيء والده قذلا :

— كانت أمي تود الحضور .. ولكنها شغلت بالجناع فمجلج
لجبهة جديدة .. تكونت إنشاء مسكن للأهالي على الحدود بيننا وبين
إسرائيل .

ولم يطلق أحد منا على قوله .. فقد كنا نحرب أن « خالتي حليمة »
لم تده أية حماسة لزيارة بيت « نادية » ولقاء أمها ، فقد بدا لها أن تلك
الزيارة قد تعثر بسلبة نوع من إقرار الارتباط الذي يفت مظاهره بين أبنائها
وبين « نادية » .

وأجابت أم نادية (ودمني أسبها كذلك) ، فقد كانت بالنسبة إلينا
أولئك ارتباطا بنافية منها لك .. وكان اسمها أقرب إلى السنننا كأم نادية
منها كأم هدي .

رعت السيدة الطيبة في لحة رفيعة ودود على اعتدار « حسان »
من ابيه ثقلة :

— وقتها اذ إلى البحر .. لقد سمعت من نادبة عن مدى نشاطها
في الجبهات الحربية .

وقالت أمي ضاحكة :

— لا تها انا ولا تكل ، لا تستريح في بيتها أبدا .

— رينا عطشها العافية .

واستمرت تحيات المجادلة تتبادل بين أمك وأبي .. من الصحة
والعافية وكيف ترى البلد .. و .. حتى سألت أمي من « اسم الله
عليه » الذي هو أنت .

ويدا القلق والصوب في عيني أمك ، وبسطت كتبها في استسلام
ثقلة :

— اللهم لك الحمد .. كلما استقر به المقام بيننا ، بأبي الله إلا أن
يبعدني .. لم يك يرحم من الكلية الحربية لأخرج به حتى سافر إلى
إنجلترا ، ولولا وجود أختي « لطيفة » هناك واشتغلتني عليه معها .
لغضبت من القلق .

وقلطنها « أمي » ثقلة :

— لطيفة تستحق كل خير .. سيدة فاضله وكريمة .. لن أنسى
حيولها مما في لندن أبدا .

— لم تعمل أكثر من الواجب ، إنها هي الأخرى تبتدحك بدحا ..
كانت أوصها بمالهم فيه حتى حدثتني ممكن نادبة ، وحتى لتينكم ، بوجدتكم
خيرا من كل ما قالوا .. إلى « حسان » لم يشعرنا أبدا أننا غرباء .
وقلت أنا معاذلة :

— غرباء .. كيف ؟ نحن بلد واحد يا خالتي .. ألم تعترني بالوحدة

جد ١

وشحكت أمك ثقلة :

— لم أقصد أننا بلدان يا حبيبتي .. إن مجرد ترك الإنسان بيته
يشعره بالغربة . حتى ولو كان في بيت الجيران .

وأفسرلت أمك في قولها ضاحكة :

— على أي حال أنا لم أتعمر حتى أتى في بيت الحسيران .. لقد
ملأني حسان إحساسا بأنني لم ألقق ابني حمدي .

ورد حسان مقاطعا ، محاولا أن يبعد الحديث عن مجرى الشر
والأحد الذي أفسرلت فيه أمك بعد أن أحس بها يمشي أن يمكنه هذا
الإنراط في الشر من هرج عليه عندما يديه كله لا يدرق بيت نادبة .
قال حسان :

— وبني بنوي حمدي الحضور ؟ لقد سمعت من نادبة عدة مرات
أنه على وشك أن ينتقل إلى دمشق .

هزت أمك رأسها في أسف ثقلة :

— من سوء حتى .. عندما أتى أنا إلى دمشق يظل هو في القاهرة
.. هل تصدق أنه الذي مله من قبل لأنه كره أن يتركني وأنا مريضة ،
وعندما شفيت نقلت نادبة ، ولم يكن من المعقول أن تتركها تسافر
وحدها ، فتركته وسافرت .. وهكذا كتب علي أن أمارته دائما .

وقالت نادبة مهذبة :

— سينتقل قريباً إلى دمشق .

وإنم حسان قولها ضاحكا في شيء من العيب الذي يلبي إلا أن
ينضح به بين آونة وأخرى :

— ويذهب إلى الجبهة ، ولا يلبي إليك إلا كل شهر .

وشحكتا من قوله .. لقد كن المفروض أن يتول شيئا يعملون في
تهنئتها .

وقلت أمترش على قوله :

— ولماذا لا يلبي في إحدى الترحلات في دمشق ؟

وماد حسان يقول في إصرار عثني :

— لأنه من المدفعية ، وكل وحدات المدفعية من الجبهة .. ورياس
أفوس سلى لم يبق هنا إلا فترة قصيرة عاد بعدها إلى الجبهة مرة أخرى .
ونظرت « أمى » إلى « حسان » من غير وقالت أنك من استسلام
وهي تمشط كعها :

— على أية حال .. أراء كل شهر خير من أن أراء كل عام ..
وسجد الإحساس مقربة يمشى إلى " الطباينة عليه .

وقلت أريد محاولتها لطباينة نفسها :

— والجبهة هائلة .. والحياة هناك مريحة .. والمساكن قريبة
من هنا .

ورددت أنك من استسلام على ما يظن :

— ربنا يسلمه .. وسلمنا جميعا .

ولم تمر بضعة أسابيع بعد تلك الزيارة حتى نقلت إلى دمشق .

وعلمت بذلك من « نادية » عنيما أقبلت على ذات يوم وأنا
لوشك على الانصراف من الكلية لتقول لى :

— ستناولون العشاء الليلة معنا .

وهزئت راسي مستفجرة ، فجلجلت وعلى تسفتيها ابتسامة
مريضة :

— حدى وصل .

وهفتت أتساءل من فرحة :

— أنت نزل إلى هنا ؟

— أجل .

وانثنائى إحساس بالمسادة وأنا اسمع خسبر نطقك .. ولكون
مخالفة لو ادعيت أنني سمعت بصوتك إلى دمشق من أهل نسي ،
يقدر ما سمعت به من أهل أمك وأخوتك ومن أهل الفراغ الذى يمكن أن
تخلأه من أسرة تعيش بلا رجل ، ومن العرج الذى ترغمه من « حسان »
وهو يحس بواجبه من السؤال منها ، وزيارتها .. وما يمكن أن يقال
من تلك الريارات .. بل ما قيل عملا .. عنيما سألته أنه ذات يوم أن

— سطحها من إحدى حملات التجميع الجديدة التى تسهم فيها باعتد
ثلاثا :

— لا استطيع .

— له ؟

— لاس يرتبط بوعود سابق .

— مع من .

وتردد « حسان » برقة .. فقد توقع اثر رده .. ولكنه بما جيل
عليه من صراحة وسذاجة وعدم قدرة على حيك الأكاذيب أجاب :

— مع نطفية .

وبدا الضيق على وجه أمه ، ولكنها أجفت من هدوء :

— اعتذر لها .

ورد هو بنفس الهدوء :

— غير مقبول .

— غير مقبول أن تعتذر لها . لأنك مستطعبك أنك إلى حفلة ؟

— لا أحب أن أخلها .. ولا سيما منى الحفص عليها من أن تطلب

من أمها الخروج معنا .. لأنها تكاد لا تعبر المنزل ..

— أو تعتبر نفسك مسؤلوا عنها وعن لها ؟

وقال « حسان » فى ضيق :

— لا داعى لهذا الكلام .. إنهم ناس طيبون وهى رجلنى ومدينتى

.. وقد عملوا الكثير لسيور من لى . وليس هناك أى هرج من أن

أذهب أنا وسوير معها من أى مكان ..

وحاولت أن تدخل لأشع هذا للجلجل فقلت :

— سأذهب أنا معها يا حسان ، وأذهب أنت مع مليا .

ونظر إلى « حسان » من صد قتلا :

— لن أعتذر لها .. أنا لم أعد طفلا .. وأنا أعرف جيدا ما أعمله .

وقالت أمه وهى تحاول أن تكت غضبها :

— أنت لا تعرف شيئا .. وإنما تنصرف بصداقة وانفعال .. إنك

نسيء إلى اللغاة من حيث لا تدري .. أنت لا تعلم ما يتقوله الناس عليك
.. هل نظي الناس تسكت من دعوك و خروحك عليها و عما سيدخل
نفسك و جدها بلا رحل ؟ !

— أنا أعرف أن تصرفاتي لم تشبها شئاً .

— ولكن الناس لا تعرف .

ثم صهت لحظة و تساءلت في هدأ :

— ماذا تكون أنت بالنسبة إليهما ؟ قريب ؟ حبيب ؟

واجلب « حسن » بهدوء :

— إذا كان لابد للناس من شكل رسمي .. فلما على استعداد لكي
أعلمه في أي وقت .

وأجست « خالتي حفيظة » بدى الحظورة التي توشك المائشة
أن تقود إليها .. وأدركت منككها أن « حسن » لا يمكن أن يؤخذ مثل
هذا العناد .. ولم تجد بدا من أن تنهى المناقشة بسرعة حتى لا تتطور
إلى أكثر من هذا .

وردت « خالتي » في شيء من الاستحفاك ، وكشها لا تأخذ كلامه
بأحد الجد :

— انصتيا .. سلاص وهدى .. لست في حاجة إليك .

وأحس « حسن » بما قد سبب لها من شيق .. فأسرع يفسها
إليه ويقبلها في حنان قفلا :

— انصابت .. ؟

وردت « خالتي » بهدوء ، وقد غلب عليها حنان الأم :

— أبدا .. كنت أظن أنك ستصر بالذهاب إلى هذه الحفلة .

— لو لم أكن قد ارتبطت مع نادبة .. لسنرى فعلا أن أذهب معك ..
ولكنك تطبين أنني أكره أن أدخل الناس .

— معك حق .

وصهت بهرة ثم أردت قائلة :

— وأنا لا أريد أبداً إلا ما يسعدك .. وكره أن يهتفك انفعال يؤقت

إلى ارتباط لا يلائم مستهلك .. عندما يذهب هذا الانفعال ..
وتجيب ما تعنى « خالتي » .. ولم يكن هناك من شك في أن
« حسن » قد فهمه .

و « خالتي » على حق .. لأنها تفكر بعير انفعال .. تفكر وتكافها
حر لا تسيطر عليه بشاعر ولا تقوده أحاسيس ، ولكن .. كيف تفرس
نفسه تفكيرها الحر ، الذي لا يشوبه انفعال .. ولا تقوده المشاعر
.. على إنسان يفكر الانفعال ذكاه .. وتعرف المشاعر بمطلة ؟

لقد فهم « حسن » ما نصبه إليه ، ولكن مطلق لم يقبله . لقد كان
يسهر بكل ما يحيط لمستقله من مشروعات .. كانت بشاعره تأتي
الإدخال لما يرسبه له فكافها .

وانطلقنا إلى « نادبة » .. لتصبها وأما إلى العشاء ..

ولم أكن بالطبع أمارس في صحة نادبة .. لأنني كنت أحبها فعلا .
ولأنني لم اعتبر نفسي قط طرفاً في بحركة معها من أجل « حسن » ..
فأحسست أبداً أن ارتباطاً يمكن أن يكون بيني وبين « حسن » أكثر من
الارتباط الكائن فعلا .. قريب وصديق .

وإذا كانت « خالتي حفيظة » تراها خطراً على مشروعاتها ..
مقد كنت أبا أراها مقفلي .. من حطر تلك المشروعات التي بدأت
أشعر منها تعدت مرحلة المزاج إلى مرحلة الجد .

وجع ذلك فلم ينتج كل هذا من الإحساس بخروج وضع « حسن »
بالنسبة لنادبة .. مما دفعني إلى الشعور بالمساعاة لمحبك .. لنفعل
عنا جميعاً ذلك الإحساس بالخروج ، ولنهد « حسن » ومما أسلم
كصديق لك .. ولناحتاج له أن يحدد معالم العلاقة بينه وبين نادبة بوجودك
كرب أسرة .

والتيها ليلذاك في بيتكم في المزرعة : أبي ، وحسن ، وسلي ،
وأنت ، وأختك ، ولك .. ولعل بنا « أبي » ليقول لك جيد الله على
السلاحة .. ويؤكد لك ترحيبه بك في فيشق كرد على ترحيبك بنا في
لنفس .

وخلصنا حول المائدة المستطيلة الصميرة في السهو .. واحسست
بآث كاهن وهي حائرة بين المطبخ وحجرة الطعام .. وهي تساعد في
نقل الاطباق والصواني وبها احساس المتصرة التي لم يعد للفسيوب
ما يستحقونه من إكرام .

ويدونا كلنا سعداء .

« أمك » سعيدة بوصولك .. سعيدة بتركها فيها .. سعيدة بوحولنا
.. سعيدة بما تحاول ان نتحشا من مظاهر الحنان والحب .

و « هسان » سعيدة بلقبة .. فقد كنت احس ان مجرد وجودها
يعتبر بالنسبة له سببا كافيا بغيره بالسعادة .

و « نائية » سعيدة بمسسل .. برغم كل مظاهر التحفظ والانزاع
والعقل التي تسيطر على تصرفاتها نحوه .

و « اي » و « امي » سعيدان بمظاهر المحبة التي تنفيس من حولهما ،
ولم يكن واحد منهما يحاول ان يشغل نفسه بشروع « خائلي حفيظة »
الذي يوشك ان ينهار .. لانها لم يحاول ان يفرصا على « سببا للسعادة »
.. بل كلنا — ولا سيما لي — يتركان لي حرية اختيار اسباب السعادة
.. ولم اكن قط احاول ان اسوء استعمال حريتي .. بل لا اظن انني
سببت لهما في يوم من الايام تضا على منحى هذه الحرية .. ولم احاول
قط ان احمل من سعادتي سببا لشغلها .. قد نعموا ان يستمدا
سعادتهما من سعادتي .

وكانت سعيد .

لست ادرى له ؟

إذا اعترنا ما حدث بعد ذلك .. فلا اظن هناك شك في أنك لاند
وان تكون — من حيث لا ادرى — سببا لتلك السعادة .

ولكن إذا اعترنا بشاعري في تلك الفترة .. بوصفها المجرد
وبصرف النظر عما يحدث له .

فأغلب الظن ان سعادتي كانت سعادة طبيعية مستمدة من الصبح
بما فيها أنت .

كان كل شيء في نظري يبعث على الرضا .
الم تكن سعادة كل هؤلاء من حولي .. سببا كافيا لسعادتي ؟
تري انتظر لي كل هذه المحاولات بنى لكي أجرد نفسي من بشاعري
انك حتى ذلك الحين ؟

انتظر لي محاولتي أن أبريه نفسي من حبك .

المعالي .

إذا كنت اتبع من نفسي الذنب — إن كان دسا — وتذكرك .. فلقد
حزنت بعد ذلك ان ابلغه من نفسي وأنا عريضة فيه .

المعالي ، غانا — حتى ذلك الحين — كنت اكراه ان احب .. كنت
احس بالحاجة لمدعاة للسخرية .. وكنت احاول دائما ان اترفع بنفسى
عنه .

أهو مركب القصص الذي يتحدثون عنه ا

أم لاني كنت احسب اني لا يحبني احد .. فعرفت اني لا احب احدا ؟
انظر لا !!

فما حاولت التمسق مع تقمى إلى هذا الحد من التفكير .

بل كنت اكراهه لاني لا احب ان ابدو كالحبيبين .. او اعمل ما يفعله
المحبون .. او يقال عني ما يقال عنهم .

وأكثر من هذا .

لم اجد من مستحق ان اضع نفسي من أجله في الفج .

« حسبل » وهو الرجل الوحيد الذي وسعت بشاعري نحوه من
الامتثال .

لم يوجب إلا في تقوية مقاومتى للحب .. وزيادة نفوري به ..
وترفعى عنه .

ولست اتصد بالطبع لنفوري من « حسبل » .. او ترفعى عنه ..
بل نفوري من ممارسة الحب في هد ذاتها .

أعرفت لئلا احاول ثمرته نفسي من حبك وتذكرك ؟

لاى سسلطه .. لم اكن اعب ان اعب .

ومع ذلك كنت سعيدة بك .

وللكتاب ان يسوها مقدمات حب .. ولكى لم احس وقتذاك ابدا .. ان تلك اسعاد بك .. بوجودك ، والحديث معك .. يكن ابدا ان تنتهى إلى حب .

واتلنت على "لهذاك إقبالاً خالصاً .. ووسعتى دور كل الموجودين بوصف صبيك واعتمايك .. ولم تخرج ابداً من ان تظهر انى انا صديقك .. ورحمت ذلك ايام لندن ، وقصاوى ان تجعل منها على صلاتها .. نوعاً من الحريات الصديقين .. ثم رحت تتحدث عما سعلنا فى القاهرة .. حاملاً منه .. على بساطته .. شيئاً هاماً تذكره فى حياتك .

ولم اعرف .. لكنت مجابلاً وقتذاك .. لم كنت تعنى ما نقول ، ولكن الذى اعرفه هو انى قلت منك كل ما قلت .. واقبلت عليك بنفس الاعتملى ، واتنا احس عملاً اننا اصحاء ، وان لعلنا التمسق فى لندن والقاهرة قد وطد لولمر الصداقة بيننا .

ولم احاول ان اضيق نفسى بمحاولة تصور صداقتك على انها نوع من الشفقة او العطف على عرجاء .

بل قبلت تمييزك لى .. وإقبالك على .. على انه إحساسى محلى منك .. وثلك وجدت لى .. كما وجدت فيك .. ما يشعر كلاً منا برغبته فى صداقة الآخر .

وقبل ان تنهى سهرة العشاء فى منزلكم .. قلت لك فى نهاية حديثى ضاحكة :

— جاء دورى لى اعمل لك حيلة .. لن اتمجلك كما كنت تتمجلى فى لندن .

وصحكت بمسألة :

— انا تمجلكم ؟

— طبعاً .. كنت ترمح بنا بسيارتك .. وكنتك تريد لى تخلص منا وتذهب بنا لى بيت خالك .

— هرام عليك .. لقد كنت أخشى عليك من البرد .

— ان أخشى عليك انا من شىء ، سلطون بك كل حبلى ، واذهب بك إلى بلوداى .. وإلى العين الخضراء ، وإلى عين بردى .. حتى ادوذك كما دوختنا فى القاهرة .

وقبل ان اصطحبك عند الباب قلت لك فى حياصة :

— موعنا لدا .. سنذهب انا وانت وهسان ، ونادية ..

وتصيت ليلتى لعلم بأحلام حيلة .. لا تدع الحرور يدخل إلى قلبك .. فلم تكن أنت بينها .. كانت أحلاماً جميلة ملؤها الورد والخمران الصافية .. والطيور المفردة .

لم تكن أنت معها .. ولكنها كانت تتم عنك .

ووقفتا بالبحرية في نهاية برمقة ، وتساؤل « حسن » وهو يجلس أمام
مجلس القيادة بعد أن صرف السائق فقالا :

— إلى أين ؟

ولم تكن في ذهني خطة مرسومة .. فقد كنت أحس بالرغبة في
الانطلاق إلى كل مكان في العالم المسيح .. تندفع مع المياه المتدفقة
في السهول .. ونشب إلى القسم البهش المكثلة بالثلوج ، ونهيم بين أكوام
السحب المتناثرة المتلاحقة على وجه السماء .

وردت سلمي تستعرض إحدى الطرق المفتوحة أمامنا قللة :

— إلى القوطة .

وبرغم حبي لبستان القوطة .. فقد احسست أنني أريد أن أتطلق
معيداً بعيداً .. أبعد من القوطة .

ولم تهرأت جوانا .. ولادارت « مائية » رأسها إلى « وهي تجلس
بحوار « حسن » على المقعد الأمامي مشاكلة :

— يا رايك يا سبير ؟

والثقت بدوري إليك وكنت تجلس بيني وبين « سلمي » وقتت
مباحثة :

— يا رايك يا حدي ؟

وتساوت أنت ضاحكا :

— آنا ؟ .. لو حيرت .. لطبخت جنكم أن تعولوني إلى وحدتي في
البحيرة وتدعوني أستقر هناك .

وردت عليك في شيء من غيبة الأمل :

— أكفأ بالثقا سريعا ؟ !

— لم أقصد هذا .. ولكنني فقط لا أشر بالاستقرار إلا بعد أن
أفقد مكائي في وحدتي .. وأعرف أين أنا .. ومع من أصيل .

ورد حسن ضاحكا :

— لا تتعجل .. غدا سفتح استقرارا .

بداية مُشرقة

دعني استعيد ذكرياتي عن رحلتنا الأولى في دمشق .

أعرف أنك تعرفها .. ولكني كما قلت لك لا أكتب لأتذكرك شيئا جديدا
.. بل أكتب لأرشد لنفسي أصعب ذكرياتي .. ألوكتها في ذهني كما يلوكت
الطفل قلعة الطوى في فمه .

وهذه إحدى قطع الطوى في حباتي .

كان الشتاء في أواخر أياره .. يكاد يلمط آخر أنفاسه الباردة .
وتقطع السحاب تتلاحق على صيحة السماء ، تملأ الشمس من ثلجها ..
من أونة وأخرى .. لتضعا مسة دفء يبدد الصقيع الذي يلفحنا عندما
تطول لحظات غيبها وراء كوم دكان من السحب .

ورفع السماء تبدو من خلال السحب الرخوية شديدة الزرقاء ..
ترسم في الأفق من وراء النصوص التي بدأ التبت الأخضر في براعمها
.. أجبل لوحات الطبيعة .

وإشراف في النفس تضئ الحياة من حولي .. الله أعلم بمصدرها
.. أهي نعمة الرضا والغنامة والنفس الصافية التي تلوذها السكينة
والمودة والإيمان بالحياة .. خالقها ومخلوقاتها .. أم هي فطرت رهيبة
بتردد صداها العذب بين الحنايا .. إيدانا بميلاد شيء جديد في القلب
لم يلقه بعد ..

أيا كان مصدرها .. لقد انطلقت سميرة من داري .. أطوف بيتية
الدور أسمعحت الزقاق .. حسن ، وسلمي ، ونادية ، وإليك ..

وصيت لحظة قبل أن يعود إلى التساؤل :

— لم تقولوا بعد إلى أين ؟

ورددت قذلة بسرعة :

— إلى بلودان !

وأعترضت سلمى قذلة :

— برد !

وأجبت في إصرار :

— سير منح بردي ، ونزور الريداني ويقين والمناطق حول بلودان .
.. ثم تصعد الكازينو في أعلى القبة لتري التلوج هناك .

ثم التفت إليك قائلة :

— ساكنو ذلك في دمشق .. وسئلتك مرحة خيرا مما محتى
في لندن .. سأريك أن لدينا نحن أيضا ظوحا .

وقال حسلى محترما :

— أخشى أن تكون التلوج قد ذابت ؟

ورددت بارحة :

— إذا أسرع بنا قبل أن تنوب كلها .

ولدار حسان العرية ، ونطلق بنا وهو يقول :

— إلى التلوج قبل أن تنوب .

وأجترنا دبّر .. ولغقت نظرك المياه المتساقطة من فوق الجبل ناسرت
إليها وقلت ممجبا :

— لم أتصور أن يكون مخيل دمشق بهذا الجبال !

ورد حسلى :

— منذ عاين كل أجل .. عندما كانت الأمطار أكثر مرارة والمياه
أكثر كثفا .

وصيت لحظة وعاد يقول :

— نرى عالم بلا أمطر .. والملاس يقرنون الجفاف بالوحدة ..

كان الله يأبى إلا أن يتحنن قوة إيمانها بها .. لنضع الله أن ينزل المطر ..
حتى لا يفقد السذج إيمانهم بالوحدة .

وأجبت أنت في حرارة :

— ليبرل الله المطر من أجل الناس الطيبين ، من أجل حياتهم ،
واررتهم .. الوحدة قد تتهطل التجربة ، ولكن حياتهم لا تهطل .

وخضك حسان ثقلا :

— على أية حال .. ليست هذه هي المرة الأولى أن يبروا بتجربة
الجهنم .. لقد ترات ذات مرة أن الأمطار انقطعت بضع سنوات ، حتى
حف الزرع . مثل المعمول وهدمت البلد بالمحاجة .. ويسأل الولي
إمام البلد أن يسلى بأهلها ويسأل الله أن ينزل المطر .. وهر الإمام
رأسه في أسف وقال معتبرا : « غير مقبول يا مولاي أن ألقى من
أهل المطر وليس ثمة مسجلة توضح الله في السبيل » .

وتسألت أنا في شيء من الدهشة :

— إذا كانت الأمطار تهطلنا بين حين وآخر .. فليبدأ نضع امننا
في يدها ؟

ولجبت أنت :

— في الاتحاد السوفييتي احترعوا آلة لإسخط المطر الصناعي وهم
يشرعونها للفلاح قائلين « فيها مصى كنت تسأل الله أن ينزل لك المطر ،
وتستظر حتى يسقط .. أو لا يسقط .. ولكك إذا خسلت على
هذا الزر فترزول المطر لا ريب فيه » .

وردت عليك بحجة :

— لا أقصد أن نفقد إيماننا بالله .. فهو يملك كل شيء حتى قدرنا
على أن نصبط هذا الزر .. وإنما أقصد أن نجد لائنسا وسيلة ..
تؤمننا من المطر ، عندما يخللنا المطر .

ورد حسان في حيالة :

— ومن أجل هذا .. وضعت بشروعات السجود التي تجعلنا نتحكم
في مياهنا .. نتحترق الفاض لنستعمله وقت الحاجة .. حتى لا نضد

في رى أرضنا على مصادر لا تلك التحكم فيها .. من أجل هذا وضع مشروع سد الرستن والفرات .

وصيت برمة ثم أرفق ضاحكا :

— إذا كانت الأطلال قد خلّدت الوحدة .. فلن تفضل الوحدة الأرض الطيبة .

وكذا قد اقتربا من عين التليحة ، فسلّات « حسان » أن يشهل قاتلة

— هنا عين التليحة .. العين التي نحصل منها على ماء الشرب .

ثم وجهت السؤال إليك قائلا :

— أتعجب أن تراها ؟

وبدا من عينيكَ التردد .. وأدركت أنك لا تريد أن تكرر من العرول من العربة والسير حتى لا تتعبني .

وكنت أشعر بطاقة عجيبة .. ولم أحس قط أن لي سائقا مشغودة أجراها ورائي .. فقلت لحسالي الذي توقف ينتظر لأمرى .

— اتجه بنا إلى العين .

وفتقت بنا العربة من المحتر ، وهسلت وإيك تنمنا « سلمى وماتية ثم « حسان » .. واتجهنا إلى القهى المعلق على القوائم الخشبية في عرض المجري الذي تتدفق منه المياه .

ولسكت بيدي تسامعتني على تخلي الممر الخشبي المأدّى إلى القهى ..

ولست أدري لماذا أذكر أنك لمسكت بيدي ..

لهذا أتلكا وأنا أسرد كل هذه الذكريات الحافلة المليئة بالأحداث الهلالية .. لأنك أنك لمسكت بيدي تسامعتني على العرول .

ألم يكن طبيعيا أن تساعد عرجاء — أو حتى غير عرجاء — على دخلي مجبر خشبي على المجري ؟

ألم تكن الوسيلة الطبيعية للمساعدة هي أن تمسك بيدي .

بل ألم يمسك بيدي ليسامعتني على النزول أو الصعود أو العرول .. مئات الناس من تلك ؟ ومع ذلك لم أحاول أن أذكر متى وأين ومن ؟

ومع ذلك .. ويغير وعي مني .. أتول هنا إليك لمسكت بيدي وسامعتني على العرول .

وكنتي أعتبر إمسالك بيدي .. حدثا جلالا .

أو ليس كذلك ؟ !

في أعينتي .. هذه الأعين التي ترخر بأشياء محببة .. بمشاهدة مخططة .. فلن أن يعرف كتبها أحد .. حتى أنا ؟

في أعينتي .. أشعر أنه حدث جلال .

ليس بالطبع لأنك أتلفت جهاتي .. ليسامعتني في الصور خشية الإنزلاق .

بل لمجرد أنك لمسكت بيدي .

لمجرد تلامس كفتي .

بم أحسست وقتذاك ؟ !

عندما أعود مذاكرتي إلى تلك الهبة أذكر — وكنت في تلك — إجلسا مريبا بالطهانية .. وكنتي وجدت مستدا انتقده — ليس لمجرد صور المصير الخشبي ، بل لعبور الحياة كلها .

أحسست لكك .. بطمأ مريحا .. حالها .. آمنا .. لكك .. ودعت لو طال استقرارى عليه .

ولكني أسرعت بقتزاع كتي .. لمجرد وعيي بذلك الإحساس .. وإفراكي للثبور الحاس الذي سببه استفادي إلى كك .. والذي لم أشعر به لأي كب استندت إليها من قبل .

واستطعت أن أغلب ذلك الاضطراب الماعن الذي أحسست به وإن أحد نفس على حافة شيء لم أهد نفسي له ، بل كنت قد وطدت نفسي على تجسده .. وكنت أجد في الأسلوب الذي أهدت به نفسي في الحياة .. والذي قادني إليه رغبتني في أن أتمو مستقلة — حتى لا أعرض نفسي لأي ارتباط قد أخلل به — ما ينأى من أي احتمال للدمو منه .

ولست أدري ما إذا كنت قد استطعت أن تحس سرعة انزعاج كتي

من كملك .. ولا ما إذا كنت قد خدلتك .. أو أشعرتك بالذنب .. ولكن
الذي استطيع أن أؤكده .. أنك — سكتك ورقك — استطعت أن
تواصل إتصافك عليّ وأعتصامك من .. بكل ما تلك من الرعية والمودة ..
دون أن تحاول مرة أخرى أن تبس يدي ، وأخذت تنصت من أعتصام
إلى ما استطعت أن أشرحه بما أعرفه من نهر بردى وغروحه الحسنة ..
بما فيها ذلك الذي يجري فوق الجبل .

وعندنا إلى العربة ، وانطلقنا مرة أخرى .. في الطريق للمساعد ..
بين مروج الكروم التي سنت الأوراق في أعصاتها الزاهية على الأرض
الحمراء .

دو قتنا ثقية على نبع بردى .

سرنا تحت العريشة المتسعة القلبية على المجرى العريس . وأحسب
الريح تصغر بطريقة ساهرة .. وكأنها تنفخ في ما يوصل إليها صوته
من أماني النبع .

وتصاقلت :

— أين النبع ؟

واثرت إلى نقطة بين الصخور ضائق معدنا النبع : قاتلة .

— هناك .. هيا أريك إياها .

وكان الثلاثة الآخرون قد استلخر بهم المقسم على مصدده تحت
العريشة ، ونظرت أمت في حيرة وكأنك ظوم تنسك على ما تنوي أن
تسببه لي من ذهب .. وقتت معتبرا .

— لا أريد أن أتمك .

— أنا أقوم بواجبي ككامل .

ثم أردفت ضاحكة :

— كل ما أمله .. ألا أؤفك بمعلومات غامضة عن كل ما نرى .

وقلت في حرارة :

— أنت تريتنى أشياء جبيلة .. لا يمكن أن يظفر المرء فهم جمالها .

وسرنا نحو النبع ، وجاورنا الأرض الخضراء المنسطة إلى الصخور
.. وبدأت أجد صعوبة في السير ..

ولحنت في عينيك نظرة رجاء .. لقد كرهت أن تتركني أهر سلقى بين
الصخور . — وقشيت أن تبت إلى يدك .

وبعدت أن يدي إليك .. وببساطة وضعت كفي في كملك .

ومن جديد أحسست براحة الاستناد إليك .. وشعرة من كملك بكفي
.. وأصابعك لأصابعي .

ولكن إحسب الوجع قد تهدأ أو كاد .. والمناخاة بذلك الشيء البهر
الذي وقتت على حلقه ، والتي جعلتني لأجل وأرتد على أعقابى ..
قد خفت حدثها .. ووجدت في نفسي الشجاعة ، كي أسرح بيمرري في
ذلك الشيء المشرق الذي أحسست أنني أفق على حالته بمجرد من كفي
بكلك ، واستندت إلى يدك .

وتركت نفسي أستريح ..

وعندما سطت من حباتنا المليئة بالشتاء .. غرصة للراحة نطلم
أنفسنا إذا ما حرمناها منها .

أو هكذا معتز لأنفسنا .. صعبا نرعى لها التزمم ، ونهون لها
الخطايا .

أو كانت تلك خطيئة ؟

إذا أخذت بمقاييس ما شئنا .. من مبادئ ؟!

نهي قطعنا خطيئة .

وإذا أخذت بمقاييس ما بعدها من أحداث .

نهي تمهيد طبيعي .. لأجل ما في العمر .

وهكذا نختلف حقيقة الخطأ والصواب باختلاف المقاييس .. وما من
مقاييس يمكن أن تنت لأفعالنا على التزمم والإنسلا .. إلا حسيلة تلك
الأعمال من النفع أو الأذى .

ولم أحاول بالطبع أن أحلل للنفس نتيجة فعلتي تلك حينذاك .. من
النفع أو الأذى .

لم أحاول .. لاني لم اكن املك وقتذاك .. سوى الاستمتاع
بهما .

وسرت بين صفور التبع .. استمتع بكى فى كلك وانسبر إلى
المياه المتدفقة من الصفور :

— المياه تتدفق باردة حتى فى حر الصيف .

وانضبت فمع كلك فى المياه الصافية نقلا :

— اجلس ما فى الكون .. المياه تتدفق من الصفور .

واصك باثرة :

— بت تشمر ؟ !

— ومن لا يشعر وسط كل هذا الجبال .. إلا جبال .

وفى وقتك تلك .. تذكرت فجأة .. الحبة التى حطت على

راسك فى ميدان ترابالجار ووجفتى لثقله .

ونظرت إلى "فى دهشة وسامت :

— ماذا يفحك ؟ !

— تذكرت منظر .. والحبة البيضاء على راسك :

وانسبت ونظرت إلى " مؤنبا :

— ظننتى اثرت فى نفسك الإعجاب كشاعر مثلا بك تسحكين

على " .

— أيتشنى الضحك مع الإعجاب ؟ !

— أعتقد .

— أيتهم على " لكى أعجب بك .. ان أبوز فى وجهك ؟

وتصنعت التكشير وهدفت بوزى .. فأغرقت أنت فى الضحك ..

واحببت بمقلها :

— ليس إلى هذا الحد .

وحذت بدى ببساطة : وتلكى إحساس طبيعى بال ليس بيما

كلية .. كل منا غريب من الآخر إلى أمد حد .. كأنك أخى أو أبى ..

أو أبى .. ولم احس بأن هناك ما يعنى من ان استند إلى كلك
أو احبطك بفراسى .

ولم امل بالقطع .

مجرد شعور .. من هذه المشاعر المجيبة التى يحش بها باطننا

ولا نحرز على تنفيذها وتهدد دون ان يشعر بها الحد .

وعندنا إليهم .. لتجلس معهم على المائدة .. ولتعد « مادية »

و « حيل » قد انتهكت فى حديث لا يقضى ما بيننا من بشاعر .

و « سلى » المسكنة .. قد جلست ترقب المجرى الذى تجرى

فيه المياه بجمدها هناك التسميم .. وتسمح إلى صير الناي تتلخه

الريح من أمانك التبع .

وأحسست أنى مكتبة ..

كان المفروض ان تكون معنا « سلى » .

ولكنها لم تلك .

ولماذا لم أسألك ان تكفى ؟

ولماذا لم تلغى فى وحدها ؟

اترى المخلوطة الرقيقة قد أحست أن شيئا ما .. يجعل وجودها

تقبلا بيننا ؟

لشد ما أخطأت إذا كان هذا هو ما تركته فى نفسها من إحساس .

وبدافع من تائب الضجر .. أقبلت عليها .. أمنها المزيد من

مظاهر المودة والحب .

ولم تكن فى حاجة إلى مثل هذه المظاهر .

ولكنها حيلة الخلق :

ولقد كنت مدنية — بأسلوبى فى التفكير وقتذاك — ما فى ذلك

شك .

وكفى على " ان أوزع اهتمامى على الجميع فى الرحلة لكى أبعد من

نسى الإحساس بالقلب .

وعلوفنا السير .. مواصلي السمود في طريق ملودان ، فلم
تتوقف حتى وصلنا إلى المقي في أعلى التبة .

وكنت بتأيا جليد ما زالت تسطح على أجزاء في القبة التي
تشرق على المقي .

وأهستت بلسمة البرد ، وكنت الشمس قد غابت وراء كوم ثقيل
من السحب السود .. فقللي حيلتي :

— لئن من الخير أن نهيئ لتناول الغذاء في الفندق .

ولم يكن أبلينا سوى هذا الحل .. فعندنا إلى العربية ، وأما انصد
لن ابتعاد منك .

وقبلت بعامدي ببساطة .

لم يكن أبليلك بالطبع سوى هذا .. وكان عليّ أن اسلم به ..
لأننا التي تصحته .

ولكني — لسخاقتي — لم أرتج إليه .

كنت أود ألا اسلم بعامدي ، وأن تقرب مني أنت !

فترأى كل اختيارا صبيغيا لحدى اهتمامك بي ؟

وهل قصدت أن اعرف ما إذا كان سلبك بعامدي ، ونشاعلك
بملي تارة .. وبحيل تارة أخرى .. يعني أن فريك مني أو سدي
منك يتساوى لديك ؟ !

أصحتك القول .. لقد كنت دائما تحيرني .

لم أعرف أبدا .. لأنك أنت إلى الحد الذي تعرف فيه سبب تصرفاتي
.. فتجوابي معها لكي ترضيني ؟

أم أنني لا أعني لديك شيئا خاصا ؟ !

وهل كنت أنت تسمى شيئا خاصا .. حتى أترض نفسي منك
موقعا خاصا ؟

إذا تطلبنا الإجابة المريحة .

فقط لا !

وأكون كلمة مدعية .. لو قلت لك .. إنني حاولت أن اسلم لك
في مناقشتي للنفس ماى موشع خاص .

ولكن إذا بسشت في تلك الأماني التي حدثتك عنها .. الأماني
البعيدة .. التي تكس فيها أشياء محببة يحتلط ببعضها البعض ،

ولا تكاد بمس بوجودها .. حتى تفدجا بها تتضخم وتبرز ، وتنفس
على كل ما مدها .

إذا بعضا من تلك الأنوار السخينة في نفسي .. فلا حدال في أنك
قد احتللت موقعا خاصا .. حتى قبل ذلك .

ربما منذ لقائنا في القاهرة .

أو من يفرى .. ربما منذ لقائنا في لندن .

من يفرى ماذا يكون في أمانينا العجيبة ؟ !

وكنت أحاول — من حيث لا أدري — أن أبحت عن موقعي في
أملكك .. وما تم أملكك .. من تعبد لهذا الموقع .

وسلمحك الله .

لقد كنت تحفلني دائما .

لما — كما قلت لك — من فرط فكاك ..

أو من فرط تلذذ ..

وتناولنا الغذاء في الفندق .

وجري الحديث بيننا .. عابدا .

لم يكن فيه ما يمكن أن استعيد في ذاكرتي الآن .

وعندنا أخيرا .. بعد أن مررنا بعين بغير .. وشرب كل منا جرعة
من ماء النع ، قلت لك بامتدادي بذلك إنها تشفى من عدة أمراض ،

وتزيد الكبد وتسطح العصي من المرارة .. وأشياء كثيرة سمعتها من
نلك العين التي يمكن أن تغشى على هيئة الطب في العلم .

ولعل علينا التمس في العودة .

لم نتحدث كثيرا .. وشرذ كل منا في بدهاء أفكاره .. فكرت أنا
في أشياء كثيرة غيرك .. فكرت في أبعثان الكلية .. وفي الدروس التي

كل من يجب على أن أنقلها .. وفكرت في « أمي » وحيرته لعدم تحديد الأرض التي مشترك له بعد الإصلاح الزراعي ، وفي الميعة في تطبيق القانون .. وما يشكوه من أن وزير الإصلاح المعني يحاول اللأثر منه لصلته الوثيقة بحزب الشعب .

وفكرت في حالي حبيشة ، ومدى خيبتها لإحباط مشروع الزواج الذي أهدت له .. وكنت أحس بطفف عليها رغم أنني كنت أول الراضين من إيفاق المشروع .. على الأقل من نظمي أنا .

وفكرت في « حسان » وأحبال زواجه منادية .. وتلكني من تفكيري شعور بالارتياح .. لأنني أحب « نادية » .. ولأنني — بإحساس الخفي — أدركت ما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا الزواج من تقارب بين أسرنا وبالدأى توثيق الروابط بيننا .

وانتهى بي الشرود .. إلى التفكير فيك ..

تفكير بشوش مضطرب .. خليط من السعادة والمصيق .. والراحة .. والقلق .. والرغبة والإحساس بالذنب .

لم أكن أجسر على أن أحدد للفلس هنا معينا منك .. فقد كنت أخشى أن أحدد مطلقا .. أختل في الحصول عليه .. وكان شعوري بما في من تعني بجسدي أجهل عندما أحاول أن أحدد لتفسي فيك أي نوع من الأملاني .

كنت أهر نفسي .. وأكره أن ألوح لها بأي أبنية يضعها الإخفاق في تحقيقها موضع الهوان .. ولكنني كنت أيضا أكره أن أخذها بقسوة الحرمان .. من أجل خوف الإخفاق .. وخوف الخلة .

وكنت في تفكيري فيك .. أترجح بين عدين الشعورين .. إحساس الرغبة في الاستراحة إليك .. والاستمتاع بما تمنحني إياه صحتك من شعور بالسعادة والفرحة ، وإحساس الخوف بما يمكن أن تؤدي إليه ناك الصعبة .. من مضاعفات .

كنت في تفكيري فيك .. كالمسطرة في طريق .. بشرق ابدية ..

بحتم اسبعية .. تحريك بدايته بالذنب منه .. وفروعه نهائيه من الخوف فيه ..

وإفراء البداية الجبلة .. أقلب على البشر .. من حشبة النهاية المعتمة .

وأنا في تفكيري .. لم أزد على أن أكون بشرا ..

لم أكن قدسية .. فمضيت الهادي في البداية المشرقة . وأسال نفسي ، وقد أوشك السراق أن يحرق : متى سألتك ليلة ؟

وجلس في مقعدى أنقل البصر بين رجال الدولة والوجوه المعروفة
من الأدباء والشعراء والجهابذة المتراحة على المقاعد وفوق عروق
الأشجار .

وكان المرح والبشر يملآن جو القاعة .. ولم يكن هنالك أثر
للمرمت والوقار الذي يغلب جو المحاضرات .. وبدأت لي جسامير
المستمعين أكثر استعدادا للطرب منهم للفهم .

ومع ذلك .. لم يكد يبدأ إلقاء الشعر حتى خيم الصمت على
الجهابذة ، وانحسرت بها تصمت في وعي ومهم ، وتستعيد البيت
الجيد كما تستعيد جهابذة الطرب غفرة لمن جليل .

وأحدث أرفع السمع إلى بعض تصائد مما انحسرت لها رهنا
حلوا لي يسرى .. وفهمت من أبياتها أن صاحبها يريد أن يقول لي
شيئا .

وشدت في البعض الآخر وأنا أحسن أن صاحبها يقول أشياء غير
مفهومة .. ولم يعنى من شرودي سوى زجرة الجهابذة التي أخذت
تصيق برتابة الوزن والغلبة .. التي غلب كل الصاهير بها فترتها على
مهم ما تعنيه .. إلى كل صاحبها يمتنى بها شيئا .. وهست لصل
قلقة .

— لم أكن أتصور الجهور بهذا القدر من الحسابية .. لقد
استطاع أن يميز الشعر الحسن بحسابيته .

وهز حساس رأسه وقلب شفتيه ولم يبق عليه الرضاء عن قولي ..
وتسائل في شيء من السطرية :

— هل تعربن أنت ما هو الشعر الجيد ؟

وأجبت به غير تفكير :

— كلام ذو رنين موسيقى .. يصدر من عاطفة فيللفة وذهن
لمح .. لا يميز لي وضوح عن معنى يريد أن يقوله الشاعر .

وحسنت حسنا برمة كأنها يقلب كلمتي في ذهنه ، ثم أخرج من
أنفه صوتا أثبه بالزوم منه بالحديث .

رغبة في لقاء

انقضت فترة بعد اللقاء الأخير .. دون أن تسنح الفرصة بلقاء
آخر .. فقد رحلت إلى الجبهة في اليوم التالي ، وكانت ريلراتك بعد ذلك
لأبك زيارات خاطلة لم تسمح بأي تدبير للقاء .

وانشغلت أنا بحياتي العادية في الكلية وفي البيت . وكنت تطوف
بذهبي ككلهم الجيل .. ولا أنكر أنني كنت أتبعي لتأذك .. ولكنني
لم أكن — حتى بيني وبين نفسي — في وضع يسمح لي بمحاولة السمع
إلى ذلك اللقاء .. ولم أكن أملك إلا أن أنتظر حتى تنمرء لنا الصدف .

ويعلم الله إن ريلراتي للجنة بعد ذلك — حيث تم بيننا اللقاء التالي —
وليدة صدمة أم هي وليدة إلهاء حسي من مشاعري المتوارية ورغيتي
المستترة في رؤيتك بعد أن محزنت الظروف مصعب مرات عن أن تدفع
بأحدنا في طريق الآخر برغم وجودنا في بلد واحد .

كل مهرجان الشعر الذي أقيم في مسرح المعرض قد أوشك على
الانتهاء .. ودعيت أشهد بومه الأخير مع « نادية » و « حسان » ..
وكان الزحام على أشده .. جمهور عظيم خليط من شتى الأدوات
والطبقات .. احتلظ فيه يستمعو « شفيق جبري » و « صالح حودت »
يستمعون « ليلدة كابل » و « نجاح سالم » ! أو عشاق الشعر بمشاق
الطرب .. وبلغت القاعة على رحلتها .. وفوق غصن الأشجار
الخفيفة بالمرح سلقت جوامير الشبب والصبية وكل من لهم القدرة
على التسلق بس لم تستعم القاعة .

ولم يبد عليه أنه يعارض في ردى على سؤاله .. ولكنه اردى في
ردى من الضيق :

— جواهر فاسية ! !

وأجابته نادية مؤيدة قولى :

— ولكنها حساسة .

— لا أحبها .

ولم أشك أن « حسلى » قد وضع نفسه موضع الشاعر الذى
صفته الجواهر .. وعبر بطيبته ومسالته عن مدى صينته بإظهار
الجواهر إمراسها عنه .

ولم تكن اثر معه إحساسا بالصيق للشاعر .. ولكنى كنت احس
بمدى مسؤوليته عن التصرف الجواهر من الاستماع إليه .. وتمجلا
نزوله عن المنصة .. لا سيما وأنه بالغ في الإطالة .

وانتهى الشاعر وتلاه آخر .. استمدت إصصت الجواهر وإعدها
.. وسرعان ما نسبت — كأنها الطلل — خنتها بسابقه .. واتدمعت
تبعه في إرهاب وحباسة .

وانتهى إلقاء القصائد وعاد بعض مستمعي الشعر بمقاعدهم خلال
فترة الراحة بين القاصمين قبل أن يبدأ فاصل الغناء .

وقال حسان متسائلا :

— أتريدان الإصراف ؟

وتساقطت في دهشة :

— لماذا ؟

— لم يبق بعد ذلك سوى الغناء .

وتسالت نادية ضاحكة :

— ومن قال أننا لا نحب الغناء ؟

واردنت وأنا اتول بكثرة :

— إذا كنتم كاستاذين في الجامعة .. تستنكف من الاستماع إلى
الغناء .. فلما ما زلت طليقة .

وصحت حسان قائلا :

— على أية حال .. الغناء شعر ملحن .. وبهذا الاعتبار استطاع
أن استمع إليه .

وقالت نادية :

— إذن حيا بنا نشرب شيئا قبل أن يبدأ الغناء .

واردنت برقة قبل أن انتهض لأتبعها .. وبدأ كل « نادية »
تد فكرت أتى آخر ورأى سالى في مشهد حديدي .. لقد استدارت
بسرعة وقالت بسخرية :

— يذهب حسان ليحضر لنا بشرويا .

وتغلست على ترددي وقاطعتها وأنا انتهض قائلا :

— بل سأذهب معكما .

ولم نكد نصل إلى آخر درجة قرب المسرح حتى وجفت أهد المشرين
على الحفل يقترب من « نادية » و « حسان » برحبا .. وعرفنا به
« نادية » باسم « عصام » كصديق لها .. ثم انتهضنا جميعا إلى السلم
الأفخم على اليمين ، ووقفنا في الزدعة بين مخرجت الجمهور التي يحيط
بالجانب الأيمن من قاعة المسرح وبين بناء المسرح نفسه .

وكنا في أواخر سبتمبر ، وكثت المسحب قد أخذت تتكس طيلة
اليوم في صلحة السماء ، وكان المسرح مكتشوا إلا أن ستائر الحيام ..
وكنا نحشى قبل حضورنا إلى الحفل أن يظلم الجو منصف بنا ربح
باردة .

ووسعت أنفرد على كفى . وجرى الحديث بيننا عن نجاح
المهرجان وتربط إقبال الجواهر عليه .

وتسالت حسان في خبث :

— لست أفرى .. أتقبلت الجواهر على الشعر أم على الغناء ؟

ورد عليه « عصام » قائلا :

— بعض الجواهر انصرفوا قبل الغناء بما يؤكده تقديمهم من أجل
الشعر فقط .

— على أية حال أسلوب نكي لجذب الجماهير .
واجبات نادية ضاحكة :

— لقد اتفقا على أن الفناء شعر ملحن .. فلا يمكن اعتباره دخيلا
على مهرجان الشعر .

وقال مصام وهو يحس أن فترة الراحة بين البرنامجين قد أوشكت
على الانتهاء :

— كل سنة وأنتم طيبين .. إنها فرصة طيبة للقاء الشعراء
بالجماهير .

وتسأل حسان :

— أقد انتهى المهرجان ؟

— لم يبق إلا زيارة الجبهة غدا .

— أسبرور الشعراء الجبهة ؟

— أجل .. بدعوة من الجيش الأول .. لحدا لا تحضرون معنا ؟
وقالت نادية :

— انستطيع أن تحضر ؟

— طبعاً .

وتسألت أنا :

— ألهمت الدعوة موجهة لوفود المهرجان ؟

وقال مصام مؤكداً :

— سيرحب الجميع بوجوهكم بيننا .. إن الدعوة ليست بمتصورة
على مدد معين .

ونظرت إلى نادية تتسائل ويحييها عبارات القبول :

— ليم لا نذهب ؟

واجبتني في حياصة .. وأنا أحاول هجسك في أمساتي حتى
لا تسمح سبب حياستي في القبول :

— أجل نذهب .. إنها فرصة لا تعوفى .

وأردف حسان ثقالاً بفلس للحياصة :

— ويرى حدى هناك ؟

والتفت نادية إلى « مصام » بتسائلة :

— أوانق أنت أنه ليس في ذهابنا هرج ؟

ولجاب مؤكداً :

— أبدا .. سيذهب معنا جميع الصحفيين والادباء .. إن لدينا
عربات تسع لأكثر من ثمانين شخصاً .

وقلت :

— انستطيع أن نذهب بعربتنا ؟

— طبعاً .. ستتجيب العربات أمام فندق سيرايمس في الساعة
الثانية صباحاً .

وقال حسان في حياص شديد :

— سنأتي من الساعة والنصف .. طالما تدت لزيارة الجبهة ..
لاخل على الأرض المعصبة .

وتلث له :

— لتعرف أن « الأسطر على » فلسطيني الأصل .. لا شك أنه
سيفرح كثيراً بالسطحلبا إياه في هذه الرحلة .

وسمنا الميكرومون يحل في ابتداء الأغنية الأولى

ونظر مصام إلينا ثقالاً :

— هيا بنا .

وترددت برهة قبل أن أسخطو إلى داخل قاعة المسرح .. وقلت
احسان :

— أليس من الأفضل أن أعود بمكرة الأخير « أي » برهة الحد ؟
ورد حسان :

— كما تشائين .. لقد كنت أنت المتحمسة للفناء .

وفكرت برهة ثم عدت أقول :

— أفضل أن أعود الآن .. لكي اتصل أيضا بسلمى لأنها ستتصافق
كثيراً إذا ذهبنا إلى الرحلة بدونها .

وجئت نائية يدها تودع صاحبها ثقلة لتخسب الأمر :

— ستصرف الآن .. وتلقى هذا أيام سيرايس .

وقبل الثانية .. كنا تلك بالحرية وراء صف السيارات العسكرية
التي تنفد أيام الفندق لتقل الوفود إلى الجبهة .

ونفذت لقيت بعض المحارسة بـ « أمي » في ذهابي إلى رحلة الجبهة
.. لقد كان مجرد ذكر اسم الجبهة كافيًا لإثارة الذعر في نفسها ..
وقلت أفتنحها مأثرة :

— إذا نشبت معركة وأنا هناك .. فاعلمك أنني سأكتفى بالشهادة .

وردت « أمي » ثقلة في إصرار :

— لا داعي إلى مثل هذه الامتنان الخطرة .

— سأذهب مع مجلة شامرو وقامرة وصحفي وصحفية .. لا تخشى
على .. شيئًا .

وقال « أمي » محاولاً إنهاء المناقشة :

— دعيتها تذهب . إنها غرضة طيبة لأرى المطعة هناك . ولي تبع
كثيراً من أرحمها .. لولا أنني يرتبط اليوم بعدة مواعيد .. لأهبت معهم
وحررنا بأرضنا هناك .

وتساقطت « أمي » في سفرة :

— أما زلت تسيبها أرضنا ؟

— ولم لا !! سأخذ جزءاً من المساحة المخصصة لي هناك .

سألم يرفضوا إعطائك إياها ؟ !

— سأأخذها رغم أنهم .. سأأخذها بحكم القانون .. إن القانون
يمنحني أنا حق الاختيار .

— إذن لماذا يرفضون إعطائك ما تريد ؟

— لأنهم يريدون الانتقام .

— من ؟

— من كل من ضللتهم فيما مضى .

— ولكذلك لم تضايق أحداً ؟

— الوزير المعلى .. يصر على أن يتكل بنا لرواسب قديمة بينما

.. ولعلنا الوثيقة بحرب الشعب .

وقلت أنا في دهشة :

— اليس القانون في صفنا ؟

— طبعاً .

— إذن .. كيف يسلبك حرية الاختيار ؟ !

— لأنه يعتقد أن سلطته أقوى من القانون .

— لماذا إذن لا تشكو ؟

— شكوت .. أنا وغيري من يحاول الحكام البعثيون الاستبداد

بهم .

وتنهى « أمي » ملجأ إلى غرفة مكتبه وهو يستلم في أمي :

— إنهم يستولون بكل البلد .. لم تكن أفرى ونحن نرحب بالوحدة

إنها ستسلم أعناقنا إليهم ليجربونا .

وقال أن يصل « أمي » إلى حجرته التقت إلى « أمي » قائلا :

— دعيتها تذهب .. لا تحزنيتها بجوارك .

ونظرت إلى « أمي » بتسائلة في استفسال :

— من سيذهب معك ؟

— قلت لك حصل وتاجني وسلمي .

— هذي مالك من نفسك .

وضحك « أمي » وهو يلتفت إليها قائلا وهو يحاول التقلب على

اتعماله بشككة تقسيم أرض الإصلاح :

— إذا نشب القتال .. فاعطين حراً بالطفرات ، أو بالنايلون ..

ولا تعرضي نفسك للرصاصة .

ونظرت إليه « أمي » ثقلة في غيظ :

— مزاحك سحيق .

ونظر إلى « أمي » قائلا :

في أرضه ، وسخطه على حكم البعثيين بصفة خاصة .. وعلى الوحدة التي أتت بهم بصفة عامة .

ولم أكر أحس أن « أبي » وحده — أو طمقته من الملك الذين انزعجت أراضيهم — هم وحدهم أصحاب السخط على حكم البعثيين .. ولكني كنت أحس أن السخط بدأ ينسلل إلى الكثيرين .. ومن بينهم هؤلاء الذين كان المروزي أن سبب سخط البعض هو نتيجة حنينة لمحاولة إرضائهم ، وأعطى بهم طبقة « عبد الدائم » أمي « حبيبة » . فقد أحسست بداية سخط الذين لم يأخذوا أرضا .. لأن الأرض المتزمنة من الإصلاح لم تكن تكفيهم جميعا .. كما أحسست سخط علم على من أخذوا أرضا .. بسبب الحجاب .. الذي استمر في حجاب عجيبي .. لا يسمح إلا بقدر من المطر .. قد يؤدي بالبلاد إلى مجاعة .. لو استمر سنتين آخرين .

ويبدو أن سحب التشاؤم التي برت بدهي لشعم وجه تفاؤلي تد شريكتي إياها بقية زملاء الرحلة ، فقد بدأ اللوحوم عليهم لفترة من الوقت .

وكل أول من تكلم هو « حسان » ، ولم يكن حديثه يمدد كثيرا من مجال تفكيرى .

قال « حسان » في أمي ونحن نسير بساتين الموطاة :

— سنة أخرى من الجفاف .. وتنتهى هذه الأشجار .
وتساوت سلمي :

— كيف تروى في سنى الجفاف ؟

— ارتوازيما .

— ولماذا لا نواصل زيارتنا ارتوازيما ؟

— لأن الأبهر نفسها ستجف .

وعاد « حسان » يقول في أمي :

— سوء حظنا .. أن يقرر أحسن ما حققناه ، وهو وحدتنا ..

— انكلم جلدا .

وصلت « أمي » في إمرار :

— إذا لن تذهب .

وعصت لنا بأبي :

— باب .. كفى مزلاها .

وعاد « أمي » يشعك قتلا .

— أذهب إذا ، ولا تنسى أن تروى المعرض الرامى من السويداء .

.. لقد اشتركتنا فيه .. بفضل ما لدينا من الحب والنتاج .. وحصلنا منه على جائزة .

— لماذا لم تحببني إذا ؟

— لم أعلم بها إلا هذا الصباح .

ولم يخل وقتونا كثيرا أمام فندق سراسيس .. حتى استقرت نومود من مقاعدنا .. وبدأ عوج العريش سيره متحركا في طريقته إلى الجبهة .

ولم نحس سأل الطريق .

كان الطريق محاطا بالأشجار الباسقة . ثم المزارع المسماة .. وعلى يسرته يتدفق النهر الصغير .

وكل الجو لطيفا .. نسمة حنينة ترد حينا .. وتندا حينا آخر .. مع ظهور الشمس أو اختفتها وراء اكوام السحب المتلاحقة على وجهها .

ولم ينقطع الحديث بينا طوال الطريق إلا في فترات تصغر كان كل منا يشرد خلفها في أمانيه ومشكلاته .

ولست في حاجة إلى القول بأن أمية لثالث كانت — على غير وعي مني ولا إرادة — أكثر ما يلا نسي بالهبة والتنازل . ولكن وجهه تفاؤلي .. كان يتلاحق عليه لبعته .. بين آونة وأخرى .. سحب المشكلات التي أحس بها من حولي .. وكانت أولاها مشكلة « أمي »

باسوا ما أصابنا وهو الجذاب .. لماذا يتحنا القدر مثل هذه القصة !
ولاول مرة نطق الأسطى على المتخلة فى الثالثة قالا :
— ملكا الوحدة بالجفاف ؟
ورد حسان :
— نعرف هذا ، ولكن الفلاحين الطيبين لا يعرفون ، ودعاة السوء
يحبون إلا أن يظنوا من الأسطى ما يزعزع إيمان الناس بالوحدة .
وقلت أنا فى شيء من الأسف :
— ليسوا دعاة السوء فقط .. إنما هم بعض الحكام الذين يؤمنون
زعزعة إيمان الناس بالوحدة .
وتسائل « حسان » فى دهشة :
— كيف ؟
— ألا تعرف أن الوزراء البعثيين يصرون على تطبيق قانون
الإصلاح بالطريقة التى ترغيبهم هم ، والى منحهم عاصمة التشكيل
بخصومهم ؟
وعرف « حسان » ما أعنى .. فقد كل يعرف مشكلة « أبى » ..
وههم قليلا ثم انصاع فى حديثه قائلا :
— شيء محير .
وتسائلت سلمى :
— لماذا يظنون هذا ؟
وأجاب حسان :
— لأنهم يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى الوحدة ، وحكائهم يصرون
على استقلالها لحكمهم ، ويصررون على الإبقاء على الحرب عملا .. برغم
حله شيئا .. وهم من أهل هذا يفرسون أنصارهم فى كل أجهزة الحكم
من أجل السيطرة عليها .. بل لقد سمعت أن رئيسهم يتدخل تدخل
عليا فى أجهزة الحكم .. مما لا يسمح له به منصبه .
وتثبتت أن بك « حسان » عن هذا الحديث حتى لا تشع « سلمى »

بأى نوع من الحرج .. فقد كانت أختها « عزة » من التناقض الواضحة
لمحاولة فرض البعثيين أنصارهم فى الحكم .
ولكن « حسان » استمر فى حياسته :
— لقد تقل احد زملاي من وزارة الشؤون .. وشرى فى الجنوب
والشمال .. لأن له قريبا من حزب الشعب .
وقلت أنا أحاول أن أفلق هذا الباب :
— ربما يفهم .
وقلت « نادية » تؤيد رغبتى فى إنهاء المناقشة :
— إنها شدة الحكم الجدد .. وكل مريب كما يقولون وله شدة ..
وأرجو أن ينتهى كل شيء إلى خير .
وهر « حسان » رأسه فحين يقولنا :
— إنهم لم يعودوا جندا بعد .. ولا يبدو لى أن النهاية تربيه منهم
.. إنهم يحاولون السيطرة على الصحافة لحسابهم ، ونستأظن
المسألة ستنتهى إلى حبر ، لا سيما بعد أن أعلى وزير الإرشاد البعثى
من يمسحه .
وهزئت أنا رأسى فى شيء من الحيرة :
— حارت الوحدة بين الجفاف وبين حكم البعثيين .. دعونا
ندعو الله .. أن يصون الوحدة ويسرل المطر .. ويهدى حكم البعثيين .
وسمعت « الأسطى » على « يقول فى حياسته :
— بحق الله دعائك يا ست سهير .. فلن يعيد إلينا وطننا إلا وحدة
العرب .. وسنرى الآن بعينيك .. أرضنا المسروقة .. ونعرفين كيف
نمر علينا الوحدة التى لا أمل لنا فى استرجاع أرضنا إلا بها .
واقترينا من حدود الجبهة .
اجتزنا بوابات من الأسلاك الشائكة .. وأينا جنودا ، وعربات
تطل منها المدافع .. ثم وقفنا أخيرا أمام مبنى صغير منخفض .
وهبطنا من العربات وأقبل علينا ضابط كبير ومعه بضعة ضباط
صغار .. حاولت أن أسأل عن وجهك تحت رلوف كبايتهم ، فلم أجدك .

وشرحوا لنا أشياء على غرائط مخلقة على الحائط ، ولم اهتم شيئا مما قالوا .. فقد كان اهتمامي كله مركزا في البحث هناك .

أبعد كل هذا المسير الطويل .. لا أجبك ؟ !

أبصروني مثلا أنك ذهبت في إجازة إلى دمشق ؟
غير محقول .

ولماذا غير محقول ؟

أبصروني عليك أن تنتظر لتستقبل ومود الضراء والإساءة ؟

أبصروني عليك أن تخشى أن أثبت معهم .. حتى تنتظر لتطعني ؟

ولنتهى الشرح .. وحرصا من المعنى وأحسبوا أننا سنتنقسم إلى جماعات .. وأتينا سننتقل لمرور المواقع المظلمة على الحدود .. وأتينا سمرى بأعيننا أرض فلسطين المنزوعة وسرى بأعيننا جماعات اليهود .

وكنت أسأل المتحدث :

— أسرى حيدى ؟ !

ولكني اكتفيت بأن أغمز « نافية » في ذراعها قتلة :

— أبى حيدى ؟

وقبل أن يجيبى سمعت صوت عربة تقف على باب المبنى .. ورايت ثلاثة صباط يفتشون فيها .

ودون أن أرى وجوههم ، استطعت أن أبارك معهم .. من توابك وهركانك .. وهنلت بنفسي في نرجة صيدية :

— حيدى .

وللثنت إلينا لفرى من الهاتف .

وبدت على يلاييك أبلغ آيات الدهشة وصمت .

— سيهر ؟ !

وقبل أن نمطى الضابط الكبير خيبة المسكينة ، أقلت علينا في لغة بتمسلا :

— ماذا أحضرهم ؟

ونظرت إلى في نرجة والحشة في عينيك .. بنعتي إحصاءا
بالسعادة .. وظلت لي :

— حظ مجيب .. اتعربين إلى كنت أوشك أن اعتذر من المجيء
لأصطحبكم لرئيس في العودة إلى دمشق ، ولكن القائد سألني الانتظار
حتى تنتهى زيارتكم .

وكأن القائد ينتظرك حتى يلقى إليك بتمنياته .. فاجتهد إليه ،
وحبيته .. وسمعته يقول لك :

— اصطحب جماعة من هذه الجماعات .. ومر بهم على المواقع ..
على أن نلتقي في المبنى قبل الواحدة .

وأجبت وألت ترع بك بالتحية .

— حاضر يا مدح .

ويلا تردد أقلت علينا ثقلا .

— تفضلوا .

وبدأت بك لتصاحص .

وتركت يدى تهم براحة في كفك .

لم ألم نفسي .. ولم أسرع بزرعها من كفك .

لقد سلبت نفسي بحق الاستمتاع بصحبتك .. واستبراء كل
ما تبتحنى هذه الصعبة من بضة .

أحبك كما أنت

بدأت رحلتنا في الجبهة .

وبدا لي أنك لا تحاول أن تتكلم نحوي شيئا لا تشعر به .

لم تحد هناك حرجا لي أن تعصي وحدي .. دون سائر الجماعة بكل ما تلك من قدرة على الرعابة والاعتدال ، ولم تحد رحابك لي أمرا مستقبيا ، ولا مداً أهتليك انراشد بي مثيرا للشكوك .. فقد أخذته الجميع بأخذ الشفقة والاعطف ، وبدأ لهم تصرعك نحوي تصرعا طبيعيا للرجل المهذب نحو فتاة عرجاء .

واقول إن الجميع قد أخذوه ذلك المأخذ .. لأؤكد اني لم آخذهم حينذاك كذلك .. بل أحفنه بطريقة أمتح للنفس .

أخلته كالتفعل صادق بلعني .. يشابه انفعالي لتلكك .. وتصيير صريح عن بشاعر خاصة نحوي .. نثايل بشاعري الخاصة بحوك .

شيء أبتع كثيرا .. مما تحسه لشقة الآخرين .. وعظمهم عليك .. شيء بمعطك تنفيس بحرية أكثر ، وتعب" النسبة في صدرك وكأنك تريد أن تلغز أنفاس الحياة كلها مرة واحدة .. لتضللها في خفة واسترحاء .. وكأنك لا تشعر موربك على ساقيك ، بل كأنك تتمايل لي أرجوحة أو تسري مع النسيم .

وتركت عريك وركبت عربتنا في المقعد الأمامي بحوار " حصل "

والأسطى " على " .. وتلقت مرشداً موج العريضة الجبهة بجماعتنا ، وأخذنا تسير في طريق جبلي ، وقد بدت المرتفعات من حولنا .

ولم يلبث الموج أن توقف قرب موقع أحيط بالأسلاك الشائكة .. وحيطت من الحرية تشير إلى المواقف الدفاعية المنتشرة وراء دشم من الأسمنت .. وبدأ على مقربة منه بضمة ببوت من الحجارة .. ويعدت على السطح مساحلت متناثرة جرت فيها يد الحرت دون أن تنهت فيها الضخمة .. ولعلها كانت تنظر تطارات الماء .

ولم يس على الجماعة اهتمام بشرك .. فقد كانت بهم لهفة أشد إلى الوصول إلى الحدود .. ليطلوا على الأرض المنتصبة .

ولم اك أكثر منهم إحصانا إلى ما تقول .. فقد كنت أشد احتيايا بسرائيك وأنت تتكلم وتتحرك .. متى استعاضا إلى ما تحاول شرحه . وقلت لك لاستحذتك وأنا أرى الجماعة قد انصرفوا منك إلى مراقبة ما حولهم :

— أين أرض فلسطين ؟

وأجبني بلها :

— مفرينها حالا .. هيا بنا .

وعدنا إلى العريضة مرة أخرى .

ولم نسر طويلا حتى بدأنا نتوقف .

وقال " الأسطى على " وهو يطلق زفرة حارة ويشير إلى مكان في الطريق :

— هنا كانت نقطة الحدود .. وهنا الجبرك .. طالما بررت من هنا وأنا أتبع الطريق بين فلسطين وسوريا .

وسألته :

— اسبق لك أن قطعت الطريق إلى هناك ؟

ورد لي دهشة :

— سبق لي ؟ ! .. إنه طريقنا .. الطريق إلى بيتي .

وهبطنا من العريقات .. ووصلنا على رهوة عالية .. وبدأ أبلينا
وَاد أَخْضَرُ نَسِجَ ، وَبَدَتْ الْبَحِيرَةُ تَطْمَعُ فِي لَحْدِ جَوَانِبِهِ .
وَوَقَلْنَا بِرَهَةِ كَالْمُخَوَّنِينَ .

وَوَقَلْتُ بَنَاتِي تَشِيرُ بِأَصْبَعِكِ إِلَى الْوَادِي :
— هَذِهِ بَحِيرَةُ طَابِرِيَّةٍ .. وَهَذَا مَجْرَى الْأُرْدُنِّ .. وَتِلْكَ هِيَ الْمَنْطِقَةُ
الَّتِي يَرْيُونَ تَحْوِيلَ مَجْرَى الْأُرْدُنِّ مِنْهَا .. إِنَّهَا تَتَّحُ فِي الْمَنْطِقَةِ الْحَرَامِ
وَلَنْ نَسْبَحَ لَهُمْ بِالْإِقْتِرَابِ مِنْهَا .. وَسَنُرَدُّهُمْ بِعَفْءٍ إِذَا حَافَلُوا التَّنَاسُلَ
إِلَيْهَا .

وَصَبَتْ بِرَهَةِ ثَمِ اشْرَأَ إِلَى الْوَادِ تَحْتَالًا .
— هَذَا هُوَ جَسَرُ بَنَاتٍ يَمْتَوِجُ .
وَقَبْلَ أَنْ تَكُنْ حَدِيثُكَ سَمِعْتَ صَوْتًا يَهْدُرُ فِي حِجَابَةِ :
— وَتِلْكَ هِيَ قَرْنَتِي .. هُنَاكَ .. وَرَاءَ ذَلِكَ الْمُنْحَدَرِ فِي أَقْصَى
الْيَسَارِ .

وَصَبَتْ « الْأَسْطَى عَلَى » بِرَهَةِ يَلْتَقِظُ أَنْفَاسَهُ وَارْتَفَاقَ يَتَوَلَّى
— أَجَلٌ .. أَجَلٌ .. إِنِّي أَعْرِفُهَا جَيِّدًا مِثْلَكَ الْقَلْبَ الْبَيْضَ .
وَتَهْدِجُ صَوْتَهُ .. وَانْتَلَتْ إِلَيْهِ مَوْجِدَتُهُ .. يَقِفُ شَعْرُهُ الْأَتَمْتُ
الْأَضْيَابَ وَمَحَطُّهُ الْأَسْوَدَ .. وَقَدْ لَفَّ عَمَقَهُ بِكَوْفِيَّةٍ مِنَ الصُّوفِ الرَّيَاضِيِّ ،
وَقَدْ اشْرَبَ بِبَصَرِهِ إِلَى الْأَمَاقِ حَيْثُ بَدَتْ وَسَطُ الْأَصْبَابِ الْخَفِيفِ بِصَحْبِ قَبَابٍ
وَأَبْنِيَّةٍ بَيْضَ فِي أَقْصَى الْمَزَارِعِ الَّتِي أَخَذَتْ أَبْلِينَا .
وَعَادَ الرَّجُلُ يَقُولُ .. وَكَأَنَّهُ يَحْدِثُ نَفْسَهُ .

— وَرَاءَ هَذِهِ الْقَبَابِ تَوْجِدُ السُّوقَ .. وَالطَّرِيقَ الْمَأْدَى إِلَى بَيْتِي
.. وَأَمْلِيهِ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ الْمَجْمُورِ .. اسْتَطِيعَ أَنْ أُطْلُقَ بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَمَلٍ
إِلَيْهِ .. لَا يَكُنْ لَأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ .. مَوْطِنُ أَبِي وَلَيْسَ ،
وَمَرْتَعُ صَيَايَ .

وَنَظَرَ إِلَيْهِ رَمَاتِي الرَّحْلَةَ مَشْدُودِينَ .. وَشَرَّدَ كُلَّ مَسْمٍ بِبَصَرِهِ فِي
الْأَمَاقِ حَيْثُ خَلَّتْ الْأَصْبَابُ خُفْرَةَ الْأَرْضِ مَزْرُوعَةً سَمَاءَهُ .. وَسَمِعَتْ
« نَادِيَةً » تَقْتَمُّ فِي ذَهْوِلِ :

— غَيْرُ مَعْقُولٍ .. أَنْ تَرْتَكِبَ مِثْلَ هَذِهِ الْجَسْرِيَّةِ .. فِي الْقُسُوفِ
الْعَشِيرِينَ .. أَنْ يَسْلُبَ وَطْنَ بَلْكِلْتِهِ .. بِالرُّضَةِ وَسَمَاءَهُ وَهَوَاتِهِ وَدَوْرَهُ
وَأَشْجَارَهُ .. وَيَتَشَرَّدَ أَسْحَابُهُ تَحْتَ بِسْرِ الْعَالَمِ الْمُتَهَوِّجِ .. وَيَحْرَمُونَ
مِنْ كُلِّ تَرَائِيهِمْ وَتَرَائِثِ أَجْدَادِهِمْ ، لِيَهْدِيَ إِلَى شَرِائِمٍ مِنْ كُلِّ بَقَاعِ الْعَالَمِ ..
غَيْرُ مَعْقُولٍ أَنْ يَقِفَ أَسْحَابُهُ عَلَى اعْتَابِهِ يَتَلَمَّحُونَ إِلَيْهِ فِي بِلَاسٍ وَحَرَمِيٍّ ..
وَيَرْجِعُ الْفُرْيَادُ فِي أَرْضِهِ .. غَيْرُ مَعْقُولٍ أَبَدًا .

وَجِئْتُ الْمَسْتَبْرَأَةَ أُخْرَى ، وَعَادَ « الْأَسْطَى عَلَى » يَرُدُّ وَهُوَ بِشِيرِ
يَبْدُو إِلَى الْقَلْبِ الْبَيْضِ :

— لَمْ يَنْزِعْهَا أَحَدٌ مِنْ بَيْسِي أَبَدًا .. تِلْكَ هِيَ بِلَاسِي .. وَسَتَبْقَى
أَبَدًا بِلَاسِي .. إِنَّهُمْ غُرْيَادٌ مِمَّا طَلَّ بِهِمُ الزَّمَنُ .
وَرَبِيتُ كَنَّتَهُ فِي رَفَقِ شَامِرٍ كَهْلٍ وَهَفَفَ بِهِ :

— إِنَّهُمْ كَالشُّوْكَةِ فِي الْجَسَدِ .. لَنْ يَسْتَرْجِعَ حَتَّى يُلَاقِظَهَا . أَوْ تَقْصِي
عَلَيْهِ .

وَرَدَعْتُ أَنْتَ وَهَلْهُ نَفْسُكَ إِحْسَانِي مَلَقَقَةً :
— لَنْ تَقْصِي عَلَيْهِ أَبَدًا .. وَنَحْنُ هُنَا .. تَتَشَاكَلُ أَبَدِيًّا .. وَتَتَسَاوَدُ
اَلْكُتَابُ .

وَأَجَابَهُ الْأَسْطَى عَلَى :
— أَوْ كُنَّا كَذَلِكَ دَائِمًا .. وَلَوْ كُنَّا كَذَلِكَ فِي كُلِّ مَتْعَةٍ مِنْ أَرْضِنَا
الْعَرَبِيَّةِ لَمَا هَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ بِلَاسِي شَيْءٌ .. لَمَدْتُ إِلَيْهَا فِي أَمِصَّةٍ عَمِيقَةٍ .
وَقَالَ الشَّامِرُ الْكَهْلُ فِي إِهْنَانٍ :

— سَتَمُودُ .. إِنَّكَ صَاحِبُ هَلٍّ .. وَالْحَقُّ لَا يَخْفِي .
وَطَلَّكَ وَقَمَّنَا عَلَى الْأَرْضِ السَّلْبِيَّةِ .

لَمْ أَكُنْ أَفْرَى أَيْ شَيْءٍ كَالَّذِي يَجِدُنَا إِلَيْهَا .. وَيَدْعُنَا إِلَى طَوْلِ النَّظِيلِ
فِيهِمَا .

أَهِيَ الْأَمْتَى الْحَلْوَةَ فِي أَنْ تَمُودَ إِلَى الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الْقَطْمَةِ الْحَيَّةِ
الَّتِي أَنْصَبَتْ مِنْهُ .. مَزَقَتْ لَوْصَالَهُ وَقَطَعَتْ تَرَائِيَتَهُ .. وَفَصَلَتْ رَأْسَهُ

من جسده .. وياعدت بين عليه واسنله .. وسدت الطريق بين
أوله وآخره !

أهـ الرثبة الحنية في النهبوط إلى الوادي الأحمر .. والإسك
بالأرض الطيبة المحرمة علينا !

أم هي التصورات الحزينة لهؤلاء التابعين في الخيام .. يعيشون
على دبلة خائفة من آمال العودة ؟ !

وكأن لابد أن يائي من يترعنا من وقتنا الفاردة التي ملأنا
بالأحاسيس المضطربة .. المكنة بالحرن والسبق والعصب والتعالم
والشقاوم .

وحضت بنا لتوفئنا من شرونا قتلا :

— هيا بنا .. لقد حان الوقت للعودة .

وحنا إلى العريكة .. وجلست بجواري هذه المرة .. فقد جلست
« نادية » و « حسان » في أحد الأتوبيسات مع ثلة من أصدقائهما من
الكتاب والمحبيين .. ولم التفت كثيرا إلى الطريق .. فقد أهدت
في الحديث معك .

وبدأت حديثك وأنت تقول لي بفرحة صبيانية :

— لم يحظر سالي أبدا أن تزورينى هنا .

ورخت أنصيد معك المنيح بطريقة ساحلة .. فقلت لك بمسألة :

— لعلى لم تصيب لك في الكثير من الإزعاج ؟ !

ورددت في خبت وأنت تهز رأسك :

— إزعاج محتمل .

وتسألت سلمى ضاحكة :

— ولكنه إزعاج على أية حال .

— أجل .

وقلت وأنا مدعية الغضب .

— لو عرفت ذلك .. لكنت عدلت عن الحضور .

— كنت شقى كارثة .

وضحكت سلمى ثقلة :

— والإزعاج أخف من الكارثة .

— طبعاً .

— وأي نوع من الإزعاج قد سببناه لك ؟

وأجبت وأنت تنظر إلي بملئك الفشة .. بللة الميدان :

— كنت أود أن أكون أكثر ليانة في لبس .. إنى أحس أنى في
منتهى البهولة .

واهستت أنك تحول بخورك أن تنصيد بحيتي .. وصبت في
أرد عينك بمس أسنوك فقلت في مראה .

— معك حق .

وضحكت أنت .. فقد كان قولى آخر ما توقع من رد ، وقلت
معتزلاً :

— في المهرجان القادم سأنتظركم بالتشريعة .

— تشريعه في الميدان ؟

— تشريعه لاستقبالك .

— ولكنى لا أحب التشريعة .

— تحيين البهولة .

— أحبك كما أنت .

فتنبا بسائلة .. ومن مير تصد لمعاها العيب .

فتلنا على مسبح من « سلمى » و « الأسطى على » .

وأجبت أنت بنفسى اللجة السهلة البسيطة :

— وأنا أيضا .. أحبك كما أنت .

ولم يكن من المتصور أبدا أن جيلتنا البسيطتين العريختين المتبادلتين

في معرض مراح تضالان أي تعبير جاد للحب .. وإلا لما حرزنا على

قولهما بتلك الطريقة العلقية .

لقد قلنا كلانا بمس البساطة التي يعبر عن حبه لنوع من الفكاهة

أو صند من الطوى .

مع ذلك سافنا الوجوم برهة .. وكفى الجملة البسيطة قد حصلت من المعاني أكثر مما كنا نريد لها .. أو كأنها — عبرت عنها أنت مها بعد — فذيلة انتجرت على غير قصد من صاحبها .

واسرعت أنت تكتم الانتصار قبل أن يشعر به أحد ، وتسكت الرنين قبل أن يطرُق بجلجلته الأذان .

وقلت تحول الأنظار إلى اتجاه آخر بعيدا عن الطريق الشائك الذي كنا — سذاجة — نجر إليه خطانا .

وقلت وأنت تشير من النفاذة إلى أحد المواقع الدفاعية :

— تحيات المدايع لا تكاد تسكت بيتنا ومن اليهود .

وتال الأسطى على :

— ربنا ينصرك .

وتساطت سلمى :

— من البادئ ملتحية ؟

ورددت ضاحكا :

— هم يبدعوننا ونحن نرد بلحسن منها .

وصمت برهة ثم أردفت قائلا :

— وإن كنت أعتقد أنهم يندرون لمرأ أكثر من مجرد تحية .. يحيل

إلى أنهم يحولون أن يجسوا نيشنا .. لحلمهم يعرفون مدى جدتنا في مغالبة محاولتهم تحويل مجرى الأردن .

وساطك في قلق :

— أيمكن أن تحدث معركة ؟

وقلت بأسيا :

— نحن نلظف الحركة في كل لحظة .

ووصلنا إلى رئاسة المنطقة .. واتبعنا إلى ميس الفيض وكنات بقية الجبايات قد وصلت وقتلوا في حلقات ينهشون من الأرض الضفراء الطبية المختصية التي شخت أعضائهم عندما وقتلوا يرمقونها من فوق الجبل عند الحدود .

ولم يطل بنا الوقوف حتى دخلنا إلى القاعة المستطيلة التي صفت الاعتماد فيها حول مائتين كبيرتين ، ومائدة صغيرة على رأسها ، جلس عليها المريق قائد الجيش ومن حوله الشعراء والأدباء والضياف . وجلست بجوارى ورحمت تقدم إلى "الطعام قتلا :

— أنت شيفتي .

— من قال هذا ؟

— الجيش صاحب الدعوة .. وأنا من الجيش .

ونظرت أنا إلى صحن الطعام المفيدة التي رعت أبلنا وساطك صاحبة :

— إذا كنت صاحب الدعوة حقا .. أتعرف أسماء هذه الأطعمة

التي تتجهلى ؟

وأجبت في حياء :

— طعما .

واثرت إلى أحد الأضياف وساطك :

— يا هذه ؟

وأجبت في ثقة . وكأنك ملأب يعرف دروسه جيدا :

— كيه تيه .

— وهذه ؟

— تولة .

— يا شاء الله .. لقد بت خبيرا في الأطعمة السورية .

— أكون غبيا إذا لم أصبح خبيرا .. ونحن لا نعمل هنا سوى

الأكل .

وانبت قولك ضاحكا :

— والرد على تحيات اليهود .. بأحسن منها .

وشاركنا الذين حولنا الضحك .. وقبل أن تنتهي من ضحكنا أقبل الخدم يحملون دسمة جديدة من الطعام ، ووضع أحدهم بعض الصحاف

أبلىنا ، ونظرت إليك في خبث ، وأنت تمد يدك باللمعة .. ونلت
بمسألة :

— اتعرف يا هذا ؟

وأخذت تنقل من الطبق الكبير إلى طبقى وأنت تحاول معرفة الشيء
الذي تفرغه .

وبدت عليك الحيرة .. وأنت لا تعرف كنه ذلك الشيء الذي تفرغه
.. وفلت لك سافرة :

— لها زلت تصر على أنك صاحب الدعوة ؟

وأجبت بلهجتك المصرية الطليقة ، وأنت تهز رأسك بالنفي :

— لا .. الصنف ده .. صعب ..

ثم أردت ضاحكا :

— ماذا أفعل وهم لا يقتضونه إلا للضيوف .. الظاهر أنه صنف
ممتاز .. يا أسبه ؟

— غنة مجدوس .. ألم نأكله من قبل ؟

— لا .

— هذا خطأنا .. كان يجب أن أعرّفك به .. عندما تعود إلى دمشق
أول مرة .. ستناول العشاء عندهنا .. وسأقدم لك ..

وأخذت تأكل منه وتساقلت مبالغاً في إظهار الاستطعام به :

— يم يصنع ؟

— من البانجن المحشو بالجوز .

— كل شيء منكم محشو بالجوز والنور والفسق .

ثم أردت مغالاً :

— وهذا سر جياكم .

وضحكت من قولك وتسانلت سافرة :

— من علمك الغزل ؟

ونظرت إلى عيني وأجبت ضاحكا :

— جافنه .. علم الغزل .

وعبرني من مزاحك اللذيذ .. شعور باللمعة والطرب كثت تخطط
المزاح بالجد .. والضحك بالغزل .

وكانت المرة الأولى أن أشرع يأتني أغزل وأطرب للغزل .

كنت فيما مضى ألقى أيلت الإطراء من الأترباء والأصدقاء فلا تثير
في نفسي أكثر مما تثير نظرة إلى وجهي في المرأة .. صبحت في نفسي
الطمعينة على شكلتي .

لم أحس أبداً بنشوة من نظرة إيجاب طفتي بعيني .. ولا كلمة
غزل تبهتني يأتني جميلة .

ولكن منك أنت .. كان شيء آخر .

لم يكن يطربني فقط .. بل كان يطربني ، ويرسب في أعمالي ..
لاستميده في ذاكرتي .. لأطرب منه كلما شعرت بحاجة إليه ..

وكنى اخترته لأجتره .

وتبل نهاية الطعام .

بدأت الخطب والفصائد .

ألقوا تصائد .. كثيرة .. طويلة .

عجبا لهؤلاء الشعراء ، لا يملون الإنشاد أبداً .

يستلصمون الكلمات في فهم .. وكثما الحلوى .

وكنيت أنخيل أنهم ملوا فطر الإنشاد في المهرجان .

ولكن .. أبداً .

لقد بدوا .. وكان انواهم طليقت طوال المهرجان ، وكان الولية
نصت الضخم الذي أطلق على شعاعهم .. فاطلقوا ينشدون في لهفة .

ولو لم يكونوا شعراء .. لطفنا .. عذاب القول .. حلوى الحديث
.. فكانت مصيبة .

وانتهى الإنشاد أخيراً .. بعد أن اعتبرت الولية .. كيوم إغاضي
المهرجان .

وقدنا نخشى البطون بالطعام .. نخشى الإذهان بالانحمار .

وسألنا أحد الضباط ونحن نهم بفخارة القاعة إلى العربات :

— اتحبون أن تشاهدوا معرض الإنتاج الزراعى !
 وتذكرت ما قال « أبى » من المعرض وأجبت فى حيلة :
 — أجل .. إنا نريد مشاهدته .
 وأقبل « حسان » يتسائل فى دهشة وهو ينظر إلى الساعة :
 — ماذا تريدان أن تشاهدى ؟ لقد أرب الوقت .
 ورددت فى حيلة :
 — قال أبى إنا عرضنا بعض إنتاجنا فى المعرض .
 وتساءلت فى نفس الحيلة :
 — حقاً ؟ إنا هيا بنا .
 ولم يكن المعرض بعيداً .. ولم يكن أكثر من قاعة صغيرة عرض
 فيها بعض أنواع الخضار والفاكهة .
 ولكن .. كانت فرصة ممتعة .. أن نقضى معاً وقتاً أطول .
 ورحلت انكأ وإليك أمام الفاكهة المعروضة .. حتى وصلنا إلى
 القسم الذى عرضنا فيه إنتاجنا .. فرحت أمامك بما عرضنا
 ثالثة وأنا أثير إلى أحد متلبد العنب :
 — ما رأيك فى هذا العنود ؟
 وأمست بحبة من حياته بمسئلاً :
 — استطيع أن ألتقوه ؟
 ورددت عليك ضاحكة :
 — تستطيع أن تأخذه بأكمله حبة بنى .
 وأمست بالعنود الكبير ، وقلت فى لهجة جددة :
 — أفضل أن أستهدك شيئاً يبقى .
 وكنت أمسك بسلسلة مفتاح تعودت أن أشغل بها أصابعى وقد
 كتب عليها بالإنجليزية « عد ثالثة » ، وهددت بدى بالسلسلة ثالثة :
 — خذ هذه .. فلعلمها تمديدك إنا ثالثة .
 وأمست بها بين أصابعك فى شيء من الحرص وأجبت ثالثة :

— سألذكرك بها .. عدت أم لم أمد .
 — بل ستعود دالها .

وقد يبدو للحديث معنى كبير صيق .. ولكنى أذكر أنه تيسل
 وتذاك ينس البساطة التى كنا نطرق بها أى موضوع عام .
 لم نحاول أن نخفت أصواتنا .. أو نقوله بمعزل من الناس ..
 فقد كنا نلصد بالحديث وجهه الواضح الصريح العام .. ولم نحاول قط
 أن نقر بأن له وجهاً مستتراً خامساً ، يند أحداً بالآخر بخيوط خفية ..
 نجيبها حتى عن نفسها .
 وأخيراً تركنا قاعة المعرض .. واتجهنا إلى الحريت ، ووقفت
 لوداعنا .
 ولم يتلكنى لسى لوداعك .. فقد حصلت من يومى على رسميد من
 السعادة يطفى على أى إحساس بشقاءه . ولم يبد لى وداعك ..
 وداعاً بقدر ما بدأ إناذاً بلقاء جديد .
 رأكد لى إحساسى قولك وانت تشد على يدى :
 — سأتى إلى دمشق فى الخميس القادم .
 — فى أية ساعة ؟
 — بعد الظهر .
 — ستحدث إناى فى التليفون ساعة وصولك ؟
 — إن شاء الله .
 — وستتمشى معنا ؟
 — ننة مجدوسه ؟
 — وكبه وتبولة وكل الأطعمة السورية التى نحبها .
 — يبدو لى لى لن أبلل شيئاً لير الطعام .
 — ساسمعك تسجيلاً جديداً للمروز .
 — ولم تيد حيلة كبيرة ..
 — ولردت أقول :

— تسجيل لأغنية حديدية من أغاني عبد الوهاب تغنيها فيروز
 بتوزيع جديد لإخوان رحباني .
 وتساءلت في اهتمام أكثر :
 — ما هي ؟
 — يا جارة الوادي .
 وحسنت في فرحة :
 — حديجة ؟
 — أجل .. سأسمعها لك هي وأغنية أخرى من تلمين عبد الوهاب
 اسمها « إسهار » .
 وعدت أقدم على يدك واتسائل :
 — لعل كل هذا .. يكون مغرباً لك بالجميع .
 ونظرت إلى عيني تلك النظرة المعجبة الخطوة التي ملأني نشوة ،
 وأنت تقول لي : « جفنة علم الغزل » .
 وقلت لي في لهجة رقيقة حنون :
 — لست في حاجة إلى مغربتي .. يكفي أن أراك .
 وودعني بأجل ما يمكن أن سمعته أنشأ من قولك الجليل ..
 وتحركت بنا العربة وعينك معلقة بعيني .. وابسلفة رقيقة تحلو
 شفتيك ويذكرك تلوح لي مودعة .
 وخيم علينا الصمت طوال الطريق .
 ولم أكن في حال تساعدني على الحديث أو الاستماع .. كنت
 أتوق إلى التفكير .. في كل ما مر بي .
 كنت في حاجة إلى أن أسمع في الأتوال الخاطفة التي دارت بيننا ..
 ولعلت كشعل البرق .. لنضيء الجوانب المغمية من حياتي وتلقي شعاعاً
 مضيئاً على الطريق ذي البداية المشرقة .. لتزيل من نفسي الخشية من
 نهايته الغامضة .
 كان ينمسي إحساسي عام بمساعدة غامرة .. ولتقي كنت في حاجة
 إلى مراجعة أسباب تلك السعادة مع نفسي .

كنت أريد أن أثبت من تيلها على أسس حقيقية .. ثابته .
 كنت أسأل نفسي « ألمحتها أسبانيا موهومة للسعادة » وتركت
 الأوهام تعيش بها .. لم كان كل ما استبست به حقاً .. صليفاً ؟
 وهكذا شرد بي الذهن ، لاستعيد للنسي كل ما قلت لي ، واستجلى
 معانيه .. ومتأسده .. وكل هذه الأنوال البسيطة .. الغار مويصة
 تحتاج إلى تفسير .
 ذكرت أول ما ذكرت ردك على تولى : « أحبك كما أنت » بكك
 « تعبنى كما أنا » .
 ورغم أنها قبلت بنفسي البسطة التي تقول بها .. إنك تصب
 التفاحة كما هي .. فقد أحسست أنها عنيت لي شيئاً كبير .. إذ كنت
 قد قلتها رداً على تولى .. إلى أحبك كما أنت .. ورغم أنني قلتها
 ببسطة .. فلا أظن ذلك يمنع أبداً من إحساس في أميقي بأنني عنيت
 بها ما أقول .. وأني فعلاً أحبك دائماً كما أنت .. وكيفما كنت .
 فإذا كنت قد عنيت بقولك ما عنيت بقولي .. فهو قول يستحق
 التمعن والتفكير ؟
 ولا سيما لي أنا ؟
 لمؤكد تعبنى كما أنا .. قول لا يسهل على إنسان عاقل ذكر
 منك أن يتوله لمرجاء مثلي .
 وعندما تعنى أنت قولك هذا .. وأنا أحس لك بما أحس ، وأنا
 اتقد من حياتي ومن أميقي بصل هذا العطر والخوف .. فأنت تمنعني
 قدرا من الشجاعة في مشاعري وتصرفاتي بملأني بالتفاؤل .. ويلاً
 حياتي بالإسراق والأمل .
 وعدت أذكر نظرتك في عيني . وكلمات الغزل التي سقتها إلي .
 وأنا أعرف الرجال المغالين بطبعهم ، ومن بينهم أبي . ولكني لم
 أحس قط أنك منهم .. فأنت خجول حبي . متحفظ في قولك .. حذر
 في حديثك .

فهرست

« الجزء الأول »

صفحة	محتوى
٢	مقدمة
٥	الإهداء
٦	١ - وأنت طيبة
٢٠	٢ - مناقشة حول مقدمة
٣٣	٣ - أول فمعة
٤٥	٤ - ساق في قصص
٦٠	٥ - قبيل الرحيل
٧٧	٦ - إحساس بالوحشة
٩٢	٧ - وكنت هناك
١٠٧	٨ - ومنوس .. ودعوات
٢٢١	٩ - عملية هينة
١٣٩	١٠ - أيلم ثقيلة
١٥٤	١١ - مجرد دعوة
١٦٩	١٢ - الناس في الطريق
١٨٥	١٣ - قوة مجهولة
٢٠١	١٤ - البقاء للأصلح
٢١٨	١٥ - النهار والليل
٢٣٦	١٦ - موازين خاصة
٢٥٣	١٧ - موعنا غدا
٢٦٨	١٨ - بداية مشرقة
٢٨٢	١٩ - رغبة في لقاء
٢٩٦	٢٠ - أحبك كما أتيت

فلما نظرت في عيني نظرة حلوة ، وإذا مسحت لي كلاما جميلا ..
فكفك لا شك تعلى به شيئا .

وهكذا أخذت أردد لنفسى كل ما قلت .. وكل ما فعلت .. لأؤكد
لنفسى أنى قد أتيت سمعنى على أسباب حقيقية .. غير موهومة .

وإن ذلك الإحساس الجميل .. الغامض الذى أحس لك به ..
لا شك قد أحسست لى مثله .

ووصلت بنا العربية إلى دمشق .. وصوتك يهتف لى الذى : « يكفى
أن أراك » .

— ١٢ —

(ثم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^